مقــالاتــــي

المنشورة في جريدة

الوسط
EL WASSAT
يومية وطنية شاملة

ISSN 2761-7771

خلال سنة 2022م

أ.د. مسعود فلوسي

بسم الله الرحمن الرحيم

البيانات المرجعية لهذه المقالات

المنشورة في جريدة الوسط – اليومية الجزائرية

الرقم	العنوان	العدد	التاريخ	الصفحة
1	الأستاذ الدكتور حسن رمضان فحلة كما عرفته(1)	5740	02 جمادى الثانية 1443 هـ، 06 جانفي 2022م	7
2	الأستاذ الدكتور حسن رمضان فحلة كما عرفته(2)	5741	04 جمادى الثانية 1443 هـ، 08 جانفي 2022م	9
3	الصحة نعمة وأمانة من واجبنا المحافظة عليها(1)	5762	29 جمادى الثانية 1443 هـ، 02 فيفري 2022م	8
4	الصحة نعمة وأمانة من واجبنا المحافظة عليها(2)	5763	30 جمادى الثانية 1443 هـ، 03 فيفري 2022م	7
5	الصحة نعمة وأمانة من واجبنا المحافظة عليها(3)	5764	01 رجب 1443 هـ، 05 فيفري 2022م	7
6	النظافة واجب شرعي وسلوك حضاري(1)	5773	11 رجب 1443 هـ، 15 فيفري 2022م	8
7	النظافة واجب شرعي وسلوك حضاري(2)	5775	13 رجب 1443 هـ، 17 فيفري 2022م	7

8	المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب(1)	5781	20 رجب 1443 هـ، 24 فيفري 2022م	9
9	المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب(2)	5782	22 رجب 1443 هـ، 26 فيفري 2022م	7
10	المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب(3)	5786	26 رجب 1443 هـ، 02 مارس 2022م	7
11	المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب(4)	5787	27 رجب 1443 هـ، 03 مارس 2022م	7
12	الرجولة.. استعداد وأخلاق مواقف	5797	11 شعبان 1443 هـ، 15 مارس 2022م	7
13	سبب ظهور الفساد وسبيل إزالته(1)	5803	18 شعبان 1443 هـ، 22 مارس 2022م	8
14	سبب ظهور الفساد وسبيل إزالته(2)	5804	19 شعبان 1443 هـ، 23 مارس 2022م	8
15	سبب ظهور الفساد وسبيل إزالته(3)	5805	20 شعبان 1443 هـ، 24 مارس 2022م	9
16	الصيام سبيل تحقيق التقوى	5815	04 رمضان 1443 هـ، 05 أفريل 2022م	8
17	الصيام والقرآن شفيعان يوم القيامة	5816	05 رمضان 1443 هـ، 06 أفريل 2022م	5
18	هدي النبي ﷺ في رمضان	5817	06 رمضان 1443 هـ، 07 أفريل 2022م	9
19	أربع خصال تفتح بها أبواب الجنان	5818	08 رمضان 1443 هـ، 09 أفريل 2022م	8
20	وصية نبوية جامعة لخيري الدنيا والآخرة	5819	09 رمضان 1443 هـ، 10 أفريل 2022م	9
21	الدعاء والصيام عبادتان متلازمتان	5820	10 رمضان 1443 هـ، 11 أفريل 2022م	8

22	الاستغفار شعار المتقين الأبرار	5821	11 رمضان 1443 هـ، 12 أفريل 2022م	8
23	أعمال صالحة أخفى الله عز وجل أجورها	5822	12 رمضان 1443 هـ، 13 أفريل 2022م	8
24	خارطة طريق نبوية للنجاة يوم القيامة	5823	13 رمضان 1443 هـ، 14 أفريل 2022م	9
25	ابن باديس.. الرجل الذي عاش للإسلام وللجزائر	5824	15 رمضان 1443 هـ، 16 أفريل 2022م	9
26	الناس صنفان في التعامل مع رمضان	5825	16 رمضان 1443 هـ، 17 أفريل 2022م	8
27	رمضان شهر التراحم والتضمان والتآزر	5826	17 رمضان 1443 هـ، 18 أفريل 2022م	9
28	فضيلة الذكر ومنزلة الذاكرين والذاكرات	5827	18 رمضان 1443 هـ، 19 أفريل 2022م	9
29	تصرفات محرمة تقضي على أجر الصيام	5828	19 رمضان 1443 هـ، 20 أفريل 2022م	9
30	فضل العشر الأواخر من رمضان وليلة القدر	5829	20 رمضان 1443 هـ، 21 أفريل 2022م	9
31	رمضان شهر الانتصارات الكبرى في تاريخ المسلمين	5830	22 رمضان 1443 هـ، 23 أفريل 2022م	9
32	رمضان فرصة لإصلاح وتصفية القلوب	5831	23 رمضان 1443 هـ، 24 أفريل 2022م	9
33	لماذا لا ننتفع بالقرآن في حياتنا؟	5832	24 رمضان 1443 هـ، 25 أفريل 2022م	9
34	الرفق أفضل أسلوب في إدارة الحياة	5833	25 رمضان 1443 هـ، 26 أفريل 2022م	9
35	وقفة مع الذات في نهاية شهر رمضان	5834	26 رمضان 1443 هـ، 27 أفريل 2022م	9

36	وظائف ختام شهر رمضان الفضيل	5835	27 رمضان 1443 هـ، 28 أفريل 2022م	9
37	من معاني الاحتفال بالعيد في الإسلام	5836	29 رمضان 1443 هـ، 30 أفريل 2022م	9
38	أستاذي الدكتور عبد العزيز شوحة كما عرفته	5880	23 ذو القعدة 1443 هـ، 23 جوان 2022م	9
39	أخي الدكتور عبد المجيد مباركية وذكريات لا تنسى(1)	5881	25 ذو القعدة 1443 هـ، 25 جوان 2022م	9
40	أخي الدكتور عبد المجيد مباركية وذكريات لا تنسى(2)	5883	27 ذو القعدة 1443 هـ، 27 جوان 2022م	7
41	الخصائص الفريدة لثورة نوفمبر المجيدة	5986	05 ربيع الثاني 1444 هـ، 30 أكتوبر 2022م	9
42	أستاذي الدكتور حسن أبو غدة كما عرفته	6007	03 جمادى الأولى 1444 هـ، 26 نوفمبر 2022م	10
43	أخي الأستاذ عبدالله باشا.. مسيرة عطاء ووقفة وفاء(1)	6014	11 جمادى الأولى 1444 هـ، 04 ديسمبر 2022م	7
44	أخي الأستاذ عبدالله باشا.. مسيرة عطاء ووقفة وفاء(2)	6015	12 جمادى الأولى 1444 هـ، 05 ديسمبر 2022م	10

الجزء الأول

للذكرى والترحم

الأستاذ الدكتور حسن رمضان فحلة كما عرفته



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

فقدت الساحة العلمية والدعوية في الجزائر يوم الإثنين 30 جمادى الأولى 1443هـ الموافق 3 يناير 2020م، أستاذا متمكنا وداعية متميزا قضى حياته المديدة (82 سنة) في تدريس العلوم الشرعية والنشاط الحثيث في الدعوة الإسلامية وتأليف الكتب العلمية والتربوية والدعوية، ألا وهو الأستاذ الدكتور الشيخ حسن رمضان فحلة، الحموي السوري مولدا ومنشأ وتكوينا، الجزائري تعليما وإقامة ووفاة، حيث توفي بمستشفى مدينة قسنطينة متأثرا بمضاعفات إصابته بفيروس كورونا. وكان المرحوم قد تقاعد في السنة الماضية (2020) من عمله بكلية العلوم الإسلامية في جامعة باتنة1.

لمحة عن حياته

لأبوين حمويين: الوالد أحمد فحلة والوالدة بديعة البيطار، ولد حسن أحمد رمضان فحلة في حي باب الجسر من مدينة حماه بالجمهورية العربية السورية يوم 25 يناير 1940، وهي المدينة المعروفة من قديم بعلمائها الكبار وتضحياتها الجسام، فكان له من العلم والتضحية نصيب.

ترعرع في هذه المدينة ونشأ فيها، وتلقى فيها تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي، حيث كان أول التحاقه بالتعليم الابتدائي حين سجله والده أحمد في مدرسة خاصة تسمى (دار العلم والتربية)، وكانت هذه المدرسة ذات نظام تربوي صارم وتوظف أساتذة أكفاء متميزين وتتقاضى مبالغ مالية من أولياء وآباء التلاميذ الملتحقين بها، وعلى الرغم من أن والده (أحمد) كان رجلا فقيرا عائلا إلا أنه لم يدخر جهدا في توفير المال لتعليم ابنه. وبعد نهاية المرحلة الابتدائية واصل حَسَن تعليمه في نفس المدرسة إذ كان بها قسم إعدادي، حيث دَرَس بها مدة أربع سنوات ليتخرج منها بشهادة التعليم الإعدادي مع التفوق في نهاية السنة الدراسية (1955–1956)، التحق بعدها بثانوية ابن رشد الرسمية، والتي دَرَسَ بها في الفرع الأدبي مدة ثلاث سنوات ليحصل على الثانوية العامة في الآداب في نهاية السنة الدراسية (1958–1959)، شارك بعد ذلك في مسابقة القبول للدراسة في الصف الخاص لسنة واحدة في دار المعلمين بحلب فكان الأول من بين الناجحين حيث درّس بها سنة واحدة (1959–1960) تلقى خلالها تكوينا في التربية وطرق التدريس.

بعد نهاية التكوين، تم تعيينه معلما في مدرسة قرية "القرين" الابتدائية بمحافظة الرقة أين قضى سنتين (1961–1963)، انتقل بعدها إلى مدرسة قرية "اللطامنة" الابتدائية في ريف حماه ودَرَّس بها مدة أربع سنوات (1963–1968)، وفي العام الدراسي (1968–1969) عين مديرا لمدرسة "صوران" الريفية الابتدائية، مع إشراف إداري على إعداديتها. وفي عام (1969–1970) نُقل إلى مدرسة "كفر بهم" الابتدائية، وفي العام الموالي (1970–1971) وبناء على طلبه نقل إلى مدرسة الظاهرية الابتدائية.

وفي مطلع العام الدراسي (1971–1972) صدر مرسوم وزاري بنقله إلى سلك مدرسي التعليم الإعدادي، فما كان من مدير التربية بحماة إلاّ أن عينه مديرا لمتوسط (عقرب)، وبعد سنة دراسية واحدة، أي في مطلع عام (1972–1973)، تم نقله إلى ثانوية "كفر زيتا" كمدير ومسير، ثم نقل في العام الموالي (1973–1974) ليعمل معاونا لمدير ثانوية عثمان الحوراني التي تقع في قسم مدينة حماة الشمالي في منطقة الحاضر.

وبالتوازي مع عمله معلما انتسب إلى كلية الحقوق بجامعة دمشق في العام نفسه الذي بدأ فيه التعليم (1961–1962)، لكنه حوّل منها بعد ذلك إلى كلية الشريعة في العام الجامعي (1962–1963)، حيث درس بها أربع سنوات وتخرج منها بشهادة الليسانس في نهاية السنة الجامعية (1965–1966)، وكان من أساتذته فيها فطاحل العلماء من أمثال مصطفى السباعي، مصطفى الزرقا، محمد المبارك، محمد فوزي فيض الله، فتحي الدريني، صبحي الصالح، محمد أديب صالح، وهبة الزحيلي، وغيرهم من العلماء الأفذاذ الذين تأثر بهم واستفاد منهم ونهج نهجهم.

بعد تخرجه بشهادة الليسانس في العلوم الإسلامية من كلية الشريعة بجامعة دمشق، التحق خلال سنة (1966–1967) بكلية التربية في نفس الجامعة حيث حصل على دبلوم في علم النفس التربوي، كما حصل من نفس الكلية في السنة الموالية (1967–1968) على دبلوم في الإدارة والتفتيش.

في العام الجامعي (1968–1969)، طلب الإحالة على الاستيداع وارتحل إلى جمهورية مصر العربية، وهناك التحق بالدراسات العليا في تخصص التربية، حيث بعد دراسة سنة واحدة كللت بالنجاح في الدروس النظرية تم تسجيل موضوع رسالته للماجستير بعنوان (وظيفة التربية الدينية في بناء المجتمع السوري الجديد) تحت إشراف الدكتور محمد أحمد الغنام، وقد أعد رسالته وأتم كتابتها، إلا أن الظروف حالت دون مناقشته لها في حينها، حيث توفي مشرفه، ثم توفي والده، فوجد نفسه عائلا لأسرتين: أسرته هو حيث إنه كان قد تزوج سنة 1957 وهو تلميذ في الثانوية، وأسرة والده، مما جعله غير قادر على مواصلة المسيرة فتوقف في منتصف الطريق.

واصل عمله في التعليم، وقد أتيحت له في بداية العام الدراسي (1974–1975) فرصة السفر إلى الجزائر والعمل فيها بعد اختياره ضمن البعثة التعليمية السورية، وعند وصوله إلى الجزائر عين أستاذا في ثانوية فاطمة الزهراء للتعليم الأصلي للبنات بمدينة قسنطينة، والتي درس فيها مدة أربع سنوات دراسية كاملة، ابتداءً من العام الدراسي الأول (1974–1975) وانتهاءً بالعام الدراسي (1977–1978).

عاد الشيخ حسن إلى سورية عام 1978م واستأنف عمله كمدير لإعدادية "ناصح علواني" في حي الضاهرية في الجهة الشمالية الغربية من مدينة حماة بداية العام الدراسي (1978–1979)، وبعد سنتين من العمل فيها انتقل إلى المملكة العربية السعودية مع مطلع العام الدراسي (1980–1981) حيث عين في ثانوية الأنصار بالمدينة المنورة، لكن مع نهاية العام رفضوا تجديد عقده فاضطر للعودة إلى سوريا ومنها ارتحل من جديد إلى الجزائر ليدرس في المعهد الإسلامي لتكوين الإطارات الدينية بمدينة سيدي عقبة في ولاية بسكرة تحت الإدارة الحكيمة للشيخ عمر دردور رحمه الله، وكان الأستاذ حسن قد ترك زوجته وأولاده في بيتهم في مدينة حماه على أن يلتحقوا به عند تهيئة الظروف لذلك، وفعلا جاء إلى الجزائر ولداه أمجد وأنس في ديسمبر 1981 لمزاولة دراستهما في المدارس الجزائرية على أن يلتحق بقية أفراد الأسرة بعد ذلك..

لكن الذي حدث كان غير ذلك، حيث قدر الله أمرا آخر، فقد وقعت الأحداث المأساوية التي شهدتها مدينة حماه في فبراير من سنة 1982، وذهب ضحيتها الآلاف من المدنيين الذين كان من بينهم زوجة الأستاذ وأولاده الأربعة الذين بقوا معها، وكذلك أخوه وأولاده السبعة، وأيضا أخته وزوجها وأولادهما وحفيدهما، ولم ينج من أسرته سوى ولديه أمجد وأنس اللذين كانا معه في الجزائر، وقد كانت محنة كبيرة ومصيبة فادحة، لكن ما وجده من دعم ومساندة ومواساة من الشيخ عمر دردور وأهل سيدي عقبة وكل من عرف بمأساته من الجزائريين قد خفف عنه الكثير من الألم الذي أصابه. لم تُثن هذه المصيبة الأليمة الأستاذ حسن عن استئناف رحلته في الحياة ومواصلة أداء رسالته التعليمية والدعوية بكل عزم وجد وإصرار، ففي مطلع العام الدراسي (1982–1983)، قرر أن ينشئ أسرة جديدة فتزوج مرة أخرى من سيدة سورية اختارتها له أخته واصطحبتها معها إلى الجزائر.

عاد الأستاذ حسن بعد ذلك إلى نشاطه الدؤوب ومشاركاته في الدعوة والنشاط الثقافي الإسلامي، بالمحاضرات والدروس والخطب المسجدية، وفي تلك المرحلة بدأ نشر أوائل مؤلفاته الدعوية لدى دار البعث بقسنطينة تلك الدار التي أتاحت الفرصة للكثير من المؤلفين لنشر إنتاجهم العلمي والفكري وكانت مطبوعاتها تنتشر في كل ربوع الجزائر وتحظى بالإقبال من الشباب المتعطش للعلم والمعرفة في تلك المرحلة.

وفي بداية العام الدراسي (1985–1986) انتقل الأستاذ حسن إلى مدينة قسنطينة أين شرع في العمل في المدرسة العليا للفنون الجميلة بها والتي ظل يعمل بها حتى نهاية سنة 1992–1993، وقد حصل في سنة 1990 على الجنسية الجزائرية هو وزوجته وأولاده.

في أوائل التسعينات من القرن العشرين التحق الأستاذ حسن بالدراسات العليا في معهد العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر، ليحصل على الماجستير في أصول الدين سنة 1994 عن رسالة بعنوان "تقويم مادة التربية الإسلامية في المدرسة الأساسية الجزائرية" أعدها تحت إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى عشوي، وفي سنة 1995 سجل في دكتوراه الدولة بنفس المعهد.

عُين الأستاذ حسن أستاذا مساعدا بمعهد العلوم الإسلامية في جامعة باتنة بعد حصوله على الماجستير سنة 1994، ثم رقي إلى رتبة أستاذ مساعد مكلف بالدروس، وفي سنة 2000 حصل على شهادة الدكتوراه بعد مناقشته لرسالة بعنوان "مرونة الشريعة الإسلامية ومشكلات الأسرة الجزائرية المعاصرة: مشكلة انتشار الطلاق – دراسة ميدانية" أعدها تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مقبول حسين، وتمت ترقيته إلى رتبة أستاذ محاضر، وفي 17 جويلية 2006 رقي إلى رتبة أستاذ التعليم العالي، وبعد ستة وعشرين عاما من التدريس الجامعي أحيل على التقاعد بناء على طلبه وذلك بداية من 1 مارس 2020.

تفرغ الأستاذ بعد ذلك للدعوة والتدريس في مساجد قسنطينة، وقد ألمت الأمراض بجسده المرهَق، ومنها أنه أصيب مؤخرا بوباء فيروس كورونا الذي عم العالم في السنتين الأخيرتين، والذي أدخله العناية المركزة بمستشفى قسنطينة، أين جاء أجله ففاضت روحه إلى بارئها، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

أشير هنا إلى أن أكثر هذه المعلومات التي تتعلق بمسيرة حياة فقيدنا العزيز استقيتها من زميلنا الأستاذ الدكتور أحمد عيساوي الذي سجلها سماعا منه مباشرة.



شهادات للتاريخ

الجزء الثاني

الأستاذ الدكتور حسن رمضان فحلة كما عرفته



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

فقدت الساحة العلمية والدعوية في الجزائر يوم الإثنين 30 جمادى الأولى 1443هـ الموافق 3 يناير 2020م، أستاذا متمكنا وداعية متميزا قضى حياته المديدة (82 سنة) في تدريس العلوم الشرعية والنشاط الحثيث في الدعوة الإسلامية وتأليف الكتب العلمية والتربوية والدعوية، ألا وهو الأستاذ الدكتور الشيخ حسن رمضان فحلة، الحموي السوري مولدا ومنشأ وتكوينا، الجزائري تعليما وإقامة ووفاة، حيث توفي بمستشفى مدينة قسنطينة متأثرا بمضاعفات إصابته بفيروس كورونا. وكان المرحوم قد تقاعد في السنة الماضية (2020) من عمله بكلية العلوم الإسلامية في جامعة باتنة1.

مؤلفاته وأبحاثه

إلى جانب عمله في التعليم ونشاطه في الدعوة، اهتم الأستاذ حسن رمضان فحلة بالتأليف، حيث بدأ يصدر منذ أوائل الثمانينات من القرن الماضي جملة من المؤلفات الدعوية والعلمية في مجال العلوم الإسلامية، والتي نشرتها له دار البعث بقسنطينة، ومنها: الصلاة المشروعة وأذكارها (1983)، السنة النبوية لا البدعة (1984)، الإيمان والإسلام (1984)، منهاج الصائم في رمضان (1986) وقد أعاد طبعه (2017)، الأمانة: أسسها ومبادئها في الإسلام.

وفي أواخر الثمانينات وبعد تراجع نشاط دار البعث إثر وفاة مؤسسها السيد عبد الحميد عياط رحمه الله، ظهرت بمدينة عين مليلة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع وبدأت في نشر الكتب التربوية والدعوية، فالتحق بها الأستاذ فحلة متعاونا ومستشارا علميا، وواصل من خلالها إصدار مؤلفات أخرى، منها: حقيقة الذكر و الدعاء في القرآن و السنة (1989) وقد أعيد طبعه في دار الخلدونية بالجزائر (2011)، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام (1989)، الحكم الجائز في تشييع الجنائز على مذهب الإمام مالك ونبذ البدع المستحدثة فيها (1989)، الأهداف العامة في سورة الحجرات (1990)، الخطر الداهم على العرب والمسلمين (1991)، علم ابنك الصلاة والسلوك الإسلامي (1991)، بهجة الطرف في فن الصرف (1993)، التداوي بالقرآن (1995)، الأحاديث القدسية (1997)، فقه الزكاة الشرعية على مذهب السادة المالكية، سلسلة قصص الأنبياء (ثلاثون قصة موجهة للأطفال تتناول سير الأنبياء بطريقة حوارية) (1998)

وفي السنوات الأخيرة واصل إصدار مجموعة أخرى من الكتب، منها: إليك أختي: دراسة فقهية في أحكام الدماء والنقاء عند النساء مع الإشارة إلى رأي العلم والطب الحديث وتوجيهات ونصائح تحفظ بها المرأة كرامتها وتصون عفتها (2009)، حقيقة النصرانية (2013)، شرح أسماء الله الحسنى (2016)، أحاديث نبوية في الآداب والأخلاق (2017).

إلى جانب هذه المؤلفات نشر الأستاذ رحمه الله عددا معتبرا من البحوث العلمية المتخصصة في مجلة الإحياء التي تصدرها كلية العلوم الإسلامية بباتنة، والتي تولى رئاسة تحريرها فترة من الزمن، من عناوينها: البحث العلمي في الجامعة بين النظرية والواقع دراسة نقدية في واقع الجامعات الإسلامية، أمتنا في معركة دائمة لتحقيق الذات، مفاتيح التقدم الحضاري بالعلم، اتباع الآخر وأثره على الأمة تجاه التحديات المعاصرة، بؤر الفساد في الأرض وعلاجها في الإسلام، أثر السنة النبوية في توجيه العلوم التربوية والاجتماعية، ظاهرة العنوسة وآثارها في المجتمع أسبابها مخاطرها علاجها، ترشيد استثمار الوقف لتأكيد فاعليته التنموية.

ثم إن الشيخ حسن قد أشرف على إنجاز عدد معتبر من رسائل ومذكرات الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي أعدها باحثون في كل من كلية العلوم الإسلامية بباتنة وجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، كما ناقش أيضا العشرات من الرسائل التي طُلب منه الاشتراك في تقويمها.

معرفتي بالأستاذ وعلاقتي به

عرفت الأستاذ أولا من خلال مؤلفاته التي قرأتها عندما كنت تلميذا في المرحلة الثانوية ما بين سنة 1984 وسنة 1987، ثم بعد أن أصبحت طالبا في معهد العلوم الإسلامية بباتنة ما بين سنة 1987 وسنة 1991، حيث كنت أشتريها من مكتبة النهضة الجديدة لصاحبها الحاج عبد الكريم قرفي، وقد شدني إلى هذه الكتب بساطة عبارتها وسهولة فهمها مع ما تتضمنه من فوائد جمة ومعلومات غزيرة.

أما اللقاء المباشر بالأستاذ فلم يتم إلا في شهر نوفمبر من سنة 1994 حين التحق بمعهد العلوم الإسلامية بباتنة أستاذا مساعدا. ومنذ ذلك الحين أصبحت ألتقي بالأستاذ حسن كل أسبوع تقريبا عندما يأتي من مدينة قسنطينة للتدريس في معهدنا، وقد ربطت بيننا وشائج المودة والمحبة على الرغم من فارق السن بيننا فهو في عمر والدي حفظه الله وأنا في عمر أحد أبنائه.

وأذكر أننا حضرنا معا مقابلة التسجيل في دكتوراه الدولة في معهد العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر في نفس اليوم من سنة 1995، حيث عرض كل منا مشروع الدكتوراه الذي اختاره للبحث فيه أمام هيئة علمية مكونة من مجموعة من الأساتذة، وقد سجل هو في تخصص أصول الدين، بينما سجلت أنا وزميلي الأستاذ صالح بوبشيش في تخصص أصول الفقه. وخلال ستة وعشرين سنة من الزمالة لم أر من الأستاذ حسن إلا كل خير ولم أسمع منه غير الكلام الطيب ولم أجد منه إلا كل مودة ومحبة، وذلك في كل الأعمال التي جمعتنا، وهي كثيرة جدا؛ فقد اشتركنا معا في الهيئات العلمية، حيث توليت رئاسة المجلس العلمي لكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية وتولى هو رئاسة اللجنة العلمية لقسم العلوم الإسلامية، كما تولى رئاسة تحرير مجلة الكلية وكنت أحد أعضاء هيئة التحرير، وناقشنا معا العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، منها ما أشرفتُ عليها، ومنها ما كان هو مشرفا عليها، ومنها ما أشرف عليها غيرنا من الزملاء وكنا عضوين في لجان مناقشتها. في كل هذه المجالات التي جمعتنا، كان الأستاذ حسن دائما مثالا للرجل اللماح اللبق الذي يحسن التصرف مهما كان الموقف الذي يجد نفسه فيه. وأذكر أنني كنت عضوا في لجنة مناقشة أطروحة الدكتوراه التي تقدمت بها زوجته زميلتنا السيدة (ف.ل)، وقد وجهت لها بعض الانتقادات والملاحظات التي ربما بدت لبعض الزملاء والمتابعين حادة وقاسية حينئذ، إلا أن الرجل لم يحرك ساكنا ولم يبد أي تصرف يمكن أن أشعر منه برفضه لتلك الملاحظات أو امتعاضه منها، بل إنه شكرني وثمن ملاحظاتي.

وعندما أصدر كتبه الثلاثة الأخيرة: شرح أسماء الله الحسنى، منهاج الصائم في رمضان، أحاديث نبوية في الآداب والأخلاق، جاءني بعدد كبير من النسخ من كل كتاب وطلب مني أن أوزعها وأعطيها لمن يرغب في قراءتها، وقد لاقت صدى طيبا عند كل من قرأها، لسهولة عبارتها والموضوعات التي تناولتها فهي موضوعات تهم كل الناس وليس المتخصصين فقط.

وفيما يخصني شخصيا، كنت دائما أسمع منه التشجيع والنصيحة والدعاء لي بالتوفيق والسداد في كل الأعمال التي توليت القيام بها، وخاصة عندما أسندت إليّ عمادة الكلية، حيث ظل يزورني في كل مرة يأتي فيها إلى الكلية ويشجعني على الثبات والتحمل ويحثني على حسن التصرف ويقدم لي النصائح مرة تلو الأخرى، ولا يكف عن الدعاء لي بالتوفيق والنجاح في أداء المهمة على أحسن وجه، بل إنه لم يكن يكتفي بذلك وإنما يكلمني أحيانا بالهاتف من بيته ليسمعني من كلامه الطيب الجميل ما لا يمكنني الوفاء بحقه. وحتى بعد إحالته على التقاعد ظل على تواصل مستمر بي، وكان يحدثني عن مشاريعه العلمية والدعوية والكتب التي ينوي إصدراها، ومما أخبرني به مؤخرا أنه بصدد وضع اللمسات الأخيرة على كتاب بعنوان (النظام السياسي في الإسلام)، وأنه عند انتهائه منه سيرسله إلي لأكتب له تقديما أو تقريظا، وأرجو أن يكون الأستاذ قد انتهى فعلا من الكتاب ولعل أبناءه أن يقدموه للنشر قريبا إن شاء الله. رحم الله أستاذنا وشيخنا وأخانا الأكبر الأستاذ الدكتور حسن رمضان فحلة وجمعنا به في الفردوس الأعلى من الجنة "إخوانا على سرر متقابلين"، "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

(الجزء 1)

الصحة نعمة

أمانة من واجبنا المحافظة عليها



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1

خلق الله عز وجل الإنسان لغاية ولمقصد وهو أن يستخلفه في هذه الأرض، كما قال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة، 30]، ومضمون هذه الخلافة هو أداء واجب العبودية لله عز وجل، كما في قوله سبحانه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات، 56]، وتتحقق عبودية الإنسان لله بعمارة الأرض وإصلاحها وإقامة شريعة الله فيها ونشر الخير في أطرافها ومنع الشر والفساد من الانتشار فيها.

نِعَمُ الله على الإنسان:

ولكي ييسر الله عز وجل على الإنسان القيام بهذه المهمة التي خلقه لأجلها على أحسن وجه، أنعم عليه بالنعم وأغدق عليه من أفضاله سبحانه وتعالى، ونعم الله عز وجل على الإنسان كثيرة، لا تعد ولا تحصى، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) [النحل: 18]، فمهما تحاول أيها الإنسان أن تعد أو تحصر نعم الله عليك، يستحيل عليك ذلك، لأن هذه النعم متجددة في كل ثانية وفي كل لحظة، حيث تحفك وتلفك من جميع جوانب حياتك.لكن هنالك نعم يمكن اعتبارها أمهات النعم، فمع أن النعم كثيرة إلا أنها متفاوتة في الأهمية وفي القيمة. هنالك ثلاث نعم، إذا توفرت للإنسان، فإن النعم الأخرى تأتي تبعا لها، لكن إذا فقد هذه النعم الأمهات لم تنفع النعم الأخرى.

ما هي هذه النعم الثلاثة؟.

نعمة الأمن: أي أن يكون الإنسان آمنا على نفسه، مطمئنا، لا يخاف من أن يُعتدى عليه أو من أن يُقتل أو من أن يُسلب ماله أو ذريته أو يُنتهك عرضه أو ما إلى ذلك، أي يشعر بالأمان والطمأنينة. هذه نعمة عظيمة.

النعمة الثانية: نعمة الصحة، أي صحة البدن في الأعضاء والحواس، فالإنسان إذا فقد الصحة لم ينفعه شيء، ولم يشعر بقيمة أي شيء.والنعمة الثالثة هي نعمة الغنى: الأمن الغذائي، أن يتوفر للإنسان الطعام، فالطعام هو الحاجة الأساسية في حياة الإنسان.هذه النعم الثلاثة هي أمهات النعم، إذا توفرت للإنسان أغنته عن كثير من النعم الأخرى، وإذا فقدها الإنسان لم تنفعه النعم الأخرى، والإنسان الذي توفرت له هذه النعم الثلاثة يعتبر أغنى الأغنياء، إذ يكون حاله كحال من ملك الدنيا كلها.وهذه النعم هي المنصوص عليها في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا» [رواه الترمذي.وحديثنا – في هذا المقال – سينصب حول إحدى هذه النعم وهي نعمة الصحة، لأننا نعيش ظروف الوباء، هذا الوباء الذي أصاب مئات الملايين من البشر وتوفي بسببه كثير من الناس.فنريد أن نتحدث عن نعمة الصحة، ما أهميتها وقيمتها؟ وكيف نحافظ عليها؟

الصحة نعمة وأمانة:

الصحة نعمة كبيرة في الحياة، وفي الحديث الآخر: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ» [رواه البخاري.فالصحة – من جهة – هي نعمة الغرض منها أن ينتفع بها الإنسان في حياته، وهي أيضا أمانة من جهة أخرى يجب على الإنسان أن يحسن التعامل معها.وهذا لأن الإنسان سيُحاسب يوم القيامة على النعم التي رُزق بها في الدنيا، ومن بين النعم الخاصة التي سيُحاسب عليها نعمة الصحة.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» [صحيح الترغيب والترهيب.فعلى الإنسان أن يستغل كل واحدة من هذه النعم في حينها، في الخير وفي عبادة الله وفعل ما يرضيه عز وجل، لأنها أمانات يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة.ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟» [رواه الترمذي.فالإنسان يُسأل عن جسده فيم أبلاه؟ والمراد هنا بالجسد الصحة، فهذا الجسد الذي أعطاك الله، هذه الأعضاء التي أنعم عليك بها، في ماذا أبليتها؟ هذه العين هل نظرت بها إلى الحرام أم قرأت بها القرآن وكتب العلم وتأملت بها في الكون؟ هذه الأذن هل سمعت بها الخير أم استعملتها في التجسس والتحسس وسماع الغيبة والنميمة؟ هذه اليد هل وظفتها فيما هو طاعة لله أم في معصيته؟ هذه الرجل هل مشيت بها إلى أماكن الخير أو إلى أماكن الشر؟

فالمراد بالجسد، الصحة التي أعطاك الله في أعضائك، فيم استعملتها؟ أفي الخير أم في الشر؟

في حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما يحاسب العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصح جسمك وأروك من الماء البارد؟» [صحيح الترغيب والترهيب.فالله عز وجل يسأل الإنسان يوم القيامة: ألم أعطك الصحة؟ ماذا فعلت بها؟ هل عبدتني بها أم استعملتها في معصيتي؟ فهنالك من يعطيه الله الصحة والقوة فيعبد بها ربه سبحانه وتعالى ويسعى بها في الخير، وهنالك من يعطيه الله الصحة فيظلم بها العباد أو يستعملها في ارتكاب المنكرات واقتراف الموبقات.

فإذن الصحة من أعظم النعم، ومن أعطاه الله الصحة سهل عليه كل شيء، وإذا فقد الإنسان الصحة صعب عليه كل شيء، وأي عضو من أعضاء الإنسان يضعف أو يعجز عن أداء وظيفته، يجعل الإنسان يدرك معنى الصحة وقيمتها.

فالصحة إذن ذات أهمية عظيمة في حياة الإنسان، وهي من أمهات النعم كما قلنا.

الصحة نعمة

الجزء 02

أمانة من واجبنا المحافظة عليها



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1

خلق اللّه عز وجل الإنسان لغاية ولمقصد وهو أن يستخلفه في هذه الأرض، كما قال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: 30، ومضمون هذه الخلافة هو أداء واجب العبودية للّه عز وجل، كما في قوله سبحانه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: 56، وتتحق عبودية الإنسان للّه بعمارة الأرض وإصلاحها وإقامة شريعة اللّه فيها ونشر الخير في أطرافها ومنع الشر والفساد من الانتشار فيها.

فالمراد بالجسد، الصحة التي أعطاك اللّه في أعضائك، فيم استعملتها؟ أفي الخير أم في الشر؟

في حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما يحاسب العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصح جسمك وأروك من الماء البارد؟» [صحيح الترغيب والترهيب.فالله عز وجل يسأل الإنسان يوم القيامة: ألم أعطك الصحة؟ ماذا فعلت بها؟ هل عبدتني بها أم استعملتها في معصيتي؟ فهناك من يعطيه الله الصحة والقوة فيعبد بها ربه سبحانه وتعالى ويسعى بها في الخير، وهناك من يعطيه الله الصحة فيظلم بها العباد أو يستعملها في ارتكاب المنكرات واقتراف الموبقات.

فإذن الصحة من أعظم النعم، ومن أعطاه الله الصحة سهل عليه كل شيء، وإذا فقد الإنسان الصحة صعب عليه كل شيء. وأي عضو من أعضاء الإنسان يضعف أو يعجز عن أداء وظيفته، يجعل الإنسان يدرك معنى الصحة وقيمتها.

فالصحة إذن ذات أهمية عظيمة في حياة الإنسان، وهي من أمهات النعم كما قلنا.

كيف نحافظ على نعمة الصحة؟

وهنا نتساءل: ما الذي يجب علينا في هذه النعمة وفي غيرها من النعم؟

الواجب هو المحافظة عليها، لابد لنا أن نحافظ على النعم ومن بينها نعمة الصحة، لكن كيف تكون المحافظة على نعمة الصحة؟

وأول ما ينبغي أن نحرص عليه لكي نحافظ على هذه النعمة؛ شكر الله عز وجل عليها، فبالشكر تدوم النعم، قال الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [إبراهيم: 7. فإذا شكرنا الله على نعمة الصحة، يمتعنا بها ويزيدنا منها ويمدنا بمدد من عنده حتى تبقى هذه الصحة معنا إلى نهاية حياتنا. هناك أناس تجده كبيرا في السن 80 أو 90 سنة وسبحان الله تجده يتمتع بكامل قواه البدنية، فالله هو الذي أمده بالصحة ومتعه بها.

يُروى أن أبا الطيب الطبري رحمه الله - أحد علماء الإسلام في القرن الخامس الهجري - أتى إلى سفينة فركبها، فلما اقترب من الشاطئ - وهو في السبعين من عمره - أراد أن ينزل إلى الشاطئ فقفز، وكان معه شباب فأرادوا أن يقفزوا فما استطاعوا، فقالوا له: كيف استطعت وما استطعنا وأنت شيخ كبير؟ قال: "هذه أعضاء حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر"، أي أنني عندما كنت شابا حفظت الله في شبابي ولم أعصه بهذه الحواس واستعملتها في مرضاته تعالي وفي طاعته، والحمد لله أنه كافأني أن متعني بهذه الحواس بعد أن صرت أشد ما أكون حاجة إليها.

فأول ما ينبغي أن نفعله لكي نحافظ على نعمة الصحة وعلى غيرها من النعم؛ أن نشكر الله عز وجل على هذه النعم، والشكر يكون باللسان وبالقلب وبالعمل، بأن نستعمل هذه النعم في طاعة الله وفي مرضاة الله ونسخرها لنفع عباد الله، ولا نسخرها في الظلم والعدوان والمعصية.

الصحة نعمة وأمانة من واجبنا المحافظة عليها (الجزء 2)
بقلم: أ.د. مسعود فلوسي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1

بعد شكر الله عز وجل على نعمة الصحة يأتي الدعاء بدوامها واستمرارها؛ وهو أن نسأل الله عز وجل أن يديم علينا هذه النعم وأن لا يسلبنا إياها، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الدعاء: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ" [أخرجه مسلم، وكان يسأل الله عز وجل العافية دائما : "اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت" [أخرجه أبو داود وأحمد. وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه حث على أن يقول المسلم كل صباح ومساء ثلاث مرات: "اللَّهُمَّ أَصْبَحْتُ مِنْكَ فِي نِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَسِتْرٍ؛ فَأَتِمَّ عَلَيَّ نِعْمَتَكَ وَعَافِيَتَكَ وَسِتْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" [أخرجه ابن السني وفي إسناده ضعف. ولذلك على الإنسان أن يسأل العافية والستر والصحة ويسأل دوام النعم حتى يتمكن من طاعة الله عز وجل ومن شكره وهو مستمتع بهذه النعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد يقين خيرا من معافاة" [رواه النسائي.

مصادر الصحة والمرض:

وبعد أن يشكر الإنسان ربه سبحانه وتعالى على نعمة الصحة، ويدعوه عز وجل أن يديم عليه هذه النعم، عليه أن يتخذ الأسباب المادية، أي بعد أن يتخذ الأسباب الربانية يأتي دور الأسباب المادية، لأن الأسباب المادية مما كلفنا الله عز وجل أن نستعمله لكي نحافظ على الصحة ونتقي المرض.

فمن واجب كل إنسان أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على صحته، لأن الصحة أمانة، والمطلوب من الإنسان أن يحافظ عليها وأن يصونها وأن يتخذ كل الأسباب لدوام هذه النعمة وعدم ذهابها.

والصحة البدنية أسبابها المادية لها مصادر، وهذه المصادر هي أسباب الصحة وأسباب المرض في نفس الوقت، وهي: الشراب، والطعام، والهواء، والنظافة.

الصحة نعمة

الجزء 03

أمانة من واجبنا المحافظة عليها



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1

ففيما يتعلق بالشراب: على الإنسان أن يشرب ما يكون سببا للصحة ولا يشرب ما يكون سببا للمرض، وسبب الصحة هو الماء النقي الطاهر، أما الماء الملوث فهو سبب كثير من الأمراض.

فأفضل شراب هو الماء النقي، ولذلك أي مشروب من شأنه أن يضر الإنسان يجب عليه أن يجتنبه ويتركه، وقد نبهنا الله عز وجل إلى مشروب محرم وهو الخمر، فكل ما يكون سببا للأذى من المشروبات ينبغي للإنسان أن يجتنبه حتى ولو لم يكن محرما صراحة. الخمر محرمة صراحة لما تسببه من أضرار لجسد الإنسان، وأول ضرر لها هو ذهاب العقل، وليس هو الضرر الوحيد لأن أضرارها على الجسم كثيرة، فكل أجهزة الجسم تهدمها الخمر. ولذلك كل مشروب من شأنه أن يضر الإنسان – ولو لم يكن مسكرا أي لم يضره في عقله – ولكن قد يسبب له أمراض، يجب على الإنسان أن يبتعد عنه، مهما كان هذا المشروب، عصيرا أو مشروبا غازيا أو دواء غير مأمون.

ومن إرشادات النبي صلى الله عليه وسلم في إطار المحافظة على الصحة العامة فيما يتعلق بشرب الماء؛ نهيه أن يتنفس الشارب في الإناء حتى لا يلوثه؛ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَنَفَّسْ فِي الْإِنَاءِ.." [رواه البخاري

المصدر الثاني هو الطعام. والطعام أيضا قد يكون سببا للصحة وقد يكون سببا للمرض، والطعام الذي يكون سببا للصحة هو الطعام المغذي للجسم ولا يتسبب له في الأذى.

وربنا سبحانه وتعالى نبهنا إلى نماذج من المحرمات من الأطعمة، حتى نعرف أنه ليس كل ما يأكل من الأطعمة نافع، وإنما منها ما هو ضار: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) [المائدة: 3. فهذه نماذج من المحرمات من الأطعمة لما فيها من الأذى. ولذلك فإن أي طعام يمكن أن يتسبب للإنسان بالضرر لا يجوز له أن يأكله.

والطعام قد يكون ضارا مع كونه مغذيا، كما في حالة الإكثار منه، فكلما أكثر الإنسان من الطعام بما يزيد عن حاجته كلما أضر بنفسه، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" [رواه الترمذي، فالبطن إذا ملأها الإنسان حتى لم يعد قادرا على الأكل والحركة عليه أن يتوقع الأذى والمرض، فالطعام يكفي منه ما يقيم أود الإنسان، أي ما يعطيه القوة على الحركة والنشاط.

بعض الناس يحسبون الطعام النافع ما كان غنيا باللحوم وأنواع الفواكه وما إلى ذلك، والصحيح أن الطعام النافع هو الطعام الذي يحقق كفاية الجسم من المواد الضرورية له، ما يسمى الغذاء الكامل الذي يتضمن المواد الضرورية للحسم.

فلا بد من الحرص على سلامة ما نشرب ونظافته ونقائه، وسلامة ما نأكل من الأطعمة.

ولا بد كذلك من الحرص على سلامة الهواء الذي نستنشقه، وذلك بالابتعاد عن الأماكن التي هواؤها ملوث، مثل المقاهي المغلقة التي يدخن فيها الناس، فيجب على الإنسان أن يحرص دائما أن يكون في أماكن هواؤها نقي ولا يبقى في مكان هواؤه ملوث.

من وسائل حفظ الصحة:

ثم من الضروري الحرص على النظافة، بدءا من جسد الإنسان بأن يجتهد في تنظيفه، ولذلك سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تنظيف الجسد كله وغسل الأيدي بصفة خاصة والحرص على خصال الفطرة، قَالَ صلى الله عليه وسلم: "حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ" [رواه مسلم ﷺ، وقال صلى الله عليه وسلم: "إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْرِغْ عَلَى يَده ثَلَاثَ مَرَّات، قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي إِنَائِه، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِيمَ بَاتَتْ يَدُهُ" [رواه مسلم ﷺ، وقال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْآبَاطِ" [رواه البخاري. كما ينبغي للإنسان أن يحرص على نظافة بيته ونظافة محيطه، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله تعالى طيبٌ يُحِبُّ الطيبَ، نظيفٌ يُحِبُّ النظافةَ، كريمٌ يُحِبُّ الكرَمَ، جوّادٌ يُحِبُّ الجودَ، فنظّفوا أفنيتَكم، ولا تشبّهوا باليهودِ" [الجامع الصغير للسيوطي. وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنْ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ" [رواه مسلم. وجعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إماطة الأذى عن الطريق شعبةً من شعب الإيمان؛ قَالَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ" [رواه مسلم.

هذا وإن من وسائل حفظ الصحة؛ اعتزال المرضى في زمن الأوبئة وعدم مخالطتهم تجنبا للعدوى، وإذا كان الإنسان مريضا يجب عليه أن يعتزل الأصحاء ولا يختلط بهم حتي لا يعديهم، قال رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "لَا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ" [متفق عليه. وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوباء: «إِذَا سمعتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا» [متفق عليه، وفي رواية أخرى: «إِذَا سَمِعْتُمْ به بِأَرْضٍ، فلاَ تَقْدمُوا عَلَيْه، وإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلا تخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» [متفق علي.

الجزء 01

عبادات المؤمن لا تقبل إلا بالطهارة

النظافة واجب شرعي وسلوك حضاري



أ.د. مسعود فلوسي

ديننا الحنيف الإسلام حث على النظافة وحرص عليها، ويكفي دليلا على ذلك أن عبادات المؤمن لا تقبل إلا بالطهارة، فلا تصح الصلاة، ولا يصح الطواف بالكعبة.

ولا تجوز قراءة القرآن في المصحف، إلا إذا كان الإنسان متطهرا، أي متنظفا بالغسل وبالوضوء، وحتى إذا لم يستطع المؤمن أن يتوضأ بالماء لعذر، فإن الشرع يأمره أن يتيمم بالصعيد، والصعيد هو رمز الطهارة، أي التراب النقي الصافي أو الحجر النقي الصافي الذي لا تعلوه الأوساخ. هذا رمز الطهارة، لأن الأصل في التراب أنه طاهر، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ" [جزء من حديث صحيح رواه البخاري؛ أي أن أي مكان لم تر فيه وسخا ظاهرا فلك أن تصلي فيه، لأن الأصل في التراب أنه طاهر، فإذا لم يستطع الإنسان أن يتطهر بالماء يتطهر بالتراب.

الإسلام دين الطهارة والنظافة:

النظافة - إذن - أمر حيوي وأساسي في حياة المسلم، وهو أحد أبرز المظاهر المفترض أن تميز الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وعندما نستقرئ نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نجدها تحث على الطهارة في ذات الإنسان وفي شخصه، فكل إنسان مطالب بأن يكون نقيا وطاهرا في حياته الشخصية، وأن يكون نظيفا وطاهرا في حياته العامة مع الناس، حتى وإن كان يعيش في مجتمع غير مسلم، فهو يجب أن يكون نظيفا لكي يعطي النموذج ويعطي المثال على أن الإسلام دين النظافة والطهارة. النظافة في الحياة الشخصية: في الحياة الشخصية؛ الإسلام يأمر المسلم بتنظيف بدنه، والبدن معرض للأوساخ، إذ أن الإنسان ما دام يتحرك ويعمل فالجسم يفرز إفرازات ويعلوه الغبار والأوساخ، ولذلك المؤمن حريص على تنظيف جسمه، فلا يتركه يتسخ، لأن الاتساخ يؤدي إلى سوء المنظر، كما يؤدي إلى تكون رائحة تصدر من الإنسان وتؤذي الآخرين، وهذا مما يُسقط قيمة الإنسان وقدره بين الناس. والإنسان بطبيعته حريص على مكانته في المجتمع، فلكي يحافظ على مكانته وقيمته وعلى احترام الناس له، عليه أن يكون نظيفا، ولذلك يحثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن نغسل أجسادنا وننظفها كليا على الأقل مرة في الأسبوع، وليكن يوم الجمعة، لأن الجمعة يوم عيد.. والمفروض أن المسلم ينظف جسمه كل يوم، لكن إذا لم يفعل ذلك، فعلى الأقل ينظفه مرة واحدة في الأسبوع عندما يأتي لصلاة الجمعة، وهذا ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حَقٌّ علَى كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَغْتَسِلَ في كُلِّ سَبْعَةِ أيَّامٍ يَوْمًا يَغْسِلُ فيه رَأْسَهُ وجَسَدَهُ" [رواه البخاري ومسلم. فأول مظهر من مظاهر اهتمام الإسلام بالنظافة وحثه عليها: الأمر بتنظيف الأبدان، فينظف الإنسان بدنه تنظيفا شاملا، ولذلك جاء في الحديث الآخر: "طَهِّرُوا هذه الأجسادَ طهَّركم الله" [المعجم الأوسط للطبراني. بل جعل الإسلام طهارة الجسد كله واجبة في حالة الجنابة، وعند انقطاع دم الحيض والنفاس بالنسبة للمرأة، فالغسل واجب، وإذا لم يغسل الإنسان جسده كله بنية رفع الجنابة أو بنية رفع حالة الحيض أو النفاس، لم تقبل صلاته. والنظافة مندوبة في الأحوال الأخرى، وخاصة يوم الجمعة، لأن يوم الجمعة يوم عيد أسبوعي للمسلمين، وصلاة الجمعة هي صلاة هذا العيد، وهي واجبة على المسلم الذكر البالغ العاقل، والمرأة يندب لها حضور الجمعة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ جَاءَ مِنْكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ" [صحيح البخاري. والإسلام، إضافة إلى أمره بالنظافة، يأمر بالتطيب، أي نظافة الرائحة وطيب الرائحة التي تصدر من المسلم، فأمر بالتطيب وخاصة يوم الجمعة عندما يقبل المؤمن لحضور الصلاة في المسجد، وهو ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على كل مسلم غُسل يوم الجمعة، ويلبس من صالح ثيابه، وإن كان له طيب مس منه" [رواه أحمد. من مظاهر عناية الإسلام بالنظافة أيضا: أمره بالنظافة عند تناول الغذاء، فالإنسان لا يستغني عن الطعام ويحتاج إلى أن يأكل مرتين على الأقل في اليوم، فالإسلام يأمر بالحرص على النظافة عند تناول الطعام؛ أي أن ينظف الإنسان أوانيه وأن ينظف فمه ويديه عند الإقبال على الطعام، وإن ينظف أيضا بعد الانتهاء من الطعام، حرصا على النظافة وإبعاد الأوساخ، لأن الأوساخ هي البيئة التي تعيش فيها الجراثيم والفيروسات، والنظافة تخلص الإنسان وتحميه من هذه المضرات. ومما روي على أنه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ، وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ" [أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد، وفي إسناده مقال. من مظاهر عناية الإسلام بالنظافة كذلك: توجيه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين إلى العناية بنظافة الأسنان بصفة خاصة وإلى الحرص على تنظيفها واستعمال السواك، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة" [رواه البخاري. فلولا خشية المشقة على المؤمنين لأوجب عليهم السواك عند كل صلاة مثله مثل الطهارة. وفي حكم السواك تنظيف الأسنان بالمعجون والفرشاة وغير ذلك من وسائل التنظيف، لكن الأفضل هو عود الأراك الذي هو السواك، فإن لم يجد يتنظف بالمعجون لكي يزيل الروائح الكريهة ويزيل بقايا الطعام، لأن الطعام إذا بقي بين الأسنان يتخمر ويُصدر روائح كريهة، والمؤمن حقه ألا يصدر منه إلا ما هو طيب وما هو نظيف. ثم هنالك أيضا الأمر بنظافة الثياب، فمن أوائل ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في مكة: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) من سورة المدثر، وهذه السورة نزلت بعد سورة العلق مباشرة، وسورة العلق هي أول ما أنزل الله من القرآن وبعدها أنزلت المدثر والمزمل، فمن بداية العهد المكي كان الحرص على نظافة المؤمن، لأن وسخ الثواب دليل على أن الإنسان غير نظيف داخليا في قلبه وعقله، ولذلك يكون منظره سيئا تبعا لتشوه فطرته، والمؤمن الأصل فيه أن يكون بمنظر حسن وأن يعطي دائما صورة حسنة عن دينه الذي يأمره بالنظافة والطهارة.

الجزء 02

عبادات المؤمن لا تقبل إلا بالطهارة

النظافة واجب شرعي وسلوك حضاري



أ.د. مسعود فلوسي

من مظاهر حرص الإسلام على النظافة في الحياة الشخصية للمسلم كذلك؛ ما يُسمى بخصال الفطرة، هذه الخصال دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحث عليها وأمر بها وكان صلى الله عليه وسلم يحرص عليها في حياته الشخصية.

أمر الإسلام بخصال الفطرة:

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الفطرةُ خَمسٌ، أو خَمسٌ منَ الفطرة: الختان، وَالاستحدادُ، وتقليمُ الأظفار، ونتف الإبط، وقصُّ الشَّارب) [رواه البخاري ومسلم. وروى مسلم عَنْ عائشة رضيَ الله عنها قالَتْ: قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (عَشرٌ منَ الفطرَة: قَصُّ الشَّارب، وإعفاءُ اللِّحيَة، وَالسِّوَاكُ، واستنشاقُ الماء، وقَصُّ الأظفار، وغَسل البَراجم، ونَتفُ الإبط، وَحلقُ العانَة، وانتقاصُ الماء)، قالَ الرَّاوي عن عائشة: "ونسيتُ العاشرة إلاَّ أن تكون المضمضةَ"، قالَ وَكيعٌ وَهُوَ أحَدُ رواته: "انتقاصُ الماء، يَعني: الاستنجاءَ". خصال الفطرة هذه تبدأ مع الإنسان في صغره من الختان، فالختان للطفل الصغير من خصال الفطرة، وهو مظهر من مظاهر النظافة، لأن عدم قطع هذه الجلدة الزائدة يؤدي إلى تراكم الأوساخ بداخلها، فالإنسان عندما يتبول إذا لم يكن مختنًا يبقى أثر البول داخل جلده، والبول سُمٌّ وهذا السم يتراكم وقد يكوّن للإنسان أمراضا، وبالتالي يبقى الإنسان دائما نجسا، لكن عندما تنزع هذه الجلدة (القلفة) يصبح غسل موضع التبول حينئذ سهلا، وبالتالي تكون النظافة التامة ميسرة. من خصال الفطرة كذلك: قص الشارب أو إحفاؤه، فلا ينبغي للإنسان أن يترك شعر الشارب يمتد حتى يدخل فمه، حتى إذا أكل علق به الطعام، فهذا مظهر سيء لا يليق بالمؤمن، ولذلك فالمؤمن حتى إذا لم يحف شاربه فهو يقصه.

ومنها أيضا: حلق العانة، والعانة هي شعر العورة أو الشعر الذي ينبت تحت السرة، فهذا المكان حساس ولا ينفذ إليه الهواء جيدا، عندما ينبت شعره ويمتد تتكون فيه الأوساخ، ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على حلق هذا الشعر حتى يبقى الإنسان نظيفا، لأن هذا الشعر مع العرق يصبح مصنعا للوسخ مما يمكن أن يكون سببا لمرض الجلد، ولذلك يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحلق هذا الشعر وألا يتركه الإنسان، وعادة هذا الشعر إذا طال يصبح منبعا لرائحة كريهة، وهذا مالا يليق بالمؤمن.من خصال الفطرة التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: إزالة شعر الإبطين، لأن هذا المكان أيضا يتعرق وتتجمع فيه الأوساخ، وعندما يزيل الإنسان هذا الشعر يكون المكان محميا من تعلق الأوساخ به، وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم نتف هذا الشعر إذا لم يجد الإنسان مشقة في ذلك، فالنتف أفضل من الحلق لحكمة يعلمها الله عز وجل، لكن إذا لم يستطع نتفه لا بأس أن يحلقه أو يستعمل وسائل التطهير المخصصة لهذا الغرض. هذه الخصلة من خصال الفطرة بعض المسلمين لا يهتمون بها ولا يحرصون عليها مما يجعلهم عرضة لأن تصدر منهم رائحة كريهة جدا تؤذي المؤمنين، فهذا حرام ولا يجوز شرعا لأن إيذاء المسلمين حرام، والمشكلة أن من تصدر منه هذه الرائحة لا ينتبه لها لأن أنفه تعوّد عليها، لكنه يُضرّ بها غيرَه من حيث لا يدري، وقد تكون هذه الرائحة مما يصدر من امرأة فيبغضها زوجها بسببها، أو مما يصدر من رجل فتبغضه زوجته بسببه، فلابد من إزالة هذا الشعر، ويزيد الإنسان على ذلك استعمال المطهرات التي تطيب الرائحة. هذه جملة من مظاهر عناية الإسلام بالنظافة في الحياة الشخصية، وهناك أحكام أخرى كثيرة من هذا النوع.

النظافة في الحياة العامة:

تبقى الحياة العامة، النظافة أيضا مطلوبة فيها، فلا يكفي أن ينظف الإنسان ثوبه وبدنه ثم يكون سببا في اتساخ محيطه.

وأول ما يجب أن يحرص عليه هو نظافة بيته؛ أن ينظف بيته من الأوساخ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص شخصيا على تنظيف بيته بنفسه، مع أنه أشرف إنسان خلقه الله عز وجل، فلم يمنعه ذلك من الحرص على تنظيف بيته، قالت عائشة رضي الله عنها تصف تواضع رسول الله صلي الله عليه وسلم: "كان يَخيطُ ثوبَه ويخصِفُ نعله ويعمَلُ ما يعمَلُ الرِّجالُ في بيوتِهم" [رواه ابن حبان في صحيحه، فنحن أولى أن ننظف بيوتنا من داخلها ومن خارجها، وأن ننظف أفنية بيوتنا من الأوساخ ومن الحجارة ومن كل ما قد يعلوها، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نظِّفوا أفنيتكم، ولا تشبَّهوا باليهودِ" [جزء من حديث رواه الترمذي، وفي إسناده مقال].

وفي ذلك تنظيف للمحيط وعدم المشاركة في توسيخه، لكن مع الأسف هنالك من ينظف بيته لكنه لا يبالي أن يرمي الأوساخ في أي مكان، وقد يرمي قمامته من نافذة بيته فتسقط على الآخرين أو تتفرق في الشارع، وفي هذا تلويث للمحيط وإضرار بالصحة العامة، فلابد أن نحرص على نظافة محيطنا، وفي ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل، فإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: "الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بضْعٌ وسِتُّونَ، شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ" [رواه مسلم في صحيحه، وفي حديث آخر: "... وتُميطُ الأذَى عَنِ الطَّريقِ صَدَقَةٌ" [رواه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عُرِضَتْ عليّ أعمالُ أمّتي، حَسَنُها وقبيحها، فرأيتُ في محاسنِها الأذى يُزالُ عن الطَّريقِ، ورأيتُ في مساوِئها النُّخاعَةَ تكونُ في المسْجِدِ لا تُدْفَنُ" [رواه مسلم، وفي حديث يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَلَّ سَخيمَتَه في طريقِ المسْلمينَ حلت عليه لعنتهم" [أخرجه الطبراني في الأوسط]؛ يعني أن من ألقى القذر في طريقهم حلت عليه لعنتهم إذا لعنوه. فالإنسان الذي يُسهم في تنظيف المحيط وإزالة الأوساخ، حتى إن لم يكن هو من رماها، سلوكه هذا ينشر ثقافة الطهارة والنظافة ويكون قدوة لغيره، خاصة الصغار الذي إذا رأوه تلقنوا منه هذا الدرس العملي وهذه القيمة الاجتماعية العالية.

لنحرص جميعا على النظافة، لأن في النظافة مصلحتنا، في النظافة صحتنا، في النظافة جمالنا، في النظافة جمال محيطنا، وفي الأوساخ عكس ذلك كله، الأوساخ كلها أسباب للأمراض وأسباب لتشوه المحيط وتشوه الحياة العامة ككل.

في ذكراه الرابعة والعشرين

(الجزء 01)

المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

قبل أربعة وعشرين عاما، وتحديدا في صبيحة يوم الثلاثاء 28 شوال 1428هـ، الموافق 24 فبراير 1998م، توفي المجاهد العقيد محمد الطاهر عُبيدي المدعو الحاج لخضر، قائد الولاية التاريخية أوراس النمامشة، بعد حياة مديدة مليئة بالأعمال الكبيرة والمآثر الجليلة. وقد كانت وفاته على إثر نوبة قلبية ألمت به، حيث كان رحمه الله يعاني قبل ذلك بمدة طويلة من مرض في قلبه أعاقه في الكثير من الأحيان عن الحركة والنشاط، لكن دون أن يَحُدّ من همّته أو يُنقص من عزيمته. وبوفاته رحمه الله أسدل الستار على تاريخ مديد ومسيرة حافلة، هي حياة المجاهد العقيد اعبيدي محمد الطاهر الذي اشتهر خلال الثورة وطيلة مرحلة الاستقلال باسم الحاج لخضر.

الناس كإبل مائة:

وإنه ليحضرني في هذا المقام حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي يقول فيه: (إنّما النّاسُ كَالإبِلِ المائَة، لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً) [رواه البخاري ﷺ]، إذ يضرب النبي عليه الصلاة والسلام للناس مثلا بالإبل الكثيرة التي لا تكاد تجد بينها إلا واحدة أو لا تجد أصلا مما يمكن أن تعول عليها وتحمل عليها زاد راحلتك في سفرك.. وكذلك الناس، إنهم كثيرون، وهم عند الغنيمة واقتسام الأرباح أكثر وفي ازدياد مستمر، ولكنهم عند نداء الواجب وصيحة النفير قليلون، إذ أن أكثرهم يتوارى عن الأنظار حتى لا تلمحه العين ولا يُدعى إلى أداء ما هو مطالب به من واجبات.

والقلة من الناس هي التي تجدها عند اشتداد الخطوب واستفحال المحن، إنها وحدها تتحمل عن أمة بأكملها وتدافع عن وطن بأسره. أما عند البذل والتضحية بالنفس والنفيس، فأقل بكثير هم أولئك الذين يستعدون لذلك ويظهرون الاستعداد والإقدام.

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله شعرا:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم
الله يَعْلَمُ أنّي لَم أقُلْ فَنَدا





إني لأفتحُ عيني حين أفتحها
على كثير ولكن لا أرى أحداً

وفعلا، فالناس بأجسامهم كثيرون، لكن الذين يملكون نفوسهم ويستحضرون هممهم من هؤلاء الناس قليلون أو ربما معدومون أصلا. وهكذا هي الحياة، إن أكثر الناس هممهم بطونهم وغايتهم إشباع شهواتهم وتحقيق مصالحهم العاجلة، ولا يهمهم أن يُقدموا شيئا لأمتهم أو يبذلوا في سبيلها شيئا أو يُضحُّوا من أجلها بشيء، وقليلون جدا هم من يدوسون على مصالحهم في سبيل مصالح أمتهم ويضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل عزة أمتهم ورفاهيتها وصلاح أبنائها وأجيالها الناشئة..

ولقد كان الحاج لخضر رحمه الله من هذه القلة القليلة التي تقوم مقام الكثرة الكاثرة، كان رجلا بمائة أو بألف، في حين كان الألف من الرجال كلا شيء، وصدق من قال: "رجل كألف، وألف كأف". كان الحاج لخضر من تلك القلة من الرجال التي اتخذت من المصلحة العامة هدفا يُبتغى ومقصدا يُطلب.. فقد تقدم بنفسه وروحه يطلب الشهادة في سبيل استقلال هذا الوطن وتحرر أبنائه من أسر الاستعمار واستذلاله واستعباده.. وحين تحرر الوطن وتخلص من الاستعمار اختار أن يكون جنديا في ميدان البناء والتشييد، وأبى أن يركن إلى الراحة والخمول.. ولما رأى أن الأمور لم تعد تسير كما كان يأمل ويرجو قرر أن ينسحب من الميدان ويلجأ إلى العمل الحر يحفظ به كرامته وعزة نفسه، ويحافظ به على مبادئه وأخلاقه.

مسيرة نضال

ولد محمد الطاهر عبيدي المدعو الحاج لخضر بقرية أولاد اشْليخ القريبة من مدينة باتنة سنة 1914م، وقد فتح عينيه على الدنيا في عائلة فقيرة محرومة كان أفردها يكدحون لكسب قوتهم من الفلاحة.. وقد بذل والده محمد عبيدي رحمه الله كل جهده واستفرغ وُسعه في سبيل توفير تربية آمنة لولده محمد الطاهر، في ظل تحديات كبيرة وعقبات جمة فرضها الاحتلال الاستدماري الفرنسي



للجزائر.

بعد بلوغه سن الرشد، فكر محمد الطاهر عبيدي في وسيلة يوفر بها لنفسه ولأهله عيشة ميسورة، فرأى أن السبيل إلى ذلك هو الهجرة إلى فرنسا للعمل هنالك، وهو ما



حدا به إلى مغادرة مرتع صباه وترك أرض الوطن إلى بلد المحتل سنة 1936م، وكان يبلغ من العمر حينئذ أزيد من عشرين سنة. غادر أرض الوطن حاملا في نفسه آلاما متأججة مصحوبة بالحنق والحقد والغيظ تجاه الاستدمار الفرنسي الذي حرم الإنسان الجزائري كل أسباب العيش الكريم في أرضه ودفع به إلى مغادرة وطنه.

في فرنسا اكتشف محمد الطاهر عبيدي الحقيقة المرة، حيث أثار انتباهه – من أول يوم حط رجله فيها – التفاوت الكبير بين الفرنسيين الذين كانوا ينعمون في بلادهم بمتاع الحياة ويتقلبون في رغد العيش ويستمتعون بالعزة والكرامة والرفاهية، وبين المهاجرين الجزائرين الذين كانوا يعيشون الضنك ويعانون القسوة ويواجهون الضياع والمصير المجهول، مثلهم مثل إخوانهم الذين تركوهم في الجزائر يعانون صور الاضطهاد والظلم والتعسف. وهو ما كان له أثر عميق في نفس محمد الطاهر، مما دفعه إلى التفكير فيما يمكن أن يكون طريقا إلى تغيير هذه الحال وتبديل هذا الوضع المقلوب، ومن هنا بدأ يتشكل لديه الوعي الوطني وينمو في نفسه الاهتمام بتحرير الإنسان الجزائري وطرّد المحتل الغاشم من البلاد.

الوسط
الجمعة 25 السبت 26 فيفري 2022 الموافق 22 رجب 1443

في ذكراه الرابعة والعشرين

(الجزء 02)

المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

هذا التفكير بدأ يتفاعل ويزداد اتساعا وامتدادا، لما انخرط محمد الطاهر في الحياة العملية، حيث خبر بنفسه حياة الذل والاسترقاق وواجه فنون الظلم والتعسف والاستغلال البشع، فهو أولا لم يحصل على عمل إلا بعد جهد جهيد وعناء شديد، ولما حصل عليه لم يجده غير عذاب مستمر وجهد بلا مقابل، فهو رق حقيقي واستغلال لا مثيل له.

كان الحاج لخضر يعمل في مدينة (تروا) التي تبعد بأكثر من 100 كيلومتر عن باريس، وفيها تعرف إلى مهاجر جزائري قدم إلى فرنسا من الغرب الجزائري اسمه أحمد، وكان يلتقي به بعد نهاية عمله اليومي، حيث يجتمعان في مقهى من المقاهي يتبادلان أطراف الحديث. في هذه اللقاءات كان أحمد الجزائري يحدث الحاج لخضر عن معاناة الجزائريين في بلادهم وفي بلاد محتليهم، ويؤجج في نفسه نار الحقد على الفرنسيين، ويحدثه عما ينبغي أن يقوم به الجزائريون من واجب الجهاد لتحرير بلادهم من هؤلاء المحتلين وإنهاء ما يقترفونه بحقها وحق أبنائها من جرائم بشعة يندى لها الجبين. وقد كان لحديث السيد أحمد أثره العميق في نفس محمد الطاهر عبيدي، وهو ما جعله يفكر في الكفاح ضد الاستدمار ويترقب اللحظة التي تتاح له لحمل السلاح في وجوه المحتلين.

بعد أربع سنوات قضاها الحاج لخضر في فرنسا، وعلى إثر نشوب الحرب العالمية الثانية، ونتيجة اضطراب الأحوال في فرنسا وشلل الحياة الاقتصادية بها، عاد إلى أرض الوطن، أين بدأ مباشرة في السعي إلى تحقيق حلمه في تطهير البلاد من المحتل، لذلك سعى إلى الانخراط في صفوف الحركة الوطنية، من خلال الانتماء إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وكان أول نشاط قام به هو إنشاء خلية سرية للحركة الوطنية في مدينة باتنة سنة 1939 متكونة من مجموعة من الأشخاص الذين لم يكن عددهم يزيد على خمسة عشر فردا. وقد استمر النشاط السري لهذه الخلية إلى سنة 1941. حيث بدأ التواصل بينها وبين سي مصطفى بن بولعيد، الذي وضع لها خطة عمل جديدة تتضمن برنامجا محددا.

في سنة 1942 أنشأ الحاج لخضر خلية سرية ثانية في عين التوتة، تحركت هي الأخرى وباشرت نشاطها في أوساط المجتمع بكل حذر وحيطة، واستطاعت أن تحقق الكثير من النتائج المهمة بفضل ما بثته من وعي في صفوف المواطنين بضرورة الثورة على



المحتل والعمل على تحرير البلاد والعباد من سياساته الظالمة وإجراءاته التعسفية.

لكن على الرغم من التكتم والسرية اللذين حرص الحاج لخضر على إحاطة نشاطاته بهما، إلا أن أعين الاحتلال لم تكن لتغفل عنه فكانت تتابعه وتترصد تحركاته وأنشطته، ولذلك كان يتم توقيفه وإيداعه السجن ثم إطلاق سراحه، حصل معه هذا عدة مرات، هذه المضايقات التي كان يتعرض لها الحاج لخضر لم تكن لتفت من عزمه أو تحد من همته، فكان يواصل جهوده المكثفة مع رفاقه المناضلين لبث الوعي في النفوس ونشر فكرة الثورة على الاحتلال، مع أخذ الاستعدادات اللازمة التي كانت تتطلبها ثورة تصبو إلى تحرير البلاد من قبضة أبشع استعمار في العصر الحديث. هذه الاستعدادات التي ظلت تتم في مختلف المستويات وفي مختلف مناطق الوطن خلال عدة سنوات، وقد دخلت مرحلتها الحاسمة حين صدرت الأوامر من القيادة التي تشكلت لتأطير الثورة بشراء الأسلحة في بداية سنة 1953م، ثم ما تلاها من تجسيد عملي للاستعداد لإعلان الثورة وتنفيذ أولى عملياتها ضد المحتلين.

الأعمال الثورية

كان الحاج لخضر واحدا من معاوني المجاهد مصطفى بن بولعيد وأصدقائه المقربين، حيث إن الصلات بينهما كانت قديمة والتعاون النضالي بينهما كان ممتدا عبر سنوات عديدة. وعندما اقترب موعد تفجير الثورة كانت مع الحاج لخضر مجموعة من المجاهدين تحت قيادته يبلغ عدد أفرادها خمسة وعشرين شخصا، حيث استطاعت هذه المجموعة أن تحصل على كمية معتبرة من الأسلحة واللباس العسكري، وقد كلفت مجموعة الحاج لخضر هذه ليلة أول نوفمبر بمداهمة الثكنة العسكرية بوسط مدينة باتنة، والتي كان فيها مركز للأسلحة، بعد دراسة دقيقة للثكنة، والحصول على كل المعلومات اللازمة عنها والمساعدة في اقتحامها والحصول على المبتغى منها، تم تنفيذ العملية كما خطط لها، إلا أن ظروفا حالت دون التمكن من الاستيلاء على الأسلحة التي كانت متوفرة بها، ومع ذلك فقد حققت تلك العملية أثرا نفسيا كبيرا، حيث أسقطت جدار الخوف من نفوس المجاهدين ودفعت بهم إلى المضي



في طريق الثورة والجهاد، حيث انطلقوا بعد ذلك يحاربون جيش الاحتلال بعزيمة ماضية وهمة عالية، الند للند، دون خوف ولا وجل ولا تردد.

نفذ الحاج لخضر والمجاهدون الذين كانوا تحت قيادته، خلال عدة سنوات من عمر الثورة، كثيرا من العمليات العسكرية ضد جنود الاحتلال وثكناتهم ودورياتهم العسكرية وكبدوهم الكثير من الخسائر البشرية والمادية.



وكان الحاج لخضر خلال هذه السنوات يترقى في مراتب القيادة العسكرية حتى أصبح قائدا للولاية الأولى التاريخية أوراس النمامشة برتبة عقيد. وفي سنة 1959 تم استدعاؤه من قبل قيادة الثورة في الخارج إلى تونس، التي ذهب إليها مكرها، خاصة وأنه كان يعلم ما يجري في الخارج من صراعات بين مسؤولي الثورة من السياسيين والعسكريين، وقد بذل في تونس بعد وصوله إليها جهودا معتبرة للتقريب بين القادة المختلفين، وشارك في مؤتمر العقداء العشرة، وسافر من تونس إلى المغرب لاستقبال الزعماء الخمسة الذين كانوا في السجن بفرنسا بعد إطلاق سراحهم وترحيلهم إلى المغرب، كما شارك في مؤتمر طرابلس، ولم يستطع أن يعود إلى الجزائر إلا بعد إعلان الاستقلال.

جهاد ما بعد الاستقلال

في سنة 1962م حصلت الجزائر على استقلالها، وقد أدرك الحاج لخضر أن مهمته في تحرير البلاد انتهت، ولذلك قرر الانسحاب والتفرغ للعمل الحر، فترك وظيفته في الجيش وخرج إلى الحياة المدنية.

لم ينكفئ الحاج لخضر على نفسه، وهو يعيش حياته المدنية الجديدة، بل ظل وفيا لمبادئ الثورة ولنهج الشهداء، فلم يكن يفوت فرصة تسنح له إلا ويستغلها في تبليغ رسالة

(الجزء 03)

في ذكراه الرابعة والعشرين

المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

في سنة 1962م حصلت الجزائر على استقلالها، وقد أدرك الحاج لخضر أن مهمته في تحرير البلاد انتهت، ولذلك قرر الانسحاب والتفرغ للعمل الحر، فترك وظيفته في الجيش وخرج إلى الحياة المدنية.

جهاد ما بعد الاستقلال

لم يكتفِ الحاج لخضر على نفسه، وهو يعيش حياته المدنية الجديدة، بل ظل وفيا لمبادئ الثورة ولنهج الشهداء، فلم يكن يفوت فرصة تسنح له إلا ويستغلها في تبليغ رسالة الثورة إلى الأجيال الجديدة وتحميلها أمانة الشهداء، والمتمثلة في بناء الوطن وحمايته وحفظ كرامة وعزة أبنائه، حيث كان الرجل يحرص أشد الحرص على حضور كل ما يعقد من مؤتمرات أو ندوات أو ملتقيات تقام للحديث عن مآثر الثورة وبطولات الشهداء والمجاهدين، وكانت له فيها صولات وجولات وشهادات سجلتها أجيال من الشباب وأخذت منها العبرة والمغزى. لكن ما أقض مضجع الحاج لخضر وجعله يشعر بالألم والأسى، شعوره وإدراكه بعد سنوات عديدة من الاستقلال والتحرر من الاحتلال أن الثورة وإن تمكنت من تحرير الإنسان الجزائري من عبودية الاحتلال والاستدمار الفرنسي جسديا وماديا، إلا أنها لم تتمكن من تحريره فكريا وثقافيا؛ فالمؤسسات التي تركها المحتل، والترسانة الكبيرة من الموظفين الإداريين التي خلفها بعد أن كونها ورباها، ومظاهر الفرنسة في الألبسة والألسنة، كل ذلك أدرك الحاج لخضر من خلاله بحسه الفطري وبحبه للوطن، أن الاستدمار الفرنسي وإن خرج من الأرض، إلا أنه لم يخرج من القلب



والروح واللسان.. وهو ما جعله يعزم على المرابطة في معترك جديد أخطر وأكبر ألا وهو معترك التحرير الثقافي والفكري للإنسان الجزائري. التفت الرجل إلى ما حوله، فرأى المطار العسكري بباتنة الذي كانت تنطلق منه الطائرات الفرنسية لتصب نيرانها وقنابلها على الأرض والإنسان الجزائري خلال فترة الاحتلال، رأى هذا المطار ما زالت أرضيته وبعض مبانيه كما تركها المحتلون، فقرر أن يحول هذا المكان إلى مركز إشعاع تنطلق منه أضواء العلم والمعرفة وهدايات الإيمان والتقوى، وذلك من خلال إقامة مشروع حضاري يؤدي دورا في بناء العقول وتهذيب النفوس وتطهير الرواح وتنشئة الأجيال الجديدة على حب الدين والوطن.

مشروع قلعة الإسلام

عرض الرجل فكرة المشروع على جماعة من أصدقائه وخلصائه، فرحبوا بها وشجعوه على المضي فيها، وأعلنوا له استعدادهم على معاونته ومشاركته في تحقيقها، وسرعان ما تم تأسيس الجمعية الدينية التي تكفلت ببناء مجمع أول نوفمبر "قلعة الإسلام".

أعلنت الجمعية عن نيتها وأفصحت عن مشروعها، ودعت الناس إلى البذل والعطاء.. ولما علم الناس بأسماء الأشخاص القائمين على هذا المشروع، والذين كانوا يعرفون فيهم الإخلاص والصدق والتقوى والأعمال الخيرة والسبق في الجهاد، سرعان ما توافدوا زرافات ووحدانا، بل أفواجا وجماعات، بل سخر كثيرون منهم أنفسهم للتطوع بجمع الأموال والإسهامات من المدن



والقرى والمداشر والمؤسسات الصناعية والتجارية والثقافية. كان المشروع في أول أمره متمثلا في بناء مسجد ومدرسة



قرآنية، ولكن لما رأى الحاج لخضر وزملاؤه في الجمعية إقبال الناس على المشروع وترحيبهم به وإسهامهم الكبير في انطلاقته، قرروا ترقية الفكرة إلى مشروع أكبر، ألا وهو تأسيس مسجد ضخم وإلى جواره جامعة إسلامية كبيرة لتخريج أجيال من حاملي شهادة الليسانس في العلوم الإسلامية. وقد آتت جهود الحاج لخضر رحمه الله أكلها في حياته، حيث تم افتتاح معهد العلوم الإسلامية في سبتمبر 1987، وقد أقام الحاج لخضر بالمناسبة حفلا ضخما حضره المئات من أصدقائه ورفاقه المجاهدين وإطارات الدولة من أعلى مستوى، وقد عاش الحاج لخضر رحمه الله حتى تخرجت أول دفعة من طلبة المعهد سنة 1991، وأمد الله في عمره حتى شهد مناقشة أول رسالتي ماجستير سنة 1994، وقد توفاه الله في 24 فبراير 1998.

الجزء 04

في ذكراه الرابعة والعشرين

المجاهد العقيد الحاج لخضر.. مسيرة ومناقب



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

في إطار مشروع قلعة الإسلام (مسجد أول نوفمبر ومعهد العلوم الإسلامية) عرفنا المجاهد العقيد الحاج لخضر رحمه الله وخبرناه واتصلنا به عن قرب، بعد تأسيس معهد العلوم الإسلامية، والتحاقنا به كطلبة ثم كأساتذة.. عرفنا العقيد الحاج لخضر، فما رأينا فيه إلا كل صفات النبل والشهامة، وما وجدنا منه إلا كل أخلاق الرجولة والفتوة.

خصال عرفناها في المرحوم

1 . وأول هذه الصفات والأخلاق: التواضع، وهو خلق لا يتوفر إلا للكُمَّل من الرجال، ولا يظهر فضله إلا على الأعلام من الناس، فقد يتواضع الإنسان لأنه لا يجد ما يحمله على الكبر والاستعلاء، أما أن يتواضع رغم كل ما يدعوه إلى الاستعلاء والتكبر فذلك من عظمة نفسه وعلو همته. ولقد كان الحاج لخضر من ذلك الطراز الفريد من الرجال الذين يسري التواضع في عروقهم ويصدر عنهم سجية وخلقة لا تكلفا وتصنعا. رأيناه متواضعا وهو يجلس في مكتبه البسيط بمسجد أول نوفمبر، ورأيناه وهو يستقبل الأساتذة ويعامل الطلبة، ورأيناه متواضعا وهو يتصل بأفراد المجتمع ويطلب منهم الإسهام في بناء مشروع مجمع أول نوفمبر دون أن يرى في ذلك بأسا أو يشعر بنقيصة، ورأيناه كذلك متواضعا وهو يلبي نداء من يدعوه إلى المصالحة بين الأعراش والعائلات حين تستفحل أسباب الشقاق والخصام. ورأيناه متواضعا وهو يستقبل في مكتبه من يأتيه راغبا في التطوع بماله لبناء المشروع، حيث كان يقبل منهم أي مبلغ يأتون به دون أن يعلق عليه مهما كان قليلا. 2 . وعرفنا فيه كذلك صفة: البساطة، بساطة العيش، وبساطة المأكل، وبساطة الملبس.. بساطة لاحظناها عليه وهو يلبس القميص الأبيض ويحرص على ارتدائه ولا يدعه إلا نادرا.. ولاحظناها عليه وهو يسير راجلا من بيته إلى مكتبه دون أن يركب سيارته أو يكلف من يحمله على السيارة. ولاحظناها من خلال مكتبه البسيط الشديد البساطة الذي كان يستقبل فيه زواره ويباشر أعماله، ولم يفكر يوما في تزويده بالكراسي الفخمة والأرائك الوثيرة. 3 . وثالثة الخصال التي عرفناها في العقيد الحاج لخضر: التلقائية؛ فالرجل كان يلقى من يأتيه بكل تلقائية ودونما افتعال، ويبادله التحية بتلقائية، دون تفريق بين كبير أو صغير، ولا بين رئيس أو مرؤوس، ولا بين غني وفقير. وكذلك كان يقوم إلى العمل بتلقائية ودون تكلف، فهو يقوم بما يستطيعه بكل قوته ويترك ما لا يستطيعه إن كان خارج إطار طاقته وقدرته.

كان الحاج لخضر يكره بتلقائية إذا ما رأى سببا يدعو إلى الكراهة، ويحب بتلقائية إذا ما رأى سببا يدعوه إلى الإعجاب والحب. وكذلك كان يتحدث بتلقائية حسب ما يبدو له دون أن يحسب حسابا لمن يحدث أو لما سيتحدث به، المهم أن يكون صائبا في نظره، ولم يكن يهمه أن يقول لكبير ما لا يرضيه، أو يقول لصغير ما يرتفع به مقامه وتعلو مكانته.

4 . أما الخصلة الرابعة التي خبرناها في المجاهد الحاج لخضر، فهي صفة الانضباط التام، والمواظبة المستمرة، والمتابعة الدائمة للعمل، والتفاني فيه، دون كلل أو ملل، فلقد كان مشروع مجمع أول نوفمبر قطعة من نفسه، وفلذة من كبده. فمنذ ابتداء الأشغال فيه ظل مرابطا عليه ملتزما له، وبقي إلى آخر يوم من حياته مواظبا على الحضور إليه، متنقلا بين أروقة المعهد، متفقدا سير الأشغال بالمسجد.. ورغم نوبات المرض الشديدة التي كانت تنتابه بين الحين والآخر وتدفع به إلى ملازمة المستشفى، إلا أنه ما إن كانت تخف عليه تلك النوبات ويذهب خطرها حتى يعود إلى مشروعه مرة أخرى يتفقده ويستطلع أحواله..

ولا عجب أن يتصف العقيد الحاج لخضر بهذه الخصلة، وهو الرجل المؤمن الغيور الذي كان يواظب على أداء الصلوات في أوقاتها ويحرص على ألا تفوته صلاة في حينها، وجميع من يعرفونه يعلمون أنه لم يكن يتخلف عن أداء صلاة العصر والاستماع إلى الورد القرآني الجماعي في المسجد العتيق لسنوات طويلة.

5 . وأما الخصلة الخامسة، فهي الإخلاص لوجه الله تعالى، والإخلاص . كما هو معلوم . نور يقذفه الله في قلب المؤمن، وسر بين العبد وربه، يحمله على القيام بالأعمال العظيمة دون أن يرى لنفسه حقا أو يسعى إلى هدف أو غاية من وراء عمله ذاك.

ولقد كان الحاج لخضر رحمه الله مخلصا لوجه الله تعالى فيما كان دائبا فيه من بناء مجمع أول نوفمبر وفي غيره من الأعمال التي قام بها في حياته، هذا ما بدا لنا من حال هذا الرجل، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدا. فهو لم تكن تنقصه الشهرة ليسعى إليها، ولم يكن بحاجة إلى المال ليصبو إلى جمعه. وإنما أراد . كما كان يصرح دائما . أن يواصل مسيرة الجهاد المباركة التي كان قد ابتدأها مع رفاقه أثناء الثورة التحريرية، وذلك بنشر العلوم الدينية التي من شأنها أن تبث الوعي الصحيح بحقيقة الإسلام ومغزى رسالته الحضارية الشاملة التي تبتغي الخير لكل الناس بدون استثناء.

كان هذا الإخلاص مظهرا لكل عمل قام به الحاج لخضر رحمه الله، ولولا الإخلاص ما كان ليجشم نفسه الأعباء والمشقات والجهود المضاعفة لبناء مشروع خيري عظيم كهذا الذي نهض به وتحمل إنجازه والقيام به ودعا الناس إلى المشاركة فيه والإسهام في بنائه.

6 . وأما الخصلة السادسة، فهي الوفاء لمبادئ الثورة وعهد الشهداء.. لقد ظل الحاج لخضر وفيا لمبادئ الثورة ولنهج الشهداء، ولم يكن يفوت فرصة تتاح له ليبلغ الرسالة إلى الأجيال الجديدة، ويُحَمّلها أمانة الشهداء، فكان حريصا على حضور كل المؤتمرات والندوات والملتقيات التي تقام للحديث عن مآثر الثورة وبطولات الشهداء والمجاهدين، وكانت له فيها صولات وجولات وشهادات سجلتها الأجيال وأخذت منها العبرة والمغزى.

ولقد ظل الحاج لخضر وفيا لمبادئه تلك، منافحا عنها، مدافعا عن المجاهدين في سبيلها، مشاركا في كل عمل من شأنه أن يُسْهِم في رقي الوطن وسلامته ونهوضه من كَبوته وتخلصه من أزمته، ولشَدّ ما كان يؤلمه رحمه الله أن يرى ما كانت تتعرض له الجزائر في العقد الأخير من القرن العشرين من تخريب وتدمير، وكان يعتبر ذلك تراجعا عن عهد الشهداء وخيانة لمبادئ ثورة أول نوفمبر.

في مارس شهر الشهداء والعلماء

الرجولة.. استعداد وأخلاق ومواقف



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

في كل مناسبة نحتفي فيها بذكرى رجل عظيم من رجال الوطن والأمة، هناك سؤال ملح يطرح نفسه، وهو: لماذا بعض الناس يرفعهم الله عز وجل ويعلي شأنهم ويجعل ذكرهم يتردد على الألسنة مهما طال الزمان بعد رحيلهم من هذه الدنيا، في حين أن معظم الناس ينطوي ذكرهم وينسى أمرهم بمجرد وفاتهم ووضعهم في قبورهم؟.. هذا سؤال مهم جدا، وفي الجواب عنه يرد ذكر قيمة عظيمة ينبغي علينا أن نعرفها، وهي قيمة الرجولة.

حقيقة الرجولة

الرجولة ليست هي الذكورة. الرجولة قيمة، الرجولة أخلاق، الرجولة مواقف، الرجولة أعمال عظيمة يقوم بها الإنسان، وبها يرفعه الله سبحانه وتعالى ويُعلي شأنه ويُخلد ذكره.

لماذا يخلد الله عز وجل ذكر العلماء والشهداء والعظماء؟لأنهم تحلوا بهذه الخصلة وبهذه الصفة، وهي صفة الرجولة.

في هذا المقام نجد حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم يبين حقيقة هذه القيمة وهذه الخصلة التي يتميز بها قليل من الناس، فالناس كثيرون في هذه الدنيا ولكن المتميزين منهم بهذه الخصلة قليلون.

نحن في تعبيرنا الشعبي، عندما يكون هناك إنسان صاحب مواقف ومبادئ، نقول عنه: ذاك رجل حقا.. هنا نحن نشير إلى قيمة الرجولة التي لا يتحلى بها كل الناس وإنما بعضهم فقط.

جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً".

في هذا الحديث ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة مثلا من البيئة الصحراوية التي كانوا يعيشون فيها ويعرفونها، والتي كانت الإبل تمثل المال الأكثر حضورا فيها مقارنة مع غيره من أنواع الأموال والممتلكات.

ومعنى هذا المثل: أن الناس في هذه الحياة كالإبل المائة، لا يكاد يصلح منها للحمل والركوب سوى واحدة، أما البقية فليس لها من وظيفة سوى العلف والحلب وأن تؤكل كلحم، فكذلك الناس في المائة منهم لا تكاد تجد واحدا يستحق وصف الرجولة التي هي أخلاق ومواقف. "أو المعنى: أنَّ أكثرَ النَّاسِ أهلُ نقْصٍ، وأمَّا أهلُ الفضلِ فعَدَدُهم قليلٌ جِدًّا؛ فهم بمُنزلةِ الرَّاحلةِ في الإبلِ الحَمُولةِ. أو المعنى: أنَّ النَّاسَ كثيرٌ، والمرضيُّ منهم قليلٌ". وإذا كان الأمر بهذا الحال في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ففي عصرنا هذا ربما لا تجد في الألف أو في عشرة آلاف شخصا واحدا يستحق وصف الرجولة.

معنى الرجولة التي يقصدها النبي صلى الله عليه وسلم؟

في دار من دور المدينة المباركة، زمن الخلافة الراشدة، جلس عمر إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه في سبيل الله، ثم قال عمر: تمنوا، فقال رجل آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله وأتصدق به. ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: "ولكني أتمنى رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله".

فحتى الصحابة لم يكونوا كلهم متحققين بوصف الرجولة، مع أنهم أشرف أجيال هذه الأمة وأقربها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لماذا الرجال قليل؟

فإذن الرجال قليل.. لماذا؟لأن الرجولة ثمنها باهظ، فلكي تكون رجلا يجب عليك أن تدفع الثمن غاليا، وليس كل الناس عندهم الشجاعة والقابلية لدفع هذا الثمن. فثمن الرجولة غالٍ وعزيزٌ، ثمن الرجولة ليس أموالا ولا أطياناً، وإنما هو النفس، هو التضحية بكل ما يملك الإنسان من مال وجاه وكل ما هو عزيز على النفس، حتى الروح، حين يتطلب الموقف أن يضحي بالروح يقدم عليها ولا يبالي.

فهذا الثمن لا يستطيع دفعه كل الناس.. ليس كل الناس يستطيعون أن يضحوا، وليس كل الناس يقبلون أن يضحوا، وليس كل الناس مقتنعين بقيمة التضحية وأهميتها، ولذلك ليس كل الناس يستطيعون أن يكونوا رجالا، لأن الرجولة تضحية، الرجولة مواقف كلها تضحية في صميمها وفي عمقها.

ولذلك فإن الله عز وجل يخلد ذكر الرجال، ولا يخلد ذكر من لا يستطيعون الرقي إلى مرتبة الرجولة. هناك من يبذل الثمن حتى يرتقي إلى مرتبة الرجولة، وهناك من لا يقدر عليه، لأن نفسه تغلبه فلا تسمح له بالصعود على السلم الذي يوصله إلى مرتبة الرجولة، لأن هذا السلم كل درجة فيه تتطلب التضحية شيء من الأشياء الغالية على النفس والتي لا تستطيع التخلي أو التنازل عنها، وعندما لا يصعد على السلم يبقى في السفح حيث الزحام الكثير الذي يجعله يختفي ولا يكاد يظهر له أثر.

ولذلك فنحن عندما نتحدث عن علمائنا وشهدائنا، وعظمائنا، مهما كانت الأدوار التي أدوها في هذه الحياة، فنحن لا نتحدث عن الأشخاص بأعيانهم، وإنما نتحدث عن هذه المرتبة العظيمة التي استطاعوا أن يرتقوا إليها حين دفعوا ثمنها، في حين لم يستطع غيرهم أن يرتقي لأنه لم يدفع ثمن الرجولة.

الصفات المؤهلة لمرتبة الرجولة

أول الخصال المؤهلة إلى مرتبة الرجولة: هي الإيمان واليقين وليس الإمكانات والوسائل المادية، الإيمان بالله عز وجل واليقين المطلق في عون الله لمن توكل عليه وسأله العون وأخلص له العمل.

فبدون إيمان لا يمكن تحقيق أي شيء، حتى وإن توفرت الإمكانات المادية الضخمة فهي لا تنفع بدون إيمان، لكن إذا توفر الإيمان فحتى وإن عدمت الإمكانات أو كانت قليلة إلا أن الإيمان ينفع ويرفع، لأن الإنسان حينئذ يأوي إلى ركن شديد وهو الله عز وجل الذي يملك مقاليد الأمور ويُبلغ الأعمال مقاصدَها ويسخر كل شيء للإنسان حتى ينجز أعماله ويصل إلى أهدافه.

الصفة الثانية المؤهلة لمرتبة الرجولة هي: الاستهانة بالدنيا وطلب الآخرة. وهذا ما يفشل فيه معظم الناس، حيث يركنون إلى الدنيا ويلتصقون بها ويحبونها ويريدون أن يخلدوا فيها، ومن هو بهذا الوصف لا يمكنه أن يرتقي إلى مرتبة الرجولة.

الرجولة تقتضي أن يضع الإنسان الدنيا تحت قدميه، وليس المقصود ألا يملك الإنسان شيئا في هذه الدنيا، وإنما المقصود ألا يتعلق قلبه بالدنيا، فالاستهانة بالدنيا معناها ألا تمتلكك الدنيا وإنما تمتلكها أنت وتجعلها في يدك لا في قلبك، فيمكن أن تكون غنيا ثريا ومالكا للأموال الطائلة لكنك لا تبالي أن تضحي بها كلها عندما يتطلب الموقف ذلك.

بل إن أعز ما يملكه الإنسان ويربطه بالدنيا هو نفسه أو روحه، فالرجل هو من يضحي بروحه إذا اقتضى الأمر ذلك، وهذا ما يعجز عن الارتقاء إليه معظم الناس، ولذلك ليس كل الناس يستطيعون أن يكونوا رجالا. فالرجل الحق هو من يؤمن أن الموت في سبيل الله هو الحياة الحقيقية، ولذلك يستهين بالروح ولا يبالي أن يقدمها قربانا لتحقيق مرضاة الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

أما الصفة الثالثة من الصفات الرافعة لصاحبها إلى مرتبة الرجولة فهي علو الهمة وتقدم الصفوف وقيادة الآخرين على طريق المجد.

الرجل الحق لا يرضى بأدنى المراتب ولا يقبل أن يكون في مؤخرة الركب، فالرجولة تدفع صاحبها لطلب أعلى المراتب، وأعلى المراتب في هذه الحياة هي الشهادة في سبيل الله، وإذا لم تحصل على الشهادة فأن تكون مجاهدا في سبيل الله وأن تحقق أعلى مراتب الجهاد في سبيل الله.

هذه هي الرجولة، أما من يكتفي بمؤخرة الركب، أو يكتفي بتتبع الحائط، أو يطلب السلامة في مشاهد الموت فهذا لا يمكنه أن يكون رجلا.

الرجولة تقتضي تقدم الصفوف، ليس فقط في الحرب، وإنما في كل الأمور التي يتعاون الناس فيها.

فعندما يُدعى الناس إلى البذل والعطاء، لكي تكون رجلا يجب أن تكون أسبقهم إلى ذلك، وعندما يُدعون إلى قتال المحتلين والدفاع عن الوطن تكون أول من يحمل سلاحه ويتقدم للتضحية بنفسه وماله وكل ما يملك، وهكذا في سائر الشؤون.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ذا سمي صديقا بينما لم يسم غيره بهذا الاسم؟

لأنه عندما دعا النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى البذل والعطاء في سبيل الله، جاؤوا بالأموال، كل بما هان على نفسه، لكن أبا بكر جاء بماله كله ولم يحتفظ منه بشيء.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمَرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر إن سبقتُه يومًا، قال: فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيتَ لأهلك؟)، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: (يا أبا بكر، ما أبقيتَ لأهلك؟)، قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلتُ: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا! [رواه الترمذي وأبو داود].

فالرجولة مواقف، إيمان مطلق ويقين قطعي بأن الرزق بيد الله وحده، وأن عطاءه سبحانه وتعالى بلا حدود، وهذا اليقين يفتقده معظم الناس الذي لا يؤمنون إلا بالملموس، أما الغيب فغير مضمون بالنسبة لهم، ولذلك يمسكون ما بين أيديهم توهما منهم أنه مضمون ما دام بأيديهم.

فالرجولة تتطلب تقدم الصفوف، وإعطاء القدوة والمثل للآخرين، وقيادتهم في طريق البذل والعطاء.

الرجولة إذن هي التضحية، هي السبق في كل الأمور، هي اليقين بالله عز وجل وابتغاء الدار الآخرة والاستهانة بهذه الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

حاجتنا إلى الرجال

إن أمتنا بحاجة إلى رجال، وإن بلادنا بحاجة إلى رجال، والرجولة هي التي تنهض بالأمة والبلاد. فإذا كنا كلنا نرضى بأدنى المراتب في السفوح ووسط الزحام فإن بلادنا لن تنهض وأمتنا لن تنتصر على أعدائها.

نحتاج إلى رجال في كل المواقع، رجال يعلون المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ويقدمون منفعة الجامعة على المنفعة الشخصية، لأنهم يدركون أن خدمة وتحقيق المصلحة العامة الجماعية سبيل إلى تحقيق المصلحة الشخصية الفردية، أما العمل لأجل المصلحة الشخصية والمنفعة الذاتية فهو سبيل إلى إهدار المصلحة العامة وتضييعها مما يعود على المصلحة الخاصة بالتضييع والإهدار على سبيل التبع.

لا بد أن نفكر في مصلحة الجميع، أن نعمل لمصلحة الجميع، كل في مستواه ومجاله وموقعه، بهذا فقط ننجح ونتقدم، أما إذا كان كل واحد منا يفكر فقط في نفسه وفي مصلحته فلن ننجح ولن نحقق شيئا، بل إننا سنفقد كل ما نملك شيئا فشيئا.

وهذا ما ينبغي أن نربي عليه أبناءنا: أن نربيهم على طلب المعالي وخدمة المصلحة العامة ونفع العباد وتعمير البلاد.

العلة والتشخيص

الجزء 01

سبب ظهور الفساد وسبيل إزالته



أ.د. مسعود فلوسي

مما نشاهده ونعيشه جميعا: ظهور الفساد وانتشاره في كل أرجاء الأرض، وهذا الفساد لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا وامتد إليه؛ سواء حياة الفرد، أو حياة الجماعة، أو حياة الأمة ككل، بل حياة العالم بأسره، فهناك فساد كبير.

هذا الفساد الكبير له مظاهر كثيرة في مختلف مجالات الحياة والإنسان المؤمن يتساءل: ما سبب هذا الفساد؟ لماذا انشر الفساد بهذا الشكل الكبير والواسع؟ وهل يمكن أن يرتفع هذا الفساد؟ وما السبيل إلى ارتفاعه؟ هذه الأسئلة كلها نجد الجواب عنها في كتاب الله عز وجل، في آية يحفظها معظم المسلمين، وهي قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم:41.

سبب ظهور الفساد

كلمة (ظهر) فعلٌ ماض، والفعل الماضي يشير إلى أن الفساد وُقع فيما سبق من الزمان، لكن (ظهر) هنا تفيد أن الفساد وقع في الماضي ويقع في الحاضر وسيقع في المستقبل، لماذا استعمال الفعل الماضي بدلا من الفعل المضارع؟ فلم يقل سبحانه وتعالى: (يظهر الفساد) أو (سيظهر الفساد)، وإنما قال: (ظهر).

لعل السر في ذلك أن الفعل الماضي يفيد الجزم بالتحقق والوقوع الفعلي، وليس التوقع، بمعنى أن هذا قضاء مبرم من الله عز وجل، فالفساد يحدث بقضاء من الله ويأمر منه سبحانه وتعالى، عندما يرتكب الناس من الأفعال والتصرفات والمعاصي والمنكرات ما يستحقون عليه العقوبة.

فالفساد هو نتيجة لأفعال الناس ومعاصيهم والموبقات والمنكرات التي يرتكبونها، لكن ليس الناس هم الذين يختارون نتيجة تصرفاتهم، وإنما تأتي النتيجة بأمر الله وبتقدير منه، فهو سبحانه وتعالى من يقدر نوع العقوبة التي يعاقب بها عباده بسبب معاصيهم، وهذه العقوبة تظهر في شكل فساد يعم البر والبحر، وهذا الفساد يتضرر منه الناس، إذ أن الله أوقعه بهم بسبب تصرفاتهم ومعاصيهم.

فالفعل الماضي يفيد تحقيق الوقوع، بمعنى أنكم إذا اقترفتم المعاصي فتأكدوا أن الفساد سيحل بكم كنتيجة تلقائية لهذه المعاصي.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)؛ أي غلب وسيطر واستولى، فالفساد عندما يتحقق ينتشر ويعم، حيث لا يتوقف عند المكان الذي يقع فيه أول مرة فحسب، وإنما يعم، لأن الناس عندما يرتكب بعضهم المعاصي يقلدهم الآخرون فيها، ولذلك بدلا من أن تتوقف المعصية عند مرتكبها تتوسع دائرة مقترفيها حتى تصبح سلوكا اجتماعيا، وعندما تصبح المعصية سلوك مجتمع بأسره سرعان ما تنتقل إلى مجتمعات أخرى، وتتسع دائرتها شيئا فشيئا حتى تعم العالم بأسره.

قديما، ربما لم يكن الناس يفهمون هذا المعنى بوضوح كما نفهمه نحن اليوم، فالناس في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ربما لم يكونوا يتصورون معنى ظهور الفساد وسيطرته وغلبته على البر والبحر، لأن وسائل الإعلام والتواصل كانت محدودة جدا وفعاليتها بسيطة جدا؛ حيث كان الحدث يقع في مكان فلا يكاد يصل إلى أقرب مكان إليه إلا بعد مدة طويلة، أما الآن فالحدث يقع في أقصى الأرض فيعم خبرُه العالمَ كله في لحظات وجيزة، بل ربما تابعه العالم كله على المباشر لحظة حدوثه ووقوعه.

فنحن ندرك بوضوح اليوم معنى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، لأننا نراه مجسدا في الواقع، حيث نرى الفساد ونلاحظه وهو ينشأ شيئا فشيئا وينتشر بسرعة حتى يصبح سلوكا عاديا وأمرا مقبولا من كافة الناس.

ظهور الفساد عقوبة ربانية

الفساد إذن هو نتيجة، حيث قد يتصور بعض الناس أن الفساد سبب للعقوبة، والصحيح أن الفساد هو العقوبة ذاتها، التي هي نتيجة للمعاصي.

هذا الفساد – كما قلنا – يقع بأمر الله وبقضائه سبحانه وتعالى، وليس باختيار العباد، فالذي يرتكب معصية ليس هو من يختار عقوبته عليها و إنما يختارها الله عز وجل بحكمته وعلمه.

فهذا الوباء الذي عم العالم (وباء كورونا) هو فساد، حيث عم البر والبحر والجو، كما أن الأوبئة التي ظهرت في العصور الماضية كانت فسادا.

لماذا هذا الوباء فساد؟ لأنه قتل ملايين البشر، وأصاب ملايين أخرى وترك فيهم عاهات لا شفاء منها، وصرفت في مواجهته أموال طائلة لا تعد ولا تحصى، إلى غير ذلك من خسائر نتجت عن هذا الوباء في كل قطاعات الحياة. فالوباء فساد جاء بأمر الله وقضائه نتيجة لما اقترفته أيدي العباد.

ومثل ذلك انحباس المطر والغيث من السماء، هو فساد، فعندما لا ينزل الله الغيث، لا يكون الماء، السدود لا تمتلئ والأنهار لا تجري والينابيع تنضب، حينئذ تصير الحاجة إلى الماء شديدة. فهذا فساد في الطبيعة وقع بأمر الله سبحانه وتعالى نتيجة معاصي العباد.

كذلك انتشار الآفات الاجتماعية، السرقة، الزنا، المسكرات من خمور ومخدرات، المظالم بصورها المختلفة، كل هذا فساد وقع بأمر الله، وهذا الأمر الرباني جاء بسبب معاصي العباد وارتكابهم للموبقات والمنكرات.

فالجزاء من جنس العمل، وهذا ما يؤكده الله عز وجل في هذه الآية: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ).

ضرر الفساد يعود على العباد

وكل فساد، أول من يعاني منه ويتجرع عذابه ويتضرر بفعله هم العباد، ويمتد ضرره إلى غيرهم من المخلوقات.

هذا الفساد كل الناس يشتركون فيه بأنصبة متفاوتة، فهو لا يأتي نتيجة لمعصية شخص أو اثنين أو عدد قليل من الناس، وإنما يأتي بسبب تعاون العباد على ارتكاب المعاصي والمنكرات، فهناك من يرتكب المعصية بذاته، وهناك من لا يستطيع فعلها لكنها أعجبته ويتمنى فعلها لو استطاع، وهناك من لم تعجبه لكنه سكت عنها وغض الطرف عمن ارتكبها، وهناك من يتستر على الجريمة ويعين من يرتكبها، فالكل مشتركون. ولذلك عندما يأتي الفساد كنتيجة يصيب الناس جميعا، لأن الكل مشتركون.

الفساد قد يبدأ في البيت، وقد يكون في الحي، وقد يقع في البلدة الصغيرة، وقد ينشأ في مدينة كبيرة، وقد يكون في دولة بأكملها، وقد يكون ذا بعد عالمي شامل.

الجزء 02

العلة والتشخيص

سبب ظهور الفساد وسبيل إزالته



أ.د. مسعود فلوسي

مما نشاهده ونعيشه جميعا: ظهور الفساد وانتشاره في كل أرجاء الأرض، وهذا الفساد لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا وامتد إليه؛ سواء حياة الفرد، أو حياة الجماعة، أو حياة الأمة ككل، بل حياة العالم بأسره، فهناك فساد كبير.

وتأثير الفساد يكون بحسب بيئة المعصية والمحيط الذي تقع فيه، فالمعصية التي تقع في بيت واحد تأثيرها لا يتعدى أهل هذا البيت، فإذا خرجت إلى الحي خرج الفساد معها وأصاب أهل الحي، وإذا وقعت في بلدة صغيرة سيكون الفساد الناتج عنها ضارا بأهل هذه البلدة، وهكذا، فإذا أصبحت المعصية عالمية يكون الفساد الناشئ عنها عالميا بحيث يصيب العالم ككل، كما هو الحال في عصرنا هذا الذي أصبحت بعض المعاصي فيه عالمية، أي أن العالم كله يتعاون على اقترافها.

مثال ذلك: الفجور والفاحشة، العالم كله يتعاون على ارتكابها، فهناك من يرتكب الفاحشة، وهناك من يزينها، وهناك من يشهرها، وهناك من يحمي مرتكبيها، وهناك من يدعو الناس إلى الوقوع فيها ويسميها بأسماء تغري النفوس بها، وهناك من يسكت على وقوعها حتى وإن رآها في أقرب الناس إليه ممن هم تحت مسؤوليته ورعايته.

فالفاحشة أصبحت سلوكا عالميا، هناك قنوات فضائية ضخمة تنشر الفاحشة عن طريق الأفلام والمسلسلات الإباحية، وعن طريق اللقطات الإشهارية والبرامج الحوارية المشجعة عليها، وهناك مجلات وجرائد لا هم لها إلا الإغراء بالفاحشة، وهناك ملايين الكتب والمطبوعات التي تنشر لهذا الغرض، وهذا كله دون الحديث عن الفنادق والحانات وقاعات الرقص التي أنشئت لغرض تيسير الفاحشة وتسهيل الوقوع فيها، ليس في دول الكفر، وإنما في بلاد الإسلام والمسلمين نفسها، فهذه معصية عالمية، نتيجتها التلقائية فساد عالمي.

فالفساد هو نتيجة للمعاصي: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) .

الفساد نتيجة وعقوبة معا

هو من جهة نتيجة، ومن جهة ثانية عقوبة يوقعها الله بعباده العاصين، فهو سبحانه وتعالى الذي يحدث الفساد. فالعباد يرتكبون المعاصي، والله سبحانه وتعالى يفسد عليهم حياتهم بما يحدثه فيها من صور الفساد عقابا لهم على معاصيهم. لا يعني هذا أن الله عز وجل مفسد، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فهو سبحانه القائل: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) [البقرة: 205]، ولكن لا علاج للعباد حين يقترفون المعاصي ويصرون عليها ويتعاونون على ارتكابها إلا بأن يفسد عليهم حياتهم وينغصها عليهم عقابا لهم على استعمالهم لنعمه سبحانه وتعالى في معصيته.

فالله عز وجل أحسن للإنسان حين رزقه بحياة حسنة هنيئة وطيبة، فيها الراحة والصحة والرزق المكفول وكل ما يحتاجه لتيسير حياته، لكن الإنسان بدلا من أن يحمد الله عز وجل ويشكره ويقر له بنعمته وفضله، يبارز الله عز وجل فيعصيه بهذه النعم التي وهبه إياها، النتيجة المرتقبة أن يفسد الله عليه حياته التي حسّنها له في البداية، لأن الإنسان أفسد نعمة الله، إذ بدلا من أن يشكره عليها استعملها في معصيته.

والله عز وجل حين يفسد على الإنسان حياته بسبب ارتكابه للمعاصي، إنما يفعل ذلك لمصلحة الإنسان نفسه، فهو يريد أن ينبهه إلى أن ما ارتكبه من معاص لا يليق أن يكون هو التصرف الذي يتعامل به مع نعم الله عز وجل، وإنما التصرف اللائق هو شكر الله وحمده، ولذلك فإن المقصد من إيقاع الفساد في حياة الإنسان إنما هو أن ينتبه من غفلته ويرجع عن غيه ويقلع عن معصيته وفجوره، ويتوب إلى الله ويستغفره وينيب إليه ويعود إلى عبادته وطاعته، وحينئذ يعيد الله إليه حياته كما كانت صالحة من قبل.

أمّا والإنسانُ مستمر في المعصية فلا ينتظر صلاح الحال فيما بعد.

مثال ذلك: إنسان آتاه الله من فضله ورزقه من نعمه، ووهبه زوجة وأولادا وأجرى لهم رزقا حسنا بحسب حكمته وتقديره سبحانه، وبدلا من أن يحمد هذا الرجل الله على ما آتاه حتى وإن كان قليلا بحسب ظنه ويعمل على تربيتهم وتوجيههم وإطعامهم من الحلال الطيب الذي رزقه الله، تجده يريد أن يتدخل فيما هو من خصوصيات الله عز وجل التي لم يُشرك فيها غيره وهو الرزق، فيفكر في كيفية ضمان مستقبل زوجته وأولاده ببيت واسع وادخار رصيد من المال في البنك حتى إذا مات وجدوه وواصلوا حياتهم به، وبما أن ما آتاه الله من رزق يعتبره قليلا وغير كاف في نظره، تجده ينطلق إلى تحقيق ما يريد من خلال سلوك أبواب الكسب الحرام من سرقة وغش ورشوة وغصب وربا وغيرها من مسالك الثراء المحرم، فيضمن مستقبل أولاده - حسب تصوره- بالحرام.

هنا يكون قد خرج من دائرة الطاعة إلى دائرة المعصية، لذلك عليه أن ينتظر ظهور الفساد في حياته، فهذه سنة الله التي قررها في هذه الآية، وهي أن المعصية تنتج فسادا. وأول مظهر لهذا الفساد بالنسبة لهذا الشخص أن يكون أول من يعاديه ويعلن عليه الحرب هم زوجته وأولاده الذين يفكر في مستقبلهم ويريد أن يضمنه لهم، فهم النعمة التي لم يحمدها والتي أراد أن يتدخل فيها بما ليس من صلاحياته، فالرزق شأن رباني لا دخل للإنسان فيه، فالزوجة والأولاد الذين يطعمهم هذا الشخص من الحرام بمجرد أن يذوقوه وتجري الأموال المحرمة في أيديهم يشرعون في التمرد عليه، فالمرأة تطغى وتتجرأ عليه، والأولاد يعقون وينحرفون وينصرفون إلى المحرمات من مخدرات ومسكرات وفواحش فيضيعون بذلك، وسبب ضياعهم هو هذا الأب الذي عصى الله فيهم، فليس الله عز وجل هو الذي أضاعهم، وإنما ضاعوا [والضياع فساد محقق] بسبب معصية أبيهم، فهي نتيجة تلقائية لمقدمة عملية.

حينئذ تصبح حياة هذا الشخص جحيما لا يُطاق، وحتى إن أراد بعد ذلك أن يتدارك الأمر ويرجع عن معصيته ويكف عن الكسب المحرم، فزوجته وأولاده لن يقبلوا منه ذلك ولن يتقبلوا أن تتوقف المداخيل المالية التي كانوا يستفيدونها منه وينفقونها في مصالحهم.

أثر المعصية لا يتوقف عند فاعلها

هناك أمر آخر مهم؛ وهو أن كثيرا من الناس يرتكبون المعاصي ويحسبون أثرها محدودا وقاصرا عليهم ولا يتعداهم إلى غيرهم، ولا يعلمون أن أثر هذه المعصية سيكون واسع الدائرة، فليس هناك معصية محدودة الأثر، لأن المعصية عندما ترتكب يكون أول متضرر منها هو مرتكبها نفسه، لأن ارتكابه للمعصية يُهَوِّنُ عليها تكرارها وإعادة ارتكابها، ثم إنه في البداية يرتكب المعصية سرا لكنه لا يلبث أن يرتكبها جهرا حين يتعود عليها وتصبح له عادة، وعندما يرتكبها جهرا يكسر قيمة اجتماعية تجعل غيره الذي كان خائفا من ارتكاب نفس المعصية يتجرأ عليها ويقبل على اقترافها ويقلده فيها، فالمعصية أثرها يتسع حتى يعم، إذ يقلد الناس بعضهم بعضا فيها، خاصة إذا كان أولُ من ارتكبها ذا مكانة ووجاهة في المجتمع، وهكذا حتى تُنسى الأحكام الشرعية للتصرفات ويصبح المعيار هو فعل الآخرين لها أو عدم فعلهم، فما يفعله الآخرون حلال وما يتركونه حرام، وبذلك تنقلب الموازين وتختلط الأمور.

فالمعصية أثرها وخيم وعظيم، يبدأ من الشخص نفسه وينتقل منه إلى بقية أفراد أسرته، ويمتد بعد ذلك إلى آفاق أوسع.

مثال ذلك الشخص الذي يرتكب المعصية أمام ولده، معتقدا أن ولده صغير لا يدرك حقائق الأمور، لا يلبث ولده هذا أن يرتكب نفس المعصية، فإذا علم والدُه بذلك وعاقبه أو عاتبه سيكون ردُّ ولده: لقد رأيتك تفعل هذا، فلو كان سلوكا سيئا لتركته أنت، لكنك ما دمت قد فعلته أنت فقد اعتقدتُ أنه حسن. ومثل ذلك من يدخن، ثم وجد ابنه يدخن فضربه بسبب ذلك أو وبخه توبيخا شديدا، فإن ولده سيحتار كيف أن والده يمنعه من تصرف يفعله هو شخصيا، وهو ما سيسبب له التناقض والاضطراب وانفصام الشخصية.

ولذلك عندما نجد الفساد يعم المجتمع، فلا ينبغي أن نتعجب أو نستغرب، لأن هذا من أعمالنا وتصرفاتنا.

العلة والتشخيص

الجزء 02

سبب ظهور الفساد وسبيل إزالته



أ.د. مسعود فلوسي

مما نشاهده ونعيشه جميعا؛ ظهور الفساد وانتشاره في كل أرجاء الأرض، وهذا الفساد لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا وامتد إليه؛ سواء حياة الفرد، أو حياة الجماعة، أو حياة الأمة ككل، بل حياة العالم بأسره، فهناك فساد كبير.

سبيل ارتفاع الفساد وعودة الصلاح

فربنا سبحانه وتعالى يعاقبنا بالفساد، يُحْدِثُ الفسادَ في حياتنا كعقوبة، وهذه العقوبة ليست على كل أعمالنا، هو يعاقبنا فقط على بعض أعمالنا رحمة بنا: (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا).

فبرحمة من الله عز وجل بعباده يُحدث الفسادَ في حياتهم ليعاقبهم على بعض معاصيهم، ليس بُغضا لهم وإنما حُبا لهم أن يرجعوا إليه ويتركوا معصيته حتى لا يتعرضوا لسخطه وانتقامه، (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)؛ فهو يريدهم أن يتوبوا إليه ويرجعوا إلى رحاب طاعته ويستغفروه، فإذا تابوا واستغفروا وتركوا ما هم فيه من المعاصي رفع الله عز وجل هذا الفساد الذي وقع في حياتهم.

فلا سبيل لارتفاع الفساد وزواله إلا أن يعود الناس إلى ربهم ويتوبوا إليه ويستغفروه من ذنوبهم ومعاصيهم التي كانت سببا في معاقبته لهم بإحلال الفساد في حياتهم. لكن هل يرجع العباد إلى ربهم سبحانه وتعالى؟

الرجوع الفردي موجود في كل زمان ومكان، ولكن الرجوع الجماعي نادر جدا، ربما انفرد بذلك قوم يونس عليه السلام فقط، لكن لم يذكر القرآن ولم تذكر السنة ولم يذكر التاريخ أن أمة انحرفت وذهبت بعيدا في المعصية ثم رجعت، ولذلك كانت سنة الله عز وجل في الأمم السابقة التي تعصيه وتصر على عصيانه أن يبيدها جملة، كما حدث لقوم نوح وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح الذي أبادهم جميعا لما تمكنت منهم المعصية ولم يعد يرجى منهم الإقلاع عنها أو التوبة منها.

لكن أمتنا أمة محمد صلى الله عليه وسلم، اختصها الله بألا يبيدها، حيث استجاب لطلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ألا يبيد أمته بسنة عامة، قال عليه الصلاة والسلام: (سأَلْتُ ربِّي لِأمَّتي ألَّا يُهلِكَها بسَنةٍ عامَّةٍ، وألَّا يُسلِّطَ عليهم عدوًّا مِن سوى أنفسِهم فيَستبيحَ بَيْضَتَهم، فإنَّ ربِّي قال: يا مُحمَّدُ إنِّي إذا قضَيْتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيكَ لِأمَّتِكَ ألَّا أُهلِكَهم بسَنةٍ عامَّةٍ وألَّا أُسلِّطَ عليهم عدوًّا مِن سوى أنفسِهم فيستبيحَ بَيْضَتَهم ولو اجتَمَع عليهم مِن أقطارِها أو قال: مَنْ بَيْنَ أقطارِها حتَّى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضًا ويَسبي بعضُهم بعضًا) [صحيح ابن حبان]. واستجابة الله عز وجل دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم دليل على حبه له، وحبه لهذه الأمة التي اختارها لتحمل رسالته الخاتمة إلى الناس كافة: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: 143].

فالخير في هذه الأمة موجود ومتواصل، والأمل في رجوعها إلى الله قائم، وهذا إنما يبدأ من كل فرد في هذه الأمة الذي هو مسؤول أن يرجع إلى الله فيما بينه وبين نفسه، وأن يشجع غيره على الرجوع إلى الله والتوبة إليه، ولذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة في هذه الأمة، لكي يبقى الخير دائما فيها: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: 110]، فمهما يقع في الأمة من انحراف ومهما يظهر فيها من الفساد إلا أن الخير فيها باق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمتي كالمطر، لا يُدرى الخير في أوله أم في آخره) [مسند الإمام أحمد]

من هدي الشهر الفضيل

الصيام سبيل لتحقيق التقوى والسكينة



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

الصيام أحد أركان الإسلام الخمسة التي نص عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه النبوي الشريف الذي رواه عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ) [رواه البخاري ومسلم. وقد جاء التأكيد على فرضية الصيام في كتاب الله، في قوله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: 183].

والصيام الذي هو الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة والمباحة طيلة أيام شهر رمضان، ليس الغرض من تشريعه أن يجوع المسلم أو يعطش أو أن يتحمل المشاق، فهذا ليس مقصود الشارع الحكيم من فرض الصوم، ولا هو الغاية من تشريعه، فالله عز وجل ليس له حاجة في جوعنا أو عطشنا او تعبنا، وإنما شرع الله عز وجل لنا هذه الفريضة لمقصد عظيم، هذا المقصد يعود علينا نحن المؤمنين بالخير والبركة والرحمة والقرب من الله عز وجل، هذا المقصد هو تحقيق التقوى: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

فالله عز وجل شرع لنا الصيام ليربينا ويدربنا على التحقق بالتقوى، لأن التقوى هي مفتاح الجنة، فهي الزاد الذي إذا حمله الإنسان معه من الدنيا إلى الآخرة كان حريا أن ينجو من عذاب النار وكان جديرا أن يكون من أهل الجنة، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة: 197]. فأفضل ما يتزود به المؤمن لآخرته هو أن يتقي الله، بأن يهذب نفسه ويربيها ويطهرها ويحملها على تقوى الله عز وجل.

وقد جاء الأمر بالتقوى في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل، منها قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران: 102]، ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) [الأحزاب: 70]، ومنها قوله عز وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة: 119]، ومنها قوله تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [الحشر: 18].

فما هي التقوى؟

التقوى هي طاعة الله عز وجل فيما أمر بأن تفعله وتأتيه، وفيما نهى عنه بأن تتركه وتجتنبه وتبتعد عنه، عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء – رحمةً لكم غير نسيان – فلا تبحثوا عنها) [حديث حسن، رواه الدارقطني وغيره]، وبقوله عليه الصلاة والسلام: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم) [رواه البخاري ومسلم]. فالتقوى هي تعويد النفس على الطاعة بفعل الأوامر واجتناب النواهي، أو هي التحقق بالخوف من الله عز وجل، لأن من خاف الله سبحانه وتعالى حرص على فعل ما أمره به وعلى ترك ما نهاه عنه.

والخوف من الله لا يكون إلا من المؤمن، قال تعالى: (وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [آل عمران: 175]، لأن غير المؤمن لا يعرف الله، ولذلك لا يخافه ولا يتقيه، بينما المؤمن الذي يعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا يخافه سبحانه وتعالى ويخشاه ويحرص على مرضاته واجتناب غضبه، هذا المعنى للتقوى الذي هو الخوف من الله والمسارعة في فعل أوامره واجتناب نواهيه، يجب على المؤمن أن يدرب عليه نفسه وأن يُدير حياته كلها عليه، فهو مطالب بالتحلي بالتقوى في مختلف مراحل حياته وفي جميع مناشطه، ولا يجوز له أن يتخلى عن هذا الوصف ما دام حيا حتى يأتيه أجله.

وبما أن الإنسان ضعيف، كما وصفه ربه سبحانه وتعالى في قوله: (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا) [الإنسان: 28]، فإن الإنسان لا يستطيع بنفسه أن يحافظ على مستوى واحد من التقوى دائما وهو المستوى الأعلى، فهو يضعف أمام أعدائه، حيث تغلبه نفسه أحيانا، ويغلبه الشيطان أحيانا، وتغريه شهوات الدنيا أحيانا، بحيث يختل مستوى التقوى في حياته، ويضعف مردوده، فيحتاج إلى وسائل تعينه على المحافظة على أعلى مستوى من التقوى، بحيث لا يفقد تقواه ولا يفقد خوفه من الله عز وجل، فشرع الله عز وجل له من الوسائل ما يعينه على التقوى وعلى المحافظة عليها.



من بين هذه الوسائل بل ومن أهمها: الصيام.

والصيام ليس قاصرا على الكف عن المفطرات الحسية من أكل وشرب وشهوة فحسب، وإنما هو الإمساك عن كل المفطرات حسية كانت أو معنوية، ولذلك فمن يصوم فقط عن الأكل والشرب والمفطرات الحسية في حين يرتكب المفطرات المعنوية، صيامه لا فائدة منه، فالصائم الذي لا يمسك لسانه عن الغيبة والنميمة والقول الفاحش والكلام فيما لا ينفع، أو لا يمسك أذنه عن سماع ما لا يرضي الله، أو لا يمسك عينه ولا يغض بصره عن الامتداد إلى ما حرم الله، أو لا يمسك يده أن تتناول ما لا حق له فيه، أو لا يمسك رجله أن تمشي إلى موضع يُعصى فيه الله، فهذا في الحقيقة يتعب نفسه بالجوع والعطش فقط ولا أجر له عند الله عز وجل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَن لم يدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به، فليسَ للهِ حاجةٌ بأن يدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ) [رواه الترمذي وغيره].

فالصيام: صيام القلب، وصيام العقل، وصيام اللسان، وصيام البطن، وصيام الفرج، وصيام العين، وصيام الأذن، وصيام اليد، وصيام الرجل، وصيام كل جوارح الإنسان.

الصيام يوفر للإنسان الجو الذي يمكنه معه أن يحقق التقوى، فإذا لم يستغل هذا الجو ولم ينتفع به في تربية نفسه وتهذيبها وحملها على طاعة الله عز وجل، فلن يحقق التقوى، وبالتالي فإنه لن يحقق المقصود من الصيام، وإذا لم يحقق الإنسان التقوى بتهذيب نفسه وتحسين أخلاقه وتطهير قلبه وتهذيب سلوكه والابتعاد عن المحرمات فإن أي عمل يقوم به هو تعب فقط، وهذا ليس في الصيام فحسب وإنما في كل فرائض الإسلام وفي سائر شرائعه. ففي الصلاة مثلا يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"، ذلك أن الصلاة التي لا تهذب نفس صاحبها ولا تدربه على التقوى والورع والخوف من الله عز وجل ولم تحسن أخلاقه في التعامل مع الناس هي صلاة لا قيمة لها ولا نفع فيها، ولعل ذلك هو المعنى المستفاد من قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) [قريش: 4-7]. فعلينا أن نستغل هذه الفرصة الثمينة، فرصة شهر رمضان وأداء فريضة الصيام، في التدرب على طاعة كل أوامر الله واجتناب كل نواهيه، فهذه هي الغاية من فرض الصيام ومن تشريع كل فرائض الإسلام.

رمضان شهر الخير

الصيام والقرآن شفيعان يوم القيامة



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

بين الصيام والقرآن علاقة وثيقة. فكلاهما يرتبط بشهر رمضان، وقد قرن الله عز وجل بينهما في قوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]. فهذه الآية جمع الله فيها بين خاصيتين من خصائص شهر رمضان: الأولى، أنه أنزل فيه القرآن، والثانية، أنه فرض فيه الصيام.

وجاء في الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمامان أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: "الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامَة، يقولُ الصيامُ: أي ربِّ إنّي منعتُهُ الطعامَ والشهواتِ بالنهارِ فشفِّعني فيه. يقولُ القرآنُ: ربِّ منعتُهُ النومَ بالليلِ فشفِّعني فيه، فيُشفَّعانِ".

فإذن بين القرآن والصوم رابطة متينة؛ حيث إن الصيام ركن عظيم من أركان الإسلام التي لا يصح إسلام المرء إلا بها. والقرآن هو كتاب الله عز وجل الذي أنزله على هذه الأمة لتعمل به وتهتدي بما فيه من أحكام ومواعظ ونصائح وتوجيهات وتربية وتهذيب وتقويم. وكلاهما مرتبط بشهر رمضان.

ما الحكمة من الربط بين الصيام والقرآن؟

الصيام يهذب النفس ويربيها ويعلم الصبر ويصفي العقل ويدرب الإنسان على التقوى وعلى الخوف من الله عز وجل وعلى مراقبته سبحانه وتعالى. فالإنسان عندما يكون صائما يكون قريبا من الله عز وجل ويكون الله عز وجل راضيا عنه لأنه استجاب لأمره وصبر على طاعته وامتنع عن معصيته وطلب الثواب والأجر منه، فيكون قريبا منه سبحانه وتعالى. وهذا ما يحتاجه الإنسان عندما يقرأ القرآن.

والقرآن كلام الله سبحانه يسره للذكر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، لكن لا يستطيع أن يُقبل على القرآن ولا أن يتدبره ويفهمه ويعمل به إلا من كان قريبا من الله عز وجل. فالإنسان الذي يعصي الله ويغضبه ولا يبتغي مرضاته يكون بعيدا عن الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع أن يقرأ القرآن، وإذا قرأه لا يفهمه ولا يستفيد منه شيئا، لأن القرآن كلام الله، وفهم كلام الله لا يُعطى إلا لمن يتقي الله ويخشاه ويحرص على مرضاته. وهذا ما جاء التأكيد عليه في القرآن نفسه وتعالى: ﴿الم. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 1-5].

فالقرآن يسر الله عز وجل قراءته وتدبره وفهمه والعمل به لمن يحبه ويرضى عنه ويكون قريبا منه بحرصه على طاعته فيما أمر به وتركه ما نهى عنه. هذا هو الذي يكون مرشحا لقراءة القرآن وفهمه والعمل به. والصيام يُمكّن الإنسان من هذا، ذلك أن الإنسان عندما يكون صائما تكون رقابته لله عز وجل قوية، لأنه يخاف أن يفسد صيامه بالمعصية، بالجوارح كانت أو بالقلب أو باللسان. فيكون حريصا على مرضاة الله عز وجل.

والصيام الذي يحقق هذا المعنى هو الصيام المطلوب شرعا، حيث يهيئ صاحبه لأن يكون مؤهلا لقراءة القرآن وفهمه وتدبره. فعلينا أن نستحضر هذه العلاقة الوثيقة بين الصيام والقرآن.

قراءة القرآن مطلوبة دائما وفي رمضان أكثر

وقراءة القرآن مطلوبة دائما وفي رمضان تكون مطلوبة أكثر. ولذلك يصلي المؤمنون التراويح، ويحرصون فيها على ختم القرآن. ولا يكتفون بهذا، وإنما المطلوب من كل منهم؛ أن تكون له علاقته الخاصة بالقرآن، بأن يقرأ لوحده وأن تكون له ختمه على الأقل لكتاب الله في رمضان.

فالقرآن إنما أنزله الله ليُقرأ ويُفهم ويُعمل به. فإذا لم نقرأه ولم نتعلم ما فيه من أحكام ولم نستفد مما فيه من قصص ولم نتذكر به الآخرة وما سيكون فيها من مواقف ومن حساب ومن صراط ومن جنة ومن نار، فإننا نكون قد عطلنا هذا الكتاب عن أداء وظيفته في حياتنا ونكون قد هجرناه واتخذناه ظهريا، والعياذ بالله، ويخشى علينا أن نكون ممن تشملهم الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]. إن شهر رمضان فرصة عظيمة يجب على كل مسلم أن يستغلها في قراءة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ذلك أن شهر رمضان يهيئ الجو المعين على القراءة ولا يجوز لنا أن نضيع هذا الشهر دون أن يكون لنا فيه علاقة وصلة وصحبة بالقرآن. فإذا كان المسلم يضيع أوقاته في الفراغ والبطالة والاشتغال بما لا نفع له فيه، دون أن يكون له ارتباط بكتاب الله ولو بقراءة ما تيسر منه كل يوم، فإنه يكون بعيدا عن الله. فكيف يرجو الشفاعة يوم القيامة؟. يوم القيامة سنأتي جميعا وكل واحد منا سيكون بحاجة إلى حسنات تنجيه من النار وتدخله الجنة. وسيكون ما يأتي به كل واحد منا قليلا مهما كثر، فنحتاج إلى ما يشفع لنا عند الله سبحانه وتعالى، وإذا لم نهيئ وسائل الشفاعة فكيف سيكون موقفنا وكيف سيكون مصيرنا وكيف سنقابل ربنا سبحانه وتعالى؟.

من بين ما يشفع لك أيها العبد يوم القيامة: قراءة القرآن. قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "اقْرَؤوا القُرْآنَ، فإنَّهُ يَأْتي يَوْمَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ" [رواه مسلم]. والقراءة مطلوبة في كل وقت، لكنها مطلوبة أكثر في أوقات الصفاء، ومنها آخر الليل وقت السحر حيث يُندب التهجد بالقرآن والصلاة به وقراءته. قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: 79]. وكذلك الصيام: فهو يشفع لصاحبه عند الله يوم القيامة. فمن كان عنده في الدنيا صيام فريضة ونافلة، وكان عنده ارتباط بالقرآن في حياته، فهما يكفيانه ويشفعان له عند الله. علينا إذن أن نستحضر هذه الرابطة الوثيقة والعلاقة المتينة بين شهر رمضان من جهة وفريضة الصيام وقراءة القرآن من جهة ثانية. فشهر رمضان مناسبة كريمة وفرصة عظيمة يجب على كل مؤمن أن يستثمرها ويستغلها في أن يصوم صياما مبرورا خالصا لله منزها عن المعاصي، وأن تكون له صحبة لكتاب الله في هذا الشهر بالقراءة والتدبر والتفهم والتعلم والتعبد والعمل بما فيه من أحكام شرعية. إذ لا يمكن للإنسان أن يحقق التقوى إلا بحسن الصيام وحسن قراءة القرآن وحسن الصلة بالله عز وجل.

في رمضان الكريم

هدي النبي صلى الله عليه وسلم



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان حال خاصة تتميز عن أحواله في بقية شهور العام.

وبما أنه صلى الله عليه وسلم قدوتنا وإمامنا كما بيّن لنا ربنا في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: 21]. وفي قوله سبحانه: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [آل عمران: 31]. فقد وجب علينا أن نعرف ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليه من الأعمال في هذا الشهر حتى نستن بسنته ونهتدي بهديه فيه.

السحور وتأخيره:

من بين ما كان يحرص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: التسحر قبل الصيام، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «تسَحَّرُوا؛ فإنَّ في السَّحورِ بَرَكةً» [رواه البخاري ومسلم]، أي أن المؤمن ينبغي عليه أن يحرص على السحور بأن يتناول شيئا من الطعام قبل بدء وقت الصيام ليتقوى به على أداء الفريضة وعلى العمل في شؤونه الدنيوية طيلة النهار. وكان من هديه عليه الصلاة والسلام أن يؤخر السحور إلى وقت الإمساك. عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ زَيدَ بنَ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه حدَّثَه أنَّهم تسَحَّروا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ قاموا إلى الصَّلاةِ، قلتُ [أي أنس]: كم بينهما؟ قال: قَدْرُ خمسينَ آيةً. ولذلك فإن الذين لا يتسحرون أو يتسحرون عند منتصف الليل ثم ينامون ولا يستيقظون للسحور، هؤلاء يخالفون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يخسرون البركة التي أخبر عنها عليه الصلاة والسلام. فينبغي على المؤمن أن ينام بعد صلاة التراويح وأن يقوم للسحور في آخر الليل، فيتسحر ويقرن نهاية السحور بموعد الإمساك ثم يتهيأ لصلاة الفجر، وهذا عملا بقول الله عز وجل: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) [البقرة: 187]. كما كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أن يتسحر بالتمر، ويقول: «نِعْمَ سَحورُ المؤمنِ التَّمرُ» [رواه أبو داود وابن حبان].

تعجيل الإفطار:

أي المسارعة إلى الإفطار بعد تمام غروب الشمس، فالله تعالى يقول: (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) [البقرة: 187]، والليل يبدأ عند التحقق من تمام غروب الشمس، وهنا ينبغي للمؤمن أن يفطر ولا يؤخر الإفطار، لأن تأخير الإفطار فيه مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يَزَالُ النَّاسُ بخَيْرٍ ما عَجَّلُوا الفِطْرَ» [رواه البخاري].
كما كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم: الإفطار قبل صلاة المغرب، والإفطار ليس هو تناول العشاء، وإنما هو إنهاء الصيام بتناول رطبات أو تمرات أو شرب شيء من الماء، ثم الصلاة، ثم تناول العشاء، قال أنس رضي الله عنه: «كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يُفطرُ علَى رُطَباتٍ قبلَ أن يصلِّيَ، فإن لم تَكن رُطَباتٌ فعلى تَمراتٍ، فإن لم تَكن حَسا حَسَواتٍ من ماءٍ» [رواه أبو داود].

الدعاء عند الإفطار:

كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: الدعاء عند الإفطار، وقد وردت عنه عليه الصلاة والسلام أدعية عديدة كان يقولها عند الإفطار، من ذلك أنه كان يقول: «ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». [أخرجه أبو داود والنسائي]. فينبغي للمؤمن أن يحرص على الدعاء عند فطره، ولا يترك ذلك تهاونا وتساهلا، وليدعُ بما يشاء مما هو خير وبر وطاعة لله عز وجل، ففي ذلك عمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن للصائم عند فطره لدعوة ما تُرد» [رواه الترمذي].

الصلاة بالليل:

مما كان من هديه صلى الله عليه وسلم كذلك في رمضان: الصلاة بالليل، وهي المعروفة بصلاة التراويح، فأول من بدأ هذه الصلاة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَرَجَ لَيْلَةً مِن جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى في المَسْجِدِ، وصَلَّى رِجَالٌ بصَلَاتِهِ، فأصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمع أكْثَرُ منهمْ فَصَلَّى فَصَلَّوْا معهُ، فأصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أهْلُ المَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَصَلَّى فَصَلَّوْا بصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عن أهْلِهِ، حتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الفَجْرَ أقْبَلَ علَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: «أمَّا بَعْدُ، فإنَّه لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، ولَكِنِّي خَشِيتُ أنْ تُفْتَرَضَ علَيْكُم، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»، فَتُوُفِّيَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والأمْرُ علَى ذلكَ. [رواه البخاري].
فهذه الصلاة سنة نبوية شريفة سار عليها الخلفاء الراشدون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكت بها الأمة عبر مراحل تاريخها وحرصت عليها أجيالها المتتابعة، فينبغي لكل مؤمن أن يجتهد في إقامتها ولا يتركها إلا لعذر. وكان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة التراويح: أن يصلي إحدى عشرة ركعة، قالت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: «مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا» [رواه البخاري ومسلم].

كثرة الصدقة:

ومما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليه ويدعو إليه في رمضان: كثرة الصدقة والبذل والعطاء، فقد أخرج الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أفضل الصدقة صدقة في رمضان»، لأنه في رمضان تضاعف الأعمال، فإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها في سائر الشهور، ففي رمضان تكون مضاعفة بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وذلك لأن الأعمال الصالحة في رمضان مقترنة بالصيام، والله عز وجل يقول في الحديث القدسي: «كلُّ عملِ ابن آدمَ له إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به» [متفق عليه]، فلم يبين سبحانه وتعالى أجر الصيام، وهذا دليل على أنه أجر عظيم جدا، وقد أخفاه عن الناس حتى يحرصوا على الاستكثار منه. فالأعمال المرتبطة بالصيام مثل الصدقة والدعاء والصلاة كلها أجورها مضاعفة بفضل الله.
ولذلك كان من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان: التفنن في الإكثار من الصدقات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة" [متفق عليه].
فجدير بكل مؤمن في هذا الشهر الكريم أن يتفقد إخوانه المساكين والمحتاجين فيسأل عنهم ويعطيهم ويتشارك معهم ويدخل الفرح والسرور على نفوسهم بما تفضل الله به عليه، وهذا عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتداء به فيما كان يحرص عليه من الخير والبر.

اجتمعت وتيسرت في رمضان

أربعُ خِصَال تُفتَح بها أبوابُ الجِنَان



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

روى الإمام الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي: «إنّ في الجنّة غرفًا ترَى ظهورَها من بطونها وبطونَها من ظهورها». فقامَ أعرابيٌّ فقالَ: لمَن هيَ يا رسولَ الله؟ فقالَ: «لمَن أطابَ الكلامَ، وأطعمَ الطّعامَ، وأدامَ الصّيامَ، وصلّى بالليل والنّاسُ نيامٌ».

في هذا الحديث، يخبر النبي المؤمنين أن في الجنة غرفا أو بيوتا يسكنها المؤمنون الذين يُنعم الله عز وجل عليهم بدخول الجنة. هذه البيوت حيطانها شفافة تماما، بحيث أن من كان خارج الغرفة يرى ما بداخلها، ومن كان داخل الغرفة يرى ما بخارجها. وهذا من النعيم الذي سيُنَعِّمُ الله عز وجل به عباده المؤمنين، وهي غرف لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى كيف هي، وما خُلقت منه، وما اتساعها، وما محتوياتها. وقد جاء في الحديث القدسي: «قالَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ» [رواه البخاري]. وإن كان قد ورد في السنة النبوية الشريفة شيء من وصف مساكن أهل الجنة، من ذلك قوله: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة، طولها في السماء ستون ميلا» [متفق عليه]... أحد الصحابة بعد أن سمع هذا الخبر من النبي تساءل قائلا: لمن هي يا رسول؟ أي: من هم المؤهلون لأن يحصلوا على هذه الغرف ويملكوها ويتنعموا فيها؟ كان جواب رسول الله: «لمن أطابَ الكلامَ، وأطعمَ الطّعامَ، وأدامَ الصّيامَ، وصلّى باللّيل والنّاسُ نيامٌ». فهذه أربع خصال من أعمال الخير والبر، إذا فعلها المؤمن كان جديرا أن يكون من الفائزين بهذه الغرف. وهذه الخصال قد لا يتيسر اجتماعها لكل مؤمن في سائر شهور العام، لكن اجتماعها ممكن ومتيسر في شهر رمضان.

طيب الكلام

أول هذه الخصال: طيب الكلام، أي أن يكون كلام الإنسان طيبا، فيه خير وبر، وليس فيه سفاهة ولا بذاءة، كلام يرضي الله عز وجل ولا يغضبه، عملا بأمر الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) [الأحزاب: 70]، وبتوجيه النبي: «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ» [متفق عليه]. فالمؤمن الصادق الذي يخاف الله ويرجو رضوانه لا يقول من الكلام إلا ما كان خيرا. ويقول الرسول: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ» [متفق عليه]. والكلام الطيب مطلوب أكثر في رمضان، لقول الرسول: «إذَا كانَ يَوْمُ صَوْمِ أحَدِكُمْ فلا يَرْفُثْ ولَا يَصْخَبْ، فإنْ سَابَّهُ أحَدٌ أوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ» [رواه البخاري]. فالمؤمن الصائم مهما يكن الظرف الذي قد يجد نفسه فيه صعبا، لا ينبغي له أن يقول كلاما سيئا أو بذيئا أو فاحشا، حتى لو ظلم واعتُدي عليه فلا ينبغي أن يقول كلاما يغضب الله وإنما عليه أن يقول: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [آل عمران: 173].

إطعام الطعام

الخصلة الثانية المؤهلة لاستحقاق الغرف في الجنة هي: أن يعطي المؤمن إخوانَه المؤمنين المحتاجين ما يطعَمونه، بأن يهديهم طعاما، أو يشتري لهم طعاما، أو يعطيهم مالاً يشترون به طعاما. وإطعام الطعام من أسباب دخول الجنة، كما جاء في الحديث الآخر: «أَفْشوا السّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطّعَامَ، وَصَلُّوا باللَّيلِ وَالنّاسُ نِيامٌ، تَدخُلُوا الجَنّةَ بسَلامٍ» [رواه الترمذي].

وقد وصف الله عز وجل عباده المتقين بأنهم (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً × إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً) [الإنسان: 8-9]. وبين رسول الله مكافأة المؤمن الذي يطعم أخاه المؤمن الجائع فقال: «أيّما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة» [رواه أبو داود]. وفي تفطير الصائم وإطعامه، ورد حديث النبي ﷺ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا» [رواه الترمذي].

المداومة على الصيام

الخصلة الثالثة هي إدامة الصيام. والصيام في رمضان مفروض يجب فعله، لكنه في سائر الشهور مندوب يحسن بالمؤمن فعل ما أمكن منه، وقد شرع لنا رسول الله أن نصوم من كل أسبوع يومين هما الإثنين والخميس، ومن الشهر ثلاثة أيام هي الأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ومن السنة الأيام الفاضلة ومواسم الخير، مثل ست من شوال ويوم عرفة لغير الحاج وصيام شهر محرم. فالمؤمن الذي يداوم على صيام هذه الأيام يكون ممن يستحقون هذه الغرف. وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: قلتُ: يا رسولَ اللهِ مرني بعمل. قال «عليكَ بالصّوم فإنّهُ لا عدلَ لَه». قلتُ يا رسولَ اللهِ مرني بعمل، قالَ: «عليكَ بالصّوم فإنّهُ لا عدلَ لَه» [أخرجه النسائي]. فليس هناك عمل ينال عليه الإنسان المؤمن من الأجر والثواب مثل الصيام، وما ذلك إلا لأن الصوم يرقق القلب ويطهر النفس ويدخل الرحمة إلى قلب الإنسان ويشعره بحاجة المحتاجين وضعف المساكين.

قيام الليل

وأما الخصلة الرابعة فهي قيام الليل، وقد سن لنا رسول الله في رمضان أن نقوم الليل، فقال: «إنّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانَ عَلَيْكُمْ وَسَنَنْتُ لَكُمْ قِيَامَهُ، فَمَنْ صَامَهُ وَقَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [رواه النسائي]. والسنة في رمضان في قيام الليل هي صلاة التراويح، لكن صلاة التراويح هي الحد الأدنى الذي ينبغي لكل المؤمنين أن يحرصوا عليه، إلا أن المؤمن المجتهد الحريص أكثر على التقرب إلى الله عز وجل والمنافسة في الخيرات والسبق إلى الجنة، يحرص على الازدياد من الأجر والثواب بقيام الليل، فيستيقظ وقت السحر ويصلي ما أمكنه من الركعات ويقرأ ما تيسر من كتاب الله. وقد مدح الله عز وجل المؤمنين الذي يقومون الليل، فقال في ذكر صفات عباده المتقين: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) [الفرقان: 64]، ووصفهم بأنهم (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [السجدة: 16]، وبأنهم (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ × وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات: 17-18]. ولذلك كان من دأب رسول الله قيام الليل، فكان يصلي بالليل حتى تتشقق قدماه من طول وقوفه عليهما، عن عائشة رَضي الله عنها أنّ النّبيّ كَانَ يقُومُ مِنَ اللّيْلِ حتّى تتفطّرَ قَدمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تصنَعُ هَذَا يَا رسولَ الله، وقدْ غفَرَ اللهُ لَكَ مَا تقدّمَ منْ ذَنبكَ وَمَا تأخَّرَ؟ قَالَ: «أفَلاَ أُحبُّ أنْ أكُونَ عبْداً شكُوراً؟» [متفقٌ عَلَيه]. وحث رسول الله على قيام الليل وبين فضله وثوابه، فقال: «عليكمْ بقيامِ الليلِ فإنّه دأبُ الصالحينَ قبلكمْ، وقربةٌ إلى الله تعالى، ومنهاةٌ عن الإثم، وتكفيرٌ للسيئات» [رواه الترمذي وأحمد]. وقال: «أفْضَلُ الصّلَاةِ بَعْدَ الصّلَاةِ المَكْتُوبَةِ: الصّلَاةُ في جَوْفِ اللّيْلِ» [رواه مسلم]. هذه الخصال الأربعة يمكن للمؤمن أن يجمعها في هذا الشهر الفضيل، فهو مناسبة عظيمة أعدها الله لعباده المؤمنين وجعلها مجالا للتنافس في البر والتقوى والمسارعة في الخيرات، لذلك فالعاقل من يحمل نفسه على الازدياد من الطاعات والاستكثار من الخيرات، حتى ينال مرضاة الله ويكون من المؤهلين لسُكنى الغرف في أعالي الجنان يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الحاجة إليها في رمضان أشدّ

وصية نبوية جامعة لخيْرَي الدنيا والآخرة



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

روى الإمام الترمذي عن معاذ بن جبل وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتَّقِ اللَّه حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [رواه التِّرمذيّ وقال: حديث حسنٌ].

هذه وصية عظيمة أوصى بها رسول الله صلى الله وسلم صحابته، وهي وصية لا يستغني عنها أي مسلم في كل زمان وفي كل مكان، وإذا كان المسلم يحتاج إلى هذه الوصية في سائر أيام بقية شهور السنة، فهو في أيام شهر رمضان الفضيل أشد حاجة إليها وإلى العمل بها. هذه الوصية جمع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم خيري الدنيا والآخرة، بحيث إذا عمل بها المسلم صلحت علاقته بربه، وصلح حاله في نفسه، وصلحت علاقته بالناس، وبذلك يعيش سعيدا في الدنيا ويكون من الناجين من النار والمنعمين في الجنة يوم القيامة.

تتكون الوصية من ثلاثة بنود، البند الأول يتعلق بإصلاح علاقة الإنسان بربه سبحانه وتعالى، والبند الثاني يتعلق بإصلاحه هو في ذاته في علاقته بنفسه، والبند الثالث يتعلق بإصلاح علاقته بالناس من حوله. فالمسلم مطالب بأن يصلح علاقاته الثلاث إذا أراد السعادة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة.

«اتق الله حيثما كنت»

أي: مهما كان الحال الذي أنت فيه، ومهما كان المكان الذي توجد فيه ومهما كانت الوظيفة التي تؤديها في الحياة، ومهما يكن حالك من الصحة أو المرض، أو من القوة أو الضعف، أو من الغنى أو الفقر، فعليك أن تتقي الله.

و«اتق الله»، معناها: راقب الله عز وجل في كل أقوالك وتصرفاتك، استحضر أن الله سبحانه وتعالى يراك، ويرى كل ما تفعله، ويسمع كل تقوله، ويعلم كل ما تخفيه في نفسك، وإذا عرفت أن الله مطلع على كل ما تفعله أو تخفيه، ويحصي عليك كل أقوالك وأفعالك، وأنه سيحاسبك على كل كبيرة وصغيرة: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ × وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: 7-8]، إذا عرفت كل هذا فيجب عليك أن تتقي الله، لأنك إذا لم تتق الله ولم تخفه ولم تحسب حسابا لعذابه وعقابه فأنت تستهين بالله ولا تقدره عز وجل حق قدره. اتق الله معناها: خَف الله عز وجل، وضع في حسابك أن كل فعلٍ أو قول سيحاسبك الله عليه. فإذا أردت أن تصلح علاقتك بربك سبحانه وتعالى، وأن يرضى الله عز وجل عنك، وإذا أردت أن تنجو من غضب الله وعقابه، فعليك بتقوى الله وإصلاح علاقتك به سبحانه وتعالى في كل أحوالك.

«وأتبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها»

الإنسان في هذه الحياة معرض للأخطاء، بارتكاب الذنوب والمعاصي، معرض لأن يخطئ بيده أو برجله أو بعينه أو بأذنه أو بلسانه أو بقلبه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ بني آدم خَطَّاء» (رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم)، وما ذلك إلا لأن الإنسان ضعيف بخلقته، كما أخبر خالقه عز وجل: (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا) [النساء: 28]، فهو ضعيف أمام الشهوات والمغريات والملذات، تغره نفسه، يخدعه الشيطان، تغويه الدنيا. والعيب ليس في الخطأ بحد ذاته، وإنما العيب في الاستمرار فيه والإصرار عليه ومواصلة ارتكاب المعاصي والذنوب، ولذلك فالواجب على المؤمن إذا أخطأ: أن يتوقف عن الخطأ وأن يندم عليه ويستغفر الله منه ويتوب إليه عز وجل: «وخيرُ الخَطَّائِينَ التوابون».

والرسول صلى الله عليه وسلم يوجهنا إلى عدم الاكتفاء بمجرد الندم والتوبة، وإنما ينبغي علينا أن نقوم بعمل إيجابي يتمثل في عمل حسنة تمحو أثر السيئة المرتكبة، فلا بد من القيام بعمل من أعمال الخير نصحح به الخطأ ونمحو به أثر المعصية، وإذا كان المؤمن في كل مرة يرتكب معصية يعوضها بطاعة، فلا يبقى في كتابه سوى الحسنات والطاعات فيكون ممن قال الله عز وجل فيهم: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) [البينة: 8]. والحسنات أبوابها كثيرة لا تعد ولا تحصى، منها: إلقاء السلام، الابتسامة في وجوه الناس، الكلمة الطيبة، قضاء حوائج المحتاجين، الإصلاح بين المتخاصمين، إعانة من يحتاج إلى العون، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، الاستغفار، قراءة القرآن، الصلاة النافلة، السعي على الأرامل والمساكين، رعاية اليتامى، وغير ذلك من أعمال البر والخير التي نجد تفصيلها في الكتاب والسنة.

وبما أن السيئات تُرتكب بالجوارح، فيحسن بالمؤمن إذا ارتكب سيئة بإحدى جوارحه: أن يفعل الطاعة بنفس الجارحة، حتى يُعَوِّدَها على فعل الطاعات واجتناب المنهيات، فمن مشى إلى معصية برجليه يحسُنُ به أن يمحوها بأن يمشي بهما إلى طاعة، ومن ارتكب معصية بيده يحسن به أن يفعل طاعة بنفس اليد وهذا حتى تكون التوبة تامة، قال الله تعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ) [هود: 114].

«وخالق الناس بخلق حسنٍ»

هذا البند في الوصية مما يُصلح به الإنسان علاقته بغيره من الناس، ومعناه: عامل الناس بالأخلاق الحسنة ولا تعاملهم بالأخلاق السيئة، وحتى وإن عاملوك بالسوء فلا تعاملهم أنت بمثله وإنما عاملهم بما يليق بك كمؤمن وهو الخلق الحسن، والخلق الحسن هو أفضل ما يمتلكه المؤمن في هذه الحياة بعد الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» [رواه الترمذي]، إذ يبلغ المؤمن بحسن خلقه أعلى المراتب وأسمى المنازل، قال عليه الصلاة والسلام: «إن المؤمنَ ليُدْرِك بحُسْنِ خُلُقه درجةَ الصائم القائم» [رواه أبو داود]، وأكثر ما يدخل الإنسان الجنة حسن خلقه، قال صلى الله عليه وسلم: «أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنةَ تقوى الله وحُسنُ الخلق» [رواه الترمذي]. ويكفي دلالة على عظم مكانة حسن الخلق أن الله عز وجل مدح به نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: 4]. ونحن أحوج ما نكون إلى هذه الوصية النبوية «وخالق الناس بخلق حسن»، في هذا الشهر الفضيل، حيث نلاحظ أن كثيرا من الناس تسوء أخلاقهم وتصدر عنهم تصرفات لا تتناسب مع روحانية هذا الشهر الكريم وربانية هذا الموسم العظيم، فيتصرفون بعصبية زائدة، وإذا غضبوا ينطقون بكلام سيء وبذيئ، وبمجرد أن يخطئ في حقهم أحد ولو بدون قصد يواجهونه بالعنف اللفظي والجسدي، وهي كلها تصرفات وسلوكات تناقض التوجيهات القرآنية والنبوية، ولا يليق أن تصدر من مؤمن متلبس بعبادة عظيمة هي عبادة الصيام التي توجب على صاحبها أن يتحلى بالصبر وسعة الخاطر وتحمل أخطاء الآخرين وعدم الاستجابة لاستفزازاتهم، فقد جاء في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم للصائم: «إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ شَاتَمَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ» [متفق عليه]... فلا ينبغي للمؤمن أن يواجه العنف بالعنف، ولا الكلمة السيئة بمثلها، ولا التصرف الخطأ بخطإ مثله، وإنما ينبغي عليه أن يتمسك دائما بأخلاق الإسلام، وبذلك يعيش مرتاحا مع الناس، فلا تكون له عداوات، ولا يتبادل الأحقاد مع غيره ولا يخشى الناس منه، وهذا ما يجعلهم يقدرونه ويهابونه ويستحون منه ويعاملونه بمثل ما يعاملهم به.

وإنها لوصية عظيمة جديرٌ بكل مؤمن أن يعمل بها ويتخذها منهاجا يسير عليه في حياته، فهي كفيلة – بإذن الله عز وجل – أن تحقق له السعادة والطمأنينة في الدنيا، والنجاة من النار والفوز بالجنة في الآخرة.

لا غنى للمؤمن عنه في رمضان

الدعاء والصيام عبادتان متلازمتان



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

عبادة ذات أهمية بالغة في توثيق علاقة المؤمن بربه، أمرنا الله عز وجل أن نحرص عليها وأن نجتهد فيها في كل أيام العام، وأن نواظب عليها ونستمسك بها أكثر فأكثر في هذا الشهر بصفة خاصة، إنها عبادة الدعاء، والتي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدُّعاءُ هوَ العبادةُ» [رواه الترمذي].

اقتران الدعاء بالصيام

عندما نقرأ آيات الصيام في سورة البقرة والتي أخبر الله فيها عباده المؤمنين بوجوب الصيام عليهم، وبين لهم حكم صيام المسافر والمريض، والأحكام المتعلقة بالعلاقة الزوجية في رمضان، وغيرها، نجد وسط هذه الآيات آية يبدو – من حيث الظاهر– أنه لا علاقة لها بأحكام الصيام، لكن هذا يدعونا إلى التأمل والتساؤل: لماذا ربنا سبحانه وتعالى وسط آيات الصيام، يورد لنا حكما آخر لا يتعلق بالصيام، في قوله سبحانه وتعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [البقرة: 186]، فجاء أولا بأحكام الصيام ثم أورد هذه الآية ثم رجع إلى أحكام الصيام مرة أخرى: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ....) [البقرة: 187]، فهذه الآية التي تتعلق بالدعاء أدرجت وسط آيات الصيام.

ما ينبغي فهمه هنا أن من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المؤمن وأن يجتهد فيه مع صيامه؛ هو أن يكثر من الدعاء، والدعاء هو التضرع إلى الله سبحانه وتعالى والتوجه إليه بطلب خير الدنيا والآخرة.

فالله عز وجل يريد من عباده، وهم صائمون، وهم قائمون ليالي رمضان، أن يجتهدوا في التوجه إليه بالدعاء.

والدعاء عبادة تعرف الإنسان بحقيقته، وتذكره بحاجته إلى ربه، وأنه من دون الله لا شيء. هذه الحقيقة يتذكرها الإنسان حين يرتبط بالله عز وجل بالدعاء. ولذلك يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى أن ندعوه دائما، فالتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء واجب بصفة عامة: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: 60]، والمعنى أن الإنسان الذي لا يدعو الله عز وجل ولا يسأله ولا يتوجه بحاجاته إليه، فحاله كحال الكافر، لأن الكافر هو الذي يستغني عن ربه عز وجل وينسى موقف العبودية أمامه، فالمسلم الذي لا يدعو ولا يسأل الله عز وجل كأنه مستكبر على الله وغير محتاج إليه سبحانه وتعالى، ولذلك يُخشى عليه أن يكون من أهل النار..

الدعاء إظهار المؤمن حاجته إلى ربه

إن المؤمن بحاجة إلى ربه عز وجل في كل شيء وفي كل شأن، وهذه الحاجة لابد من إظهارها بالدعاء والسؤال: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، والإنسان يحقق فعلا موقف العبودية حين يدعو ربه ويسأله حاجته، فهو قد يصلي ولا يحقق موقف العبودية إذا كان يؤدي صلاته على سبيل العادة فقط، والكلام الذي يردده فيها لا يدرك معناه، لكن في الدعاء هو يمارس العبودية. فالصلاة إذا لم تكن مقرونة بالدعاء، تصبح هيكلا بلا روح، ولذلك أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ندعو في أثناء الصلاة، فقال صلى الله عليه وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» [رواه مسلم]، فلكي نحقق موقف العبودية ونستحضر الخشوع لابد من الدعاء. كذلك شرع لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعية ندعو بها بعد الصلاة، حتى يبقى موقف العبودية مستمرا.

وفي رمضان، سن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول عند الإفطار: «ذَهَبَ الظَّمأُ وابتلَّتِ العُروقُ وثبَتَ الأجرُ إن شاءَ اللَّهُ» [أخرجه أبو داود]، فهذا دعاء جميل، فيه استشعارٌ لنعمة الله وفضله، وطلبٌ منه عز وجل أن يديم هذه النعمة وهذا الفضل، وفيه امتنان لله سبحانه وتعالى بنعمته على عبده بما شرع له من الصيام، وبما أباح له من النعم بعد الصيام.

الدعاء عبادة مطلوبة لذاتها

والدعاء مطلوب لذاته، لا لهدف آخر، بمعنى أن المؤمن مطالب بأن يدعو الله عز وجل لأجل الدعاء، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن ندعوه وأن نسأله وأن نتوجه إليه وأن نتضرع إليه، سواء كانت الاستجابة أم لم تكن. لكن من فضل الله عز وجل أنه وعدنا بالاستجابة: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، فيقينا إذا دعوت يستجيب الله دعاءك، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا» [رواه أبو داود والترمذي]،

لكن هذه الاستجابة تكون كما يشاء الله لا كما يريد العبد، فقد يطلب العبد شيئا ويعطيه الله شيئا آخر، لأنه سبحانه وتعالى يعرف ما يصلح للعبد، أما العبد فهو لا يعرف، فقد يعتبر شيئا ما مصلحة له وهو في الحقيقة مفسدة ومضرة له، ولذلك لا يعطيه الله إياه إذا طلبه وإنما يعوضه بدلا منه شيئا آخر، أو يدفع عنه بلاء عظيما كان سيأتيه وهو لا يعرف فيصرفه عنه، لكن الاستجابة ستكون يقينا إذا وثق المؤمن في ربه وصدّق وعده له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ للعبد ما لم يَدْعُ بإِثْمٍ أو قَطيعَةِ رَحِم، ما لم يَستعجِلْ». قِيلَ: يا رَسولَ اللهِ، ما الاستعجالُ؟ قَالَ: «يقولُ: قدْ دَعَوْتُ وقدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عندَ ذلكَ، ويَدَعُ الدُّعَاءَ» [رواه مسلم].

ما ينبغي الدعاء به

ومما ينبغي أن يحرص عليه المؤمن؛ أن يدعو بخير، فالله عز وجل يستجيب الدعاء إذا كان خيرا، أما إذا كان شرا أو فيه عدوان على الغير أو فيه ظلم فإنه سبحانه وتعالى لا يستجيبه، بل إن هذا النوع من الدعاء محرم شرعا ولا يجوز، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يزَالُ يُسْتَجَابُ للعَبْدِ مَا لَم يدعُ بإِثمٍ، أوْ قَطِيعةِ رَحِمٍ» [متفق عليه]،

كما يجب أن يغلب على الدعاء طلب خير الآخرة، لأن الآخرة غير مضمونة، أما الدنيا فما كتب للإنسان فيها مضمون، فعندما يطلب الإنسان المال أو الجاه أو الولد، هذه كلها أمور مقدرة للإنسان قبل أن يولد، كما أنه عز وجل يقدر للإنسان الأمور الدنيوية بحسب ما هو مصلحة له، فالجانب الدنيوي مضمون، أما الجانب الأخروي فهو غير مضمون؛ النجاة من النار والفوز بالجنة غير مضمونين، والإنسان لا يدخل الجنة بعمله وإنما يدخلها بفضل الله وكرمه ورحمته، لأن الله سبحانه وتعالى لو حاسبنا بأعمالنا مقابل نعمه علينا، لكانت نعمة واحدة كافية بأن تذهب بالأعمال كلها، فالله عز وجل يعاملنا بكرمه، ولذلك يجب علينا أن نسأله سبحانه وتعالى من كرمه في الآخرة.

فالدعاء بخير الآخرة هو الأنفع والأفيد، لكن ليس عيبا أن يطلب الإنسان من ربه شيئا من خير الدنيا إذا كان حلالا وكان خيرا، والموقف الواجب على العبد هو التعامل مع ربه سبحانه وتعالى بالذل والإخبات والخضوع والتسليم والطاعة والإنابة، لأنه ربنا سبحانه وتعالى وخالقنا ورازقنا وحافظنا وساترنا. فلنجتهد في الدعاء، وخاصة في الليالي العشر الأخيرة من رمضان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما ندعو به: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» [أخرجه الترمذي].

لا يثبُتُ أجرُ الصائم إلا به

الاستغفار شعار المتقين الأبرار



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

الاستغفار دعاء، ولكنه دعاء خاص، فهو طلب المغفرة من الله عز وجل.. الاستغفار مطلوب شرعا حتى بدون ذنب، فليس من الضروري أن يقع الإنسان في ذنب لكي يستغفر.. الاستغفار من الذنب يسمى التوبة، إنسان ارتكب ذنبا وعرفه وأراد أن يطلب من الله المغفرة، فهذه توبة وإنابة. أما الاستغفار المطلوب شرعا فهو طلب المغفرة من الله حتى بدون أن يكون هناك ذنب، هذا الاستغفار مطلوب من المؤمن دائما باعتباره عبادة قائمة بذاتها يأجر الله عز وجل الإنسان عليها، لماذا؟

لأن الإنسان كما قال عنه ربه عز وجل: (وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا) [النساء: 28]؛ فالإنسان ضعيف ماديا ومعنويا، وهذا الضعف يجعله يقع في أخطاء كثيرة هي عند الله عز وجل ذنوب، ولكن الإنسان لا يعلم عنها شيئا، فلو أنه ترك الاستغفار لتراكمت عليه هذه الذنوب، ولذلك شرع لنا ربنا سبحانه وتعالى الاستغفار حتى نمحو هذه كبيرها وصغيرها التي لا ننتبه إليها ولا نعرفها.

الرسول سيد المستغفرين

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) [محمد: 19]، هل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرتكب ذنوبا بالمعنى الذي نفهمه نحن؟ فكيف يكون معصوما إذن؟ هو معصوم عن الذنوب، ومع ذلك يأمره الله عز وجل باستغفار ذنوبه (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)، فأي ذنب يستغفر منه الرسول صلى الله عليه وسلم؟ هو هذه الذنوب التي لا يعرفها الإنسان ولا يعتبرها ذنوبا.

فمثلا، الرسول صلى الله عليه وسلم، بسبب الاضطهاد الذي كان قومه يسلطونه عليه، ربما حدثته نفسه بترك الدعوة، فمجرد خطور هذا الخاطر ودورانه في النفس قد يكون عند الله ذنبا، مع أنه ليس ذنبا فعليا، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك الدعوة ولم يخضع لضغوط المشركين ولم يتسامح في شيء من دينه، ومع ذلك هو بشر، فهذه الخواطر قد تأتيه كما تأتي غيره، فيستغفر الرسول صلى الله عليه وسلم منها.

ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: "إنَّه لَيُغَانُ علَى قَلْبِي، وإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، في اليَومِ مِئَةَ مَرَّةٍ" [رواه مسلم]، ما معنى يُغانَ على قلبي؟ أي أنه يشعر بالضيق والهم، فكل إنسان أحيانا – وبدون سبب – يشعر بالضيق، يحس بأن روحه ستزهق بدون سبب واضح، فهذا الضيق الذي نشعر به جميعا وربما كل يوم في كثير من الأحيان، هذا الضيق لا ندري سببه، ما الذي يرفع هذا الضيق؟ هو اللجوء إلى الاستغفار، وهذا ما كان عليه حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحتى يدفع هذا الضيق، كان يلجأ إلى الاستغفار فيذهبه الله عنه.

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المحفوظ من كل الذنوب ما ظهر منها وما بطن، يأمره ربه عز وجل بأن يستغفر، فكان عليه الصلاة والسلام يستغفر، وفي حديث آخر يقول: "إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ" [رواه البخاري عن أبي هريرة].. فنحن أولى بالاستغفار وبأن نطلب من الله عز وجل في كل وقت أن يغفر لنا.

عبادة مطلوبة لذاتها

الاستغفار عبادة قائمة بذاتها، سواء كان هناك ذنب فعلي أم لم يكن هناك ذنب فعلي. وهذا الاستغفار مطلوب ليس فقط عند الوقع في الذنوب، ولكن حتى عند أداء العبادات، فقد شرع لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستغفر مباشرة بعد الخروج من الصلاة، فبمجرد أن يقول المصلي: السلام عليكم، عليه أن يقول: "أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" [رواه مسلم]، فأول كلام يقوله بعد التسليم من الصلاة هو أن يستغفر الله ثلاثا، لأنه لا يدري هل تقبل صلاته هذه أم لا، فربما لم يُقبل منه شيء منها، وربما لم يقبل منه نصفها أو ثلثها أو ربعها.

وكذلك الحال في الصيام، ينبغي على المؤمن أن يحرص على الاستغفار عند الإفطار، وعند السحور، وفي كل وقت من ليل أو نهار، حتى يُثَبِّتَ الله أجره ويتقبل عمله ويغفر له ما يرتكبه من أخطاء أثناء صيامه، وقد وصف الله عباده المتقين بأنهم (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ × وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات: 7–8].

الاستغفار، إذن، عبادة ينبغي لكل مؤمن أن يجتهد فيها دائما وفي كل وقت، كلما نسيها وجب عليه الرجوع إليها، ينبغي له أن يربطه بأوقات معينة، وإنما يجعله ذكرا يتردد على لسانه في كل وقت، فيكثر من الاستغفار ما استطاع.

سيد الاستغفار

وأي صيغة يستعملها الإنسان في الاستغفار فهي مقبولة، لكن هناك صيغة عظيمة علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماها (سيد الاستغفار)، فقد روى البخاري وغيره عن شَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ"، قال: "وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِه قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ".

هذه الصيغة على كل مؤمن أن يحفظها ويجتهد في الاستغفار بها، لأنها جمعت بين العقيدة والعمل.

"اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ"، هذا تحقيق للتوحيد، فالإنسان يعترف لله عز وجل بأنه الرب الذي خلق كل شيء، ويتصرف في كل شيء، ويرزق العباد والمخلوقات كلها في كل حين، والذي لا يندُّ عن علمه شيء، وليس هناك من يتدخل مع الله في تصريف شؤون الخلق ولا في تسيير أمور الكون.

"خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ": العبد يعترف لربه أنه هو الذي خلقه وصنعه، وأنه هو الذي أحياه بفضل وكرم منه سبحانه وتعالى، وأنه مخلوق ضعيف ليس لي أي قوة ولا حول ولا شأن، فهذا اعتراف بموقف العبودية.

"وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ": التزام مع الله عز وجل بالسير على صراطه المستقيم قدر المستطاع، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

"أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ": استعاذة بالله واحتماء به من شرور النفس، فالنفس تأمر بالسوء وتزين الحرام وتدفع الإنسان إلى الوقوع في المعاصي كبيرها وصغيرها، ولا ينجو من شرور النفس إلا من حفظه الله.

"أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ": أعترف بكل ما أنعمت به عليّ، وأنا لا شيء لولا فضلك، وما كنت لأكون لولا أن خلقتني، وما كنت لأعيش لولا ما ترزقني به، وما كنت لأستطيع أن أتحرك أو أفعل شيئا لولا الصحة والقوة التي منحتنيها، فكل ما نحن فيه من نعم هو من الله، كما قال تعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) [النحل: 18]، (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل: 53].

"وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي": أي أن الذنب الذي أرتكبه أعترف بأنني وحدي المسؤول عنه.

"فَاغْفِرْ لِي": أنا أعترف لك يا رب أني أخطأت، فأنا خطاء، ولولا لطفك يا الله لكنت أخطئ بالآلاف في كل يوم، ولكني ألجأ إليك وأحتمي بك وأستسمحك مما أرتكبه من أخطاء.

"فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ": أي من فضل الله عز وجل أنه جعل الاستغفار والتوبة وعمل الصالحات سببا لمحو الذنوب: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) [هود: 114]، فكلما فعل الإنسان حسنة يمحو الله بها سيئات كثيرة من سجل أعماله، فلله الحمد والشكر على فضله وإحسانه.

مطلوبة أكثر في شهر رمضان

أعمال صالحة أخفى الله عز وجل أجورها



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

ثلاثة أعمال صالحة لم يبين الله عز وجل أجزيتها ومكافأة كل منها، وإنما أخفاه وادخره لصاحبه إلى يوم القيامة وسيطلعه عليها في الآخرة، ولا يعلم إلا الله مقادير هذه الأجزية والمكافآت. هذه الأعمال الثلاثة مطلوبة من المؤمن في كل أيام حياته، إلا أنها مطلوبة في رمضان أكثر. ولكي يحسن المؤمن عبادته في هذا الشهر ينبغي عليه أن يحرص عليها ويجتهد في التمسك بها، حتى يكون من الفائزين بالمكافآت التي ادخرها الله للقائمين بها.

ما هي هذه الأعمال؟

أول هذه الأعمال هو الصيام، هذه العبادة التي تميز شهر رمضان أخفى الله عز وجل مقدار أجرها وثوابها ولم يبينه للعبد في الدنيا وادخره له إلى الآخرة، وذلك ما جاء في الحديث القدسي: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» [رواه البخاري ومسلم]، ولم يبين سبحانه وتعالى مقدار هذا الجزاء وكيفيته. وثاني هذه الأعمال هو العفو، وهو التسامح وترك الانتقام للنفس، يقول الله عز وجل في ثوابه: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) [الشورى: 40]، ما هو هذا الأجر؟ وكيف هو؟ وما مقداره؟ كل هذا أخفى الله أمره عن العبد وادخره له إلى يوم القيامة، ولم يعلمه به في هذه الدنيا، حتى يتطلع إليه العبد ويرجو نواله. والعمل الثالث هو الصبر، فهو أيضا لم يُطلع الله عز وجل عباده على ثوابه وإنما قال سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: 10]، أي بجزاء لا حدود له ولا نهاية. وهذه الأعمال الثلاثة كلها مطلوبة من المؤمن في هذا الشهر الفضيل، لأن عبادة الوقت في هذا الشهر والتي هي الصيام، لا تتم ولا يثبت أجرها ولا تتخلص من الشوائب إلا إذا تمسك الإنسان بهذه الأعمال الثلاثة: أن يصوم إيمانا واحتسابا، وأن يعفو، وأن يصبر.

كل واحد من هذه الأعمال جهاد قائم بذاته

حين نتأمل في هذه الأعمال الثلاثة نجدها كلها في حقيقتها جهاد في سبيل الله؛ قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت: 69].

فالصيام جهاد للنفس، لأن الصيام الحقيقي ليس مجرد الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة المباحة، وإنما هو ما قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [رواه البخاري]، فهذا لا يناله العبد إلا بصيام القلب وصيام اللسان وصيام العين وصيام الأذن وصيام الرِّجل وصيام اليد، أي صيام كيان الإنسان ككل. إذ الصيام الحقيقي هو الكف عن المعاصي واجتناب الذنوب وعن حديث النفس الإمارة بالسوء وعن التطلع إلى الشهوات المحرمة وعن الخوض فيما يغضب الله عز وجل. هذا هو الصيام الذي ادخر الله عز وجل ثوابه للعبد إلى يوم القيامة، وهذا الصيام هو جهاد في سبيل الله، لأن تطويع القلب والجوارح لتطيع الله عز وجل ولا تعصيه طيلة اليوم، ومراقبة النفس ومحاسبتها بصرامة على كل حركة أو سكنة، كل ذلك جهاد، إذ يحتاج إلى شدة الانتباه والحذر والتفكير المستمر في العبادة للمحافظة عليها وعدم تضييع أجرها.

أما العفو والتسامح والتجاوز وترك حق النفس وعدم الانتقام لها، فهو كذلك جهاد كبير للنفس، إذ ليس سهلا أن يُعتدى على حقك وتعفو، أو أن تُظلم وتعفو، أو أن يُفترى عليك وتعفو، فحتى تعفو وتتسامح ولا تنتقم هذا يحتاج إلى قوة نفس، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [متفق عليه]. وهذا ما لا يستطيع كل الناس أن يرتقوا إلى مستواه، مستوى: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [الشورى: 43]. فالناس الذين عندهم قوة نفس وارتباط قوي بالله عز وجل هم فقط من يستطيعون أن يعفوا ويسامحوا، والنصوص في فضل العفو كثيرة، من ذلك قوله تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: 134]، وقوله سبحانه: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النور: 22]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من جَرعة أعظمُ أجرًا عندَ الله، من جَرعة غَيظ كظمَها عبدٌ ابتغاءَ وجهِ الله» [رواه ابن ماجه]. وهذا الخلق مطلوب جدا في شهر رمضان؛ لأن أكثر الخصومات والمشاحنات وصور العراك والتشابك التي تقع بين الناس في هذا الشهر، وأنواع الجرائم التي تُرتكب وتُنتهك بها حرمة الشهر، معظمها عائد إلى عدم التسامح، فلأتفه الأسباب يتخاصم الناس ويتضاربون ويتقاتلون ويتعادون، لأنهم لا يتسامحون ولا يتجاوزون ولا يغفرون لإخوانهم أخطاءهم التي كثيرٌ منها تكون عفوية وغير مقصودة.

أما العمل الثالث فهو الصبر، وهو أيضا من أعظم صور الجهاد. والصبر له أنواع وله مجالات: فالصبر على أداء الطاعات امتثالا لأمر الله، هو جهاد، لأن فيه حملا للنفس على الطاعة، والنفس بطبيعتها تكره التكليف، ولذلك فالإنسان عندما يأتيه التكليف من الله عز وجل فيتجاوب معه ويخضع له، هذا فيه قهر للنفس ومجاهدة لها. وكذلك الحال في الصبر على عدم ارتكاب المعصية، النفس بطبيعتها تميل إلى الشهوات وتبتغي أن تنال منها ما تشاء، لكن الله عز وجل حرم علينا أمورا عديدة ومنعنا من اقترافها، فعندما يقمع الإنسان نفسه ويمنعها من أن تقع في المعاصي ويداوم على ذلك هذا جهاد في سبيل الله، ولذلك ادخر الله للصابرين أعظم الأجور، فقال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) [البقرة: 155].

الغالب على هذه الأعمال أن تكون خالصة لله

ومما هو قاسم مشترك بين هذه الأعمال الثلاثة كذلك: أن الغالب عليها أن تكون خالصة لله لا يدخلها الرياء الذي يفسد الأعمال، قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) [البينة: 5].

فالصوم: الغالب فيه الإخلاص، لأنه لا أحد يرائي غيره بصيامه، إذ الكل صائمون، فمن كان صائما فعلا فالله يعلم صيامه، ومن لم يكن صائما فعلا فالله يعلم أنه غير صائم ولا يجديه أن يتظاهر بصيامه أمام الناس. والعفو كذلك الغالب فيه أن يكون عملا خالصا لله عز وجل، فلا يُتصور من إنسان أن يعفو رياء، لأنه في حالة التعرض للظلم والعدوان فإن الإنسان إما أن يحضر خوفُه من الله عز وجل وحرصُه على مرضاته وطلبُه الأجر عنده فيعفو ويصفح، أو تغلبه نفسه الأمارة بالسوء فتدفعه إلى الرد بالمثل والانتقام.

والصبر أيضا لا يطيقه إلا من كان مخلصا فيه لله، فلا يصبر على أداء الطاعات واجتناب المعاصي وتحمل الأذى وأقدار الله المؤلمة إلا مؤمن صحيح الإيمان، يجاهد نفسه ويقهرها ويطوعها لله عز وجل.

الصبر خلاصة هذه الأعمال

وإذا أردنا تلخيص هذه الأعمال الثلاثة في عبارة واحدة: نجد أنها كلها ترجع إلى واحد منهما وهو الصبر، فكل من الصوم والعفو لا يتحققان إلا إذا اتصف الإنسان بالصبر.

فلا يطيق الصيام المبرور الذي يكون عن إيمان واحتساب إلا من أوتي الصبر على النفس وتطويعها لله عز وجل، ولا يطيق العفو والتسامح إلا من كانت نفسه متربية على الصبر والتحمل والتسامح وابتلاع الغيظ وكظمه. ولذلك كان الصبر أعظم الجهاد، وأعظم خلق يمكن أن يتحلى به الإنسان، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» [رواه البخاري]. فمن عنده صبر كان بإمكانه تحمل كل المشقات ومواجهة كل الصعوبات، أما من لم يكن عنده صبر فهو لا يطيق العيش إذا تعرض لمشقة أو واجهته صعوبة.

رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم لمن طلبها

خارطة طريق نبوية للنجاة يوم القيامة



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

روى الإمام الترمذي رحمه الله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما النجاة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أمسكْ عليكَ لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابكِ على خطيئتكَ»، وفي روايةٍ للإمام أحمد رحمه الله: «أملِكْ عليك لسانك، وليسعكَ بيتك، وابك على خطيئتك».

سؤال مهم وجواب أهم

لنلاحظ هذا السؤال المهم جدا، والذي غفل عن مثله المسلمون في هذا الزمان، ولا يكاد يسأل مثله منهم أحد، سؤال عن كيفية النجاة يوم القيامة: كيف أنجو من عذاب النار وأحظى بنعيم الجنة؟.. هل فينا من يسأل هذا السؤال اليوم؟ قليل منا نحن مسلمي هذا العصر من يسأل عن النجاة يوم القيامة، لأن الذي يشغل بالنا ويستولي على اهتماماتنا هو الدنيا وزخارفها وشهواتها.

سؤال من كلمتين في قضية تتعلق بمصير الإنسان، لأن حياة الإنسان في النهاية إما نجاة من النار ودخول الجنة، وإما الهلاك والخسران ودخول النار والعياذ بالله. فالعاقل هو من يسأل عن النجاة. وقد أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو سبيل إلى النجاة وموصل إليها، وهو الحرص على أمور ثلاثة: «أمسك عليك لسانك (أو: أملك عليك لسانك)، وليسعك بيتك، وأبك على خطيئتك».

فهذه طريق واضحة المعالم، لا غموض فيها ولا التواء، مكونة من ثلاثة بنود:

إمساك اللسان والتحكم فيه

أولها وأصعبها: هو «أمسك "أو: أملك" عليك لسانك». أمسك عليك لسانك: أي قيده بحيث لا ينفلت ويتجاوز، لأن الخطورة الكبرى في اللسان، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم – أو قال: على مناخرهم – إلا حصائدُ ألسنتهم» [رواه الترمذي]. وقال ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَا شَيْءٌ أَحَقّ بِطُولِ سِجْنٍ مِنَ اللِّسَانِ". وما ذلك إلا لأن اللسان هو سبب كل بلاء، وأملك عليك لسانك: أي تحكم فيه، بحيث تطلقه في الخير وتمنعه من الشر.

وخطورة اللسان تكمن في أن اعتداءاته لا تترك أثرا ظاهرا، ولكنها أشد إيلاما وأكثر ضررا. فعندما تجرح إنسانا بلسانك فأنت لا تترك على جسده أثرا ماديا، ولكن الإيذاء الذي تسببه له أعمق بكثير من الجرح الجسدي، وحجم التأثر الذي يخلفه أذى اللسان قد يمتد إلى العمر كله، وقد يكون سببا لعداوة لا تنتهي، سواء كان ذلك بطريق السب أو الشتم أو التعيير أو السخرية أو الغيبة التي تبلغه أو السعي بالنميمة بينه وبين غيره فتقطع العلاقة بينهما أو تكذب عليه فتورطه في مشكلة، أو ما إلى ذلك من أضرار يتسبب فيها اللسان وتؤدي إلى تمزيق شبكة العلاقات الاجتماعية وإلى إفساد علاقة الإنسان بربه وعلاقته بأخيه الإنسان.

ولمعرفة مدى خطورة الكلمة السيئة، نورد حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ من سَخَطِ الله، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ» [رواه البخاري]. فهذا دليل على أن الكلمة التي نستصغرها ونعتبرها تافهة هي الأكثر خطورة، فالمؤمن قد يقول كلمة يستهين بها ولا يبالي بخطرها ربما تكون سببا لدخوله النار، وحتى إذا كان من أهل البر والصلاح لكنه قال هذه الكلمة ولم يتب منها في الدنيا فيوم القيامة يحاسبه الله عليها ويعاقبه بهذه العقوبة الشديدة، فإذا كان قد نسيها فإن الله لا ينسى شيئا: (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى) [طه: 52]. فكيف لو قال الإنسان آلاف الكلمات من هذا النوع ولم يتب منها ويأتي يوم القيامة وهو يحمل أوزارها؟.

فالشرط الأول والأساس للنجاة هو التحكم في اللسان، ومن لا يتحكم في لسانه لن تنجيه لا صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا أي عمل آخر من أعمال البر، لأن أكثر ما يدخل الناس النار هو ما تقترفه ألسنتهم من خطايا ومعاص، عن أبي هريرة رضي الله عنه: قيل للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يا رَسولَ الله! إنَّ فلانَةَ تقومُ اللَّيلَ وتَصومُ النَّهارَ وتفعلُ، وتصدَّقُ، وتُؤذي جيرانَها بلسانِها؟ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا خَيرَ فيها، هيَ من أهلِ النَّارِ» [رواه البخاري في الأدب المفرد].

اهتمام المؤمن ببيته وأهله

«وليسعك بيتك»، ما أحوجنا إلى العمل بهذه الوصية النبوية، ومعناها: ليكن بيتك هو ما يهمك ويشغل بالك وتجد فيه راحتك، واحرص على أن تقضي أكثر أوقاتك فيه ترعى أهلك وتربي أولادك، ومما هو مشاهد أن كثيرا من الناس يقضون غالب أوقاتهم خارج بيوتهم في المقاهي والأسواق ومع الأصدقاء والخلان، يجمعون السيئات بالنظر إلى المحرمات أو التلفظ بما لا يجوز أو الاشتغال بما لا يعني، ولا يهتمون بحاجة أهلهم ولا تربية أبنائهم ولا يسألون عن صلاتهم وعن مراجعتهم لدروسهم ولا عن أدبهم، ولو وَسِعَتهم بيوتهم لكان خيرا لهم ولأهلهم وأولادهم، فمصالح كثيرة تتحقق للإنسان عندما يكون حاضرا في بيته فقد يصلي بضع ركعات، أو يقرأ شيئا من القرآن، أو يراجع بابا من العلم، أو يعلم أهله وأولاده شيئا مما يلزمهم تعلمه، وأقلها أن ينجو من السيئات التي تتسبب فيها مخالطة الناس دون مصلحة ظاهرة.

وهكذا كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته، فقد سئلت عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ فَقَالَتْ: "كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ" [رواه أحمد]، وفي رواية له أيضا: "كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ". وهكذا كانت أحوال صحابته في حياته ومن بعده، فكان أحدهم عندما يفرغ من عمله أو شؤون العامة التي هو مسؤول عنها، يعود إلى بيته ويجلس فيه ويرعى أهله ويهتم بحاجتهم.

البكاء على الذنوب

وآخر بند في هذه الوصية هو: «وابك على خطيئتك»، أي عليك أن تبكي على ما ترتكبه من معاص، لأن الإنسان عندما يقع في الخطيئة ويلزمه ذنبها لا يضمن بعد ذلك أن تُغفر له حتى لو استغفر منها، فما كل استغفار هو استغفار فعلا، إذ كثير من الاستغفار هو على اللسان فقط ولا يصدر من القلب، وهذا استغفار لا قيمة له ولا يكون توبة حقيقية، لأن التوبة الحقيقية ما كانت من أعماق القلب وكانت مصحوبة بندم صادق وإقلاع عن الذنب وعزم أكيد على عدم العودة إليه.

فالمؤمن العاقل هو من يحاسب نفسه عندما تخطئ حسابا عسيرا، بحيث يؤنبها ويلومها ويشدد عليها حتى ينتهي بها الأمر إلى البكاء من شدة الندم، حينئذ ربما يغفر الله ذنبه. وهو من يحاسب نفسه في كل ليلة قبل أن ينام على كل ما فعله طيلة اليوم منذ استيقاظه إلى حين إيوائه إلى فراشه، ويتساءل عن كل تصرف قام به وعن كل كلمة قالها: ماذا أراد بها؟ وما الأثر الذي يمكن أن يترتب عليها؟ ويشدد على نفسه حتى يدفعها للبكاء ندما وتحسرا على كل ما يمكن أن يكون قد بدر منها مما هو معصية تغضب الله عز وجل.

إذن من أراد النجاة عليه أن يتمسك بهذه الوصية أو بخريطة الطريق هذه التي رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمكونة من هذه البنود الثلاثة. ومن لا يلتزم هذه الخارطة ويسير في الحياة على غير هدى، فلا يلوم إلا نفسه في النهاية، لأنه مقبل على الهاوية دون مبالاة، والمؤمن العاقل لا يكون هذا حاله.

مضى على وفاته اثنان وثمانون عاما

ابن باديس.. الرجل الذي عاش للإسلام وللجزائر



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

الناس في حياتهم الدنيوية وفي رحلتهم العابرة على هذه الأرض صنفان، صنف يعيش الحياة في جانبها المادي...

فهو منذ يعي ويعقل يتخذ من السعي في طلب الرزق وتلبية المطالب المادية العاجلة هدفه في الحياة لا يلوي على غيره ولا يلتفت إلى سواه، حيث يظل يدور حول نفسه ولا يفكر إلا في ذاته أو في الأقربين منه دون أن يتعداهم إلى سواهم، فهذا صنف لا يعيش إلا لنفسه ولا يرى أنه خلق إلا لتحقيق رغباته وتلبية مطالب نفسه، دون أن يكون لوجوده في هذه الحياة غاية أخرى غير ذلك.. وصنف ثان من الناس رأى وجوده في الحياة أسمى وأرفع من أن تكون غايته أكلا وشربا ونوما وجمعا للحطام أو دورانا حول الذات، وإنما الحياة في نظره فرصة للسمو ومجال رحب لتحقيق الغايات العالية والأهداف الكبيرة.

هذا الصنف الثاني هو الذي تحتاجه الإنسانية، وهو المنوط به تحقيق الغاية التي خلق الإنسان لأجلها، ذلك أن الغايات الكبيرة والأهداف السامية تحتاج لتحقيقها إلى من يجعل من حياته سببا لحياة غيره، ويجعل من عمله وسعيه سببا لتحقيق المصلحة العامة لمجتمعه وأمته والإنسانية جمعاء، وبهؤلاء تسعد الإنسانية ويصلح حالها وتنتظم مصالحها وتندفع المفاسد عنها.

الرجل الأشهر في تاريخ الجزائر

نقول هذا الكلام، ونحن نستحضر ذكرى مرور اثنين وثمانين عاما على وفاة ابن الجزائر الأكبر وعلمها الأشهر الإمام العلامة الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله [1889-1940]، هذا الرجل الذي استحق أن يخلد في ذاكرة الأمة الجزائرية لما تحلى به من خصال وما قدمه من خدمات وما أنجزه من أعمال سجلتها الأقلام وتناقلتها الأجيال.

لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يولد ابن باديس في مرحلة من تاريخ الجزائر، كانت فيها الأمة الجزائرية أن تفقد كل مقومات وجودها كأمة وككيان مستقل، حيث عمل الاستدمار الفرنسي على محو كل معالم ومظاهر الاستقلال الحضاري للشعب الجزائري، من دين ولغة وتاريخ، وقد كان ميلاده في أسرة ذات وجاهة ونفوذ وعلاقة بالسلطة الاستدمارية المسيطرة على الجزائر في تلك المرحلة، إلا أن كل ذلك لم يمنعه أن يتجه وجهة مغايرة تماما لما كان يُنتظر من مثله، فإذا به يسعى لحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلم، والسفر من أجل ذلك إلى خارج البلاد للاحتكاك بالعلماء والانتفاع من علمهم والاستفادة منهم، فكان أن التحق بالزيتونة في تونس، وسافر لأداء فريضة الحج وزار مصر والشام والقدس، ورأى من أوضاع المسلمين وأحوالهم، إلى جانب ما كان يعيشه قومه في الجزائر، ما آلم نفسه وجرح شعوره.

لقد دفع ذلك ابنَ باديس رحمه الله إلى التفكير فيما يمكن عمله لإنقاذ أبناء وطنه الجزائر مما كانوا يتقلبون فيه من ذل وجهل وهوان واستغلال، فألهمه الله عز وجل أن السبيل إلى ذلك إنما يكون بنشر العلم وإحياء حبه في النفوس، فكان أن انطلق في البداية بجهود فردية من خلال دروس كان يلقيها على مجموعة من طلبته في الجامع الأخضر، ليتسع مجال نشاطه بعد ذلك إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة مجموعة من العلماء الذين كانوا يقاسمونه نفس الهموم ويتطلعون إلى تحقيق ما كان يصبو إلى تحقيقه من أهداف.

التعليم والإصلاح محور نشاطه

وقد جعل الإمام ابن باديس رحمه الله من تعليم الناس دينهم وتثقيفهم بأحكامه محورا أساسا أدار عليه أعماله وجهوده، ومنطلقه في ذلك أن الأمة لا يمكن أن تصلح إلا بما صلح به أولها، وهو الدين، فهو مصدر كل خير وأساس كل إصلاح ومنطلق كل تغيير، ولم يدخر رحمه الله أي جهد أو طاقة في هذا الإطار، فقد فرغ نفسه من شؤون الدنيا كلها، ولم يشغل نفسه إلا بشيء واحد هو التعليم والإصلاح، فكان يقضي سحابة نهاره وقسطا من ليله في إلقاء دروس تفسير القرآن الكريم وشرح أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليم الفقه ورواية السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي وتدريس علوم اللغة العربية، إلى جانب كتابة المقالات الصحفية الإصلاحية، وقد بلغ عدد الدروس التي كان يلقيها الإمام كل يوم أربعة عشر درسا في علوم مختلفة، ينهيها بدرس التفسير بعد صلاة العشاء من كل يوم، ولمدة خمسة وعشرين عاما كاملة، وما كان ينام – في أكثر أيامه – سوى ساعتين من بين أربع وعشرين ساعة، كما لم يكن يأكل من الطعام إلا ما يقيم الأود ويعين على الاستمرار في العمل، وما كان له يوم راحة أسبوعي أبدا، فقد كان يبدأ دروسه صبيحة يوم السبت وينهيها مساء يوم الخميس، ليستقل بعد ذلك وسيلة نقل تحمله إلى مدينة من المدن الجزائرية يقضي فيها يوم الجمعة، محاضرا أو مدرسا أو متصلا ببعض علماء الجمعية أو مشاركا في تجمع إصلاحي ليصبح يوم السبت على مقعد الدرس مستأنفا رحلة التعليم والتربية من جديد، وقد ظل مواصلا هذا الجهاد المستميت وهذا الكفاح الدؤوب حتى أسقطه المرض وأنهكته العلة وفاضت روحه إلى بارئها عز وجل.

إن الإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله يعتبر مثالا فريدا للإنسان الذي يلغي ذاته من أجل دينه وأمته وأبناء وطنه، ويتجاهل مطالب نفسه في سبيل تحقيق مطالب أمته، معتبرا ذلك واجبا مقدسا يجب عليه أداؤه والقيام به، وكان بإمكانه أن يعيش آمنا مطمئنا هانئا راضيا مستمتعا بما آتى الله أسرته من مال ونفوذ وجاه ومكانة، مهتما بنفسه وأسرته عاملا لتحقيق مصلحته ومصلحة أسرته، دون أن يهتم بأمر آخر..

ولكنها الرجولة الحقة والنفس الكبيرة المستعلية على متاع الدنيا وحطامها، الطامحة إلى تحقيق معالي الأمور والارتفاع إلى أعلى مراتب المجد، هي التي دفعت ابن باديس إلى التضحية بكل متاع الحياة ومغرياتها والرغبة فيما عند الله عز وجل وما ادخره للعاملين المصلحين من أجر عظيم ونعيم مقيم.

عاش للإسلام وللجزائر

لقد عاش الإمام ابن باديس رحمه الله للإسلام، لأنه في نظره الدين الحق الذي لن تسعد الإنسانية ولن تصلح أحوالها إلا حين تهتدي بهديه وتعمل بتشريعاته، فجعل من تعريف أبناء وطنه به منطلقا إلى تعريف الإنسانية كلها به، وقد تحقق للإمام ما هدف إليه من ذلك حين رأى أبناء وطنه يعودون إلى دينهم يقرؤون كتابه ويقتدون بنبيه ويتفقهون في أحكامه ويتبعون تعاليمه. كما أنه رحمه الله عاش للجزائر، وجعل العمل لها ولمصلحة أبنائها واجبا أساسا سعى في أدائه والقيام به سعيا حثيثا وبذل في ذلك غاية ما يستطيع من جهد واستفرغ ما أمكنه من وُسْع وطاقة، موقنا أن العمل للجزائر هو عمل للدين وجهاد في سبيل الله، لأن في نهضة الجزائر وتحررها وصلاح أحوالها وانتظام أمورها وتمسك أبنائها بدينهم وهويتهم نهضة للأمة كلها وبابا إلى صلاحها وانتظام أحوالها، فلا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه كما هو معلوم، لم يكن ابن باديس يعمل وحده، لقد كان يعمل في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين باعتباره رئيسا لها، إلا أن الجهد الذي بذله والاستماتة التي أظهرها والانغماس المطلق في العمل الإصلاحي الذي نذر له نفسه، لم يستطع أن يرقى إليه أحد من إخوانه العلماء، رغم ما بذلوه جميعا من جهود وما لقوه من متاعب وما قدموه من تضحيات.

رحم الله الإمام ابن باديس وجميع إخوانه العلماء الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الله ومن أجل إحياء الإسلام في النفوس ولتحرر الجزائر ونهضتها، وجزاهم بما يستحقون على ذلك من أجر وثواب ومراتب عالية في جنات النعيم.

منهم من يستغله ومنهم من يضيعه

الناس صنفان في التعامل مع رمضان



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

مع انتصاف شهر رمضان الفضيل، واقتراب انقضاء أيام هذا الموسم المبارك، يجدر بكل مؤمن أن يراجع نفسه ويحاسب ذاته في علاقته بهذا الموسم ومدى استفادته منه وانتفاعه بما تهيأ فيه من تيسُر الطاعات وسهولة ترك المعاصي والمنكرات، ويَحددَ بدقة موقعَه: هل هو من الذين استفادوا من هذا الشهر وانتفعوا به، أم هو ممن أضاع أيامه وأهدر أوقاته ولم ينتفع منه بشيء؟

صنف عرف قدر هذا الشهر، وعرف أهمية عبادة الله عز وجل وطاعته فيه، وأدرك أهمية الحرص على الطاعات والمنافسة في فعل الخيرات واجتناب المنكرات، فاستغل الشهر فيما يفيده وينفعه في دينه ودنياه وآخرته. والمنتمون لهذا الصنف هم القليل، فقليلون من الناس عرفوا قدر شهر رمضان واجتهدوا في استغلال أيامه ولياليه ولحظاته في عبادة الله تعالى وفي طاعته وذكره والإنابة إليه.

وهناك صنف ثان من الناس، وهم الأكثر، جهلوا قدر هذا الشهر، لم يعرفوا قيمته، ولم يشغلوا أيامه ولياليه في طاعة الله وعبادته وذكره وتحقيق مرضاته سبحانه وتعالى، فخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، صيامهم مغشوش، وتصرفاتهم يغلب عليها العصيان أكثر من الطاعة والإنابة إلى الله، أضاعوا أوقاتهم فيما لا ينفعهم ولا يفيدهم، لم يجتهدوا في الازدياد من الخير ولم يحرصوا على مرضاة الله سبحانه وتعالى.

من أيِّ الصنفين أنت؟

والمؤمن العاقل هو من يسأل نفسه: من أيِّ الصنفين أنا؟ هل أنا من الصنف الذي اجتهدَ في الطاعة والعبادة ومرضاة الله تعالى، أم من الصنف الثاني الذي ضيع ولم يجتهد ولم ينتفع بهذا الشهر الفضيل؟

قد يغالط أحدنا نفسه فيسارع إلى اعتبارها من الصنف الأول، لأنه لا أحد يرضى لنفسه أن يكون من الصنف الثاني، لكن لكي يصدُق أحدُنا مع نفسه ويحدد فعلا موقعه والصنف الذي ينتمي إليه، عليه أن يواجه نفسه بمجموعة من الأسئلة، ومن خلال الإجابة الصادقة عنها يفهم كل واحد منا نفسه من أي الصنفين هو. وهنا لا بد من التأكيد على أن من وجد نفسه في الصنف الأول ليس له أن يغتر أو يُعجب بعمله، ومن وجد نفسه في الصنف الثاني ليس له أن ييأس أو يفقد الأمل في النجاة والصلاح، فالهدف أولا أن يحدد الإنسان موقعه الحقيقي، ثم يفكر فيما ينبغي عمله بعد ذلك.

أسئلة ضرورية

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه" [متّفق عليه، فهل أنا صمت إيمانا واحتسابا في خلال ما مضى من رمضان أم لم يكن صيامي كذلك؟ هل صمت مخلصا لله ومتعبدا له وطائعا وممتثلا أمره، أم كان صيامي لمجرد عادة تعودت عليها فقط دون استحضار نية الصيام ولا تعظيم شعائر الله ولا معرفة بقيمة الصوم ومكانته في الإسلام؟ وهل كان صيامي مقرونا بالطاعات فقط أم كان مقرونا بالمعاصي والذنوب؟

هذا هو السؤال الأول، ويأتي بعده السؤال الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه" [متّفق عليه، فهل قمت رمضان بأن صليت العشاء في المسجد وصليت بعدها التراويح وقمت كذلك لصلاة الفجر في المسجد، أو على الأقل صليت العشاء والفجر في المسجد، وفعلت ذلك إيمانا واحتسابا، أم أنني قصرت وتكاسلت وأضعت؟

السؤال الثالث: يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامَة" [أخرجه أحمد، فكيف كانت علاقتي بالقرآن في هذا الشهر؟ هل كانت علاقة تواصل واتصال، أم علاقة انقطاع وانفصال؟ هل قرأت القرآن؟ هل حاولت أن أفهم ما قرأت من القرآن؟ هل تعلمت شيئا من قراءتي للقرآن، أم أنني تخليت عن القرآن ولم تكن لي به علاقة؟ هل أستحق أن يشفع لي القرآن يوم القيامة أم لا؟ السؤال الرابع: هل سَخَتْ نفسي في هذا الشهر؟ هل تأسيت برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما وصفه به ابن عباس رضي الله عنهما: "كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجْوَدَ النَّاسِ، وكانَ أجْوَدُ ما يَكونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ" [رواه البخاري]. فهل جادت نفسي بشيء من الصدقة وإعانة الفقراء والمساكين وصلة الرحم والإحسان إلى الجيران والأقارب؟ هل استضفت في بيتي صائما أفطر عندي؟ كيف كان حالي مع الجود والعطاء في هذا النصف الأول الذي مضى من شهر رمضان؟

السؤال الخامس: كيف كان حالي مع العادات السيئة؟ من حكم رمضان أن يحرر الإنسان من أسر العادات السيئة؟، فهل تحررت من عاداتي السيئة في رمضان؟ هل تحررت من الدخان؟ هل تحررت من الجلوس في المقاهي وإضاعة الأوقات في غير فائدة؟ هل نشطت واجتهدت في عمل ما ينفعني أم أنني ما زلت على حالي من الكسل والبطالة والخمول؟

أسئلة عديدة خلاصتها: هل ازددت قربا من الله تعالى وازددت اجتهادا في طاعته عز وجل وغيرت حياتي بما يرضيه سبحانه، أم أنني ما زلت على ما كنت عليه؟

إما.. وإما..

في ضوء الأجوبة التي سأجيب بها على كل هذه الأسئلة، إما أن أجد الأجوبة إيجابية تؤكد أنني صمتُ النهار وقمت الليل وقرأت القرآن وحرصت على الصدقة وتخلصت من العادات السيئة، فهذه نعمة عظيمة وفضل كبير من الله سبحانه وتعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل: 53، فلا بد أن نحمد الله عز وجل الذي يسر لنا السير في طريق دخول الجنة، ولا يجوز لنا أن نغتر بأعمالنا ونُعْجَبَ بها، وإنما ينبغي لنا أن نحمده سبحانه وتعالى حتى يزيدنا من فضله: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [إبراهيم: 7، ونقول: "اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال"، نعمة الطاعة والعبادة والقرب من الله عز وجل فهي أعظم نعمة وهي خير من الدنيا وما فيها.

أما إذا تبين لك أنك من الصنف الثاني الذي لم يرتفع إلى مستوى رمضان وما ينبغي له من اجتهاد في الطاعات والقربات، فلا تيأس، ولكن اعزم على أن تترقى في النصف الثاني من رمضان، تب إلى الله عز وجل وأصلح حالك وارتق بنفسك، واسأل الله عز وجل التوفيق والتسديد فيما بقي من الشهر، أخلص النية وأصلح العمل وغيِّر النفس والتحق بالجماعة التي سبقتك، لا تواصل على ما أنت عليه من بطالة وكسل، ولكن اجتهد أن ترتفع في مدارج العبودية والقرب من الله سبحانه وتعالى، وكما جاء في الحديث: "مَن أحسن فيما بقِي، غُفر له ما مضى، ومَن أساء فيما بقِي، أُخذ بما مضى وما بقي" [رواه الطبراني].

استغلال رمضان قبل فوات الأوان

من واجبنا أن نرجع إلى الله عز وجل ونتوب إليه من تقصيرنا، ونستجيب لندائه سبحانه وتعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) [آل عمران: 133، وهذا الشهر مناسبة هيأها الله لنا لنتنافس فيها ونسارع في الخيرات، لأن الجو الذي يتوفر في رمضان لا يتوفر في غيره من الشهور، ورمضان جعله الله لنا فرصة لنتزود منه بالتقوى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة: 197]، وهذه التقوى هيَ التي نحافظ بها على العلاقة التي تربطنا بالله خلال الأحد عشر شهرا الموالية لرمضان حتى يعود إلينا فنجدد معه العهد بالتزود منه بالتقوى مرة أخرى.

القلوب فيه أكثر استعدادا للعطاء

رمضان شهر التراحم والتضامن



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

من حكَم الصيام: تهذيب النفس وترقيق القلب وتحريك مشاعر الرحمة بين جوانح الإنسان. والرحمة خلق عظيم من الأخلاق التي دعا إليها ربنا عز وجل وحث عليها وأمر الناس أن يتعاملوا فيما بينهم بها، وادخر الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن يعامل الناس بالرحمة والشفقة.

الله هو الرحمن الرحيم والرسول أرحم الناس

يكفي أن من أسماء الله عز وجل الحسنى: (الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)، فهو سبحانه وتعالى يتعامل مع مخلوقاته بالرحمة، كما قال عز وجل: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف: 156]، فرحمة الله وسعت الناس والحيوانات، ووسعت حتى الكفار الذين يعادونه سبحانه وتعالى والعصاة الذين يتفننون في ترك أوامره وارتكاب نواهيه، ومع ذلك فالله عز وجل يرحمهم، فهو يرزقهم ما داموا أحياء، بالطعام واللباس والصحة والمال والبنين والمساكن والمراكب.

وكان رسول الله أرحم الناس وأكثرهم اتصافا بخلق الرحمة والشفقة على العباد، ورحمته تجاوزت المؤمنين إلى الكافرين، ولم يكتف بالاتصاف بخلق الرحمة، وإنما حث المؤمنين على التعامل بها فيما بينهم، فقال : (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا) [رواه أحمد]، وقال : (الرَّاحِمونَ يرحَمُهم الرَّحمنُ تبارَك وتعالى، ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكم مَن في السَّماءِ) [أبو داود والترمذي]، وقال : (من لَا يَرحم لا يُرحم) [متفق عليه].

فالرحمة من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، ولذلك فإن المفترض في المجتمع الذي يتدين بالإسلام ويكون أبناؤه مسلمين أن يكونوا متراحمين فيما بينهم، فقد وصف الرسول المجتمع المسلم فقال: (مثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم، وتَراحُمِهم، وتعاطُفِهِم، مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى) [البخاري ومسلم]، وقال : (إنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)، وشَبَّكَ أصَابِعَهُ [البخاري ومسلم]، بمعنى: هكذا ينبغي أن يكون المؤمنون متراحمين متعاطفين، كأصابع اليدين حين تشتبك مع بعضها حيث تصبح كتلة واحدة متماسكة.

التعاون بالمال أجلى صور التراحم

من صور التراحم وأجلاها: التراحم بالمال، وهو أن يتشارك المؤمنون بينهم فيما آتاهم الله من فضله من المال، فيساعد غنيُّهم فقيرَهم ويشاركه في ماله بما استطاع، بأن يعينه في قضاء حاجته، أو يطعمه إن كان جائعا، أو يكسوه إن كان عاريا، أو يداويه إن كان مريضا، أو يعينه في قضاء دينه إن كان غارما.

لكن الحقيقة المعلومة والمعروفة: أن الإنسان بطبيعته يحب المال، كما قال تعالى في وصفه: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) [العاديات: 8]، والخير هنا هو المال، وقال سبحانه: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) [الفجر: 20]، أي كثيرا شديدا. فالإنسان بطبيعته شحيح يريد أن يحتفظ بماله لنفسه ولا يشاركه غيرُه فيه. على الرغم من ذلك إلا أن الله عز وجل يأمر الإنسان أن يتخلص أو أن يخفف من هذه النزعة في نفسه، وذلك بالإنفاق في سبيل الله بمساعدة المحتاجين، قال تعالى: (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: 9]. فالإنسان الذي يعالج نفسه ويربيها ويطوعها بحيث تنفق مما آتاها الله من فضله، هو المفلح الذي سيكون يوم القيامة من الناجين من عذاب النار والفائزين بنعيم الجنة.

وقد حذرنا رسول الله من الشح، لأنه من أخطر الأمراض التي يمكن أن تستولي على النفس، وخطرُه يشمل الفرد والأسرة والمجتمع، فقال : «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» [رواه البيهقي]، أي تهلك الإنسان كفرد وتهلك المجتمع ككل. كما أن الشح سبب خراب المجتمعات، قال الرسول : (اتَّقُوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ علَى أنْ سَفَكُوا دِماءَهُمْ واسْتَحَلُّوا مَحارِمَهُمْ) [رواه مسلم]. فالإنسان إذا تغلب عليه الشح يقطع علاقته بوالديه حتى لا ينفق عليهم، ويقطع علاقته بإخوانه حتى لا يساعدهم، ويقطع علاقته بأصدقائه حتى لا يحتاجوا إليه، بل إنه بهذا الحب للمال تفسد علاقته حتى مع زوجته وأولاده لأنه سيبخل عليهم وسيمتنع عن الإنفاق عليهم فيما يحتاجون إليه، بل يمتد بخله حتى إلى نفسه، فهو يمتنع عن الإنفاق فيما يلزمه من حاجات خوفا من نقصان المال.

إن المؤمن العاقل هو من يحرص على أن يتغلب على نزعة الشح في نفسه، ويستجيب لنداء ربه له إلى الإنفاق، قال عز وجل: (وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) [الحديد: 7]. فالمال مال الله يضعه بين يدي بعض عباده ويستأمنهم عليه ويأمرهم بإنفاقه فيما يحدده لهم من أوجه الإنفاق، ومنها مشاركة المحتاجين ومعونتهم بما يسد حاجتهم ويقضي حوائجهم. وقد جعل الله الإنفاق شرطا لنوال البر، قال تعالى: (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) [آل عمران: 92]. لأن المؤمن إنما يستحق الجنة بالبر، فإذا لم ينل البر فلا يطمع في الجنة، لأن الجنة مستقر الأبرار: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) [المطففين: 22].

ومِنْ نعمة الله عز وجل على العبد أنه مهما أنفق من المال فهو يخلفه له وبأضعاف مضاعفة، قال تعالى: (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [سبأ: 39]، وقال سبحانه: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) [البقرة: 245]، وقال عز وعلا: (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ) [البقرة: 261].

رمضان فرص للتدرب على التراحم

شهر رمضان فرصة ثمينة وموسم عظيم لتدريب النفس على الإنفاق في سبيل الله وعلى التفكير في إخواننا المؤمنين المحتاجين الضعفاء والمساكين الذين لا يجدون ما يقضون به حاجاتهم، فهؤلاء نحن مسؤولون عنهم ومطالبون بمشاركهم فيما آتانا الله من فضله.

المؤمن بإخوانه، فلا يتصور مؤمن يعيش لنفسه، قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [رواه البخاري]. فكل مؤمن آتاه الله مالا مطالب بمساعدة إخوانه به، كل في بيئته ودائرة علاقاته وفي حدود معارفه. والمؤمن مطالب بمساعدة إخوانه حتى لو أدى ذلك إلى نفاذ ماله فالله عز وجل سيخلفه، لأنه سبحانه وتعالى أكرم من أن يجعل الإنفاق في سبيله سببا للفقر والعيلة والحاجة إلى الناس، فقد وعد سبحانه وتعالى بالخلف وبالمضاعفة أضعافا كثيرة. علينا أن نجمع في هذا الشهر بين الصيام والصدقة، فقد سئل رسول الله : أي الصدقة أفضل؟ فقال: (صدقة في رمضان) [رواه الترمذي]. وجمع بين الصيام والصدقة في حديثه النبوي الشريف: (الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) [رواه الترمذي]. (أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع، أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة).

التضامن لا يكون بالطعام فقط

ومما هو مشاهد بحمد الله في رمضان من كل سنة، أن المؤمنين يتنافسون في توفير الطعام للمحتاجين من خلال ما يسمى بقفة رمضان، لكن ما يغفلون عنه أن المحتاج لا ينقصه الطعام فحسب، وإنما قد يكون عنده طعام ولا يكون عنده ثوب يستر به عورته، أو يكون مريضا لا يجد ما يشتري به دواء، فلا بد من مراعاة هذه الأحوال بسؤال هؤلاء الفقراء عما هم بحاجة إليه فعلا: طعاما أو كسوة أو دواء أو غير ذلك من ضرورات الحياة. فالصدقة تحتاج إلى ترشيد وتفكير حتى تؤدي الغرض منها وهو سد حاجة الفقير. وقد حثنا على تنويع الصدقة فقال: (أَيُّمَا مُسْلِم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كساه الله مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ، وأيُّما مسلم أطعمَ مسلمًا على جوعٍ أطعمَه الله من ثمارِ الجنَّةِ، وأيُّما مسلم سقَى مسلمًا على ظَمَأٍ سقاه الله من الرحيقِ المختوم) [رواه أبو داود].

يجب على كل مؤمن أن يتفقد إخوانه ويسأل عن أحوالهم ويعرف ظروفهم ويشاركهم فيما آتاه الله من فضله، ولا يبخل عليهم بما لم يبخل الله عليه به، فلا يتصور أن يكون هنالك مؤمن لا تتحرك الرحمة في قلبه تجاه بقية المؤمنين، خاصة المحتاجين منهم.

أفضل الأعمال بعد أداء الواجبات

فضيلة الذكر ومنزلة الذاكرين والذاكرات



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

مما هو معلوم أن شهر رمضان هو موسم رباني عظيم يتفضل الله عز وجل فيه على عباده بأن يجزل لهم العطاء ويعظم لهم المكافأة ويضاعف لهم الأجر والثواب على الأعمال الصالحة. ولذلك فالمؤمن العاقل هو من يستغل هذه الفرصة العظيمة الثمينة في الازدياد من الخير والإكثار من عمل الصالحات والتفنن في فعل ما يرضي الله عز وجل ويقرب العبد إليه.

ذكر الله أفضل الأعمال الصالحة

والأعمال الصالحة كثيرة، إلا أن هناك عمل صالح مهم جدا في علاقة الإنسان بربه عز وجل، ولكن كثيرا من المسلمين، وخاصة في هذا الزمان، ينسونه ويغفلون عنه ولا يكادون يهتمون به لكثرة انشغالهم بالدنيا واهتمامهم بشؤونها وحرصهم على تحصيلها، هذا العمل الصالح هو ذكر الله سبحانه وتعالى، وأي عمل صالح أفضل من ذكر الله بعد أداء الفرائض اللازمة؟

وربنا سبحانه وتعالى يأمرنا أن نذكره، والأمر يفيد الوجوب: .يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، [الأحزاب: 41-42]، ولذلك فإن عدم ذكر الله معناه الغفلة عنه ونسيانه سبحانه وتعالى، وهذا ما لا يليق بالعبد في معاملة ربه الذي خلقه ورزقه وصوره فأحسن صورته وأعطاه من كل نعمة وأفاض عليه من كل خير، فمنذ أن يبدأ جنينا في بطن أمه إلى أن يُودَع جسدُه في قبره بعد مماته، هو يتقلب في أفضال الله ونعمه. ويقول ربنا سبحانه وتعالى: .فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ، [البقرة: 152]. فمن لم يذكر الله عز وجل ولم يسبحه ولم يحمده ولم يكبره ولم يوحده، فإنه يُعرِّض نفسه لأن يهمله الله عز وجل ويتركه لنفسه ولا يرعاه ولا يعتني به ولا يحفظه من الشرور، يتركه للشياطين تتناوشه وتستولي عليه وتقوده حيث تشاء، أما من يذكر الله عز وجل فالله سبحانه وتعالى يذكره ويعتني به ويرعاه ويحفظه ويقضي حوائجه ومصالحه وييسر أموره حتى دون أن ينتبه العبد لذلك وحتى دون أن يسأل ربه سبحانه وتعالى.

وينبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عظم درجة الذكر ومكانة الذاكرين، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟)، قالوا: بلى، قال: (ذكر الله تعالى) [رواه الترمذي]. فالذكر أفضل من الصدقة، وأفضل من الجهاد، وأفضل من أي عمل آخر، ما لم تكن واجبات. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (سَبَقَ المُفَرِّدُونَ)، قالوا: وَما المُفَرِّدُونَ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ) [رواه مسلم]. وسبق بمعنى مضى بعيدا في المقدمة، فلا يمكن أن يلحقه أحد، والسابق هو المقرَّب إلى الله عز وجل كما قال سبحانه: .وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، [الواقعة: 10-12]، فالذاكرون الله كثيرا والذاكرات هم السابقون المقربون، فهم أولى الناس بالجنة وأسبقهم إلى دخولها.

الرسول أكثر الناس ذكرا

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس ذكرا لله عز وجل، فكان لسانه لا يفتر عن ذكر ربه، وما كان صلى الله عليه وسلم لينسى ربه عز وجل لحظة واحدة في حياته. كان صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل شؤونه وأحواله كبيرها وصغيرها، فما من شأن إلا وألهمه الله عز وجل فيه ذكرا خاصا يذكره به فيه، فكان يومه كله ذكرا متواصلا لله سبحانه وتعالى، منذ أن يستيقظ من نومه صباحا إلى أن يعود إلى فراشه ليلا لينام مرة أخرى.

وقد علمنا صلى الله عليه وسلم أن نذكر الله في كل مكان وفي كل شأن وعلى كل حال، وأكد صلى الله عليه وسلم على بعض الأذكار ذات القيمة العظيمة ووجه إلى ضرورة المداومة على ترديدها وترطيب اللسان بها. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك) [متفق عليه]. وقوله صلى الله عليه وسلم: (من قال: سبحان الله وبحمده، مائةَ مرة، غُفِرَتْ له ذنوبُه وإنْ كَانَتْ مثْلَ زَبَدِ البحرِ) [رواه البخاري وغيره]. وقال صلى الله عليه وسلم: (لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس) [رواه مسلم]، وما طلعت عليه الشمس هو الدنيا وكل ما فيها مما يحرص الناس على تملكه والتنافس فيه.

عطاء الله لمن يذكره

وقد وعد الله عز وجل من يذكره بأن يتولى شؤونه كلها، قال تعالى في الحديث القدسي: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِه ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) [رواه البخاري]، ورُوِيَ في الحديث القدسي الآخر: (مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ) [رواه الترمذي]. فالذي يشغله اهتمامه بذكر الله عز وجل حتى ينسى أن يدعو لنفسه، يتولى الله عز وجل أمره ويعطيه – دون أن يطلب – أفضل ما يعطي السائلين، بل يعطيه ما هو خير له في دينه ودنياه وآخرته.

وذكر الله عز وجل خير ما تطمئن به قلوب المؤمنين: .الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، [الرعد: 28]. فالمؤمن الذي يذكر الله عز وجل، ينزل الله سكينته على قلبه ويبث فيه الطمأنينة والشعور بالأمان والإحساس بالأمن المطلق، فهو في معية الله وفي ظل رحمته عز وجل، وهو شمول بعناية الله ورعايته، فكيف لهذا أن يتسرب الخوف أو القلق أو الاضطراب إلى قلبه؟. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده) [رواه مسلم].

عقوبة المُعرِض عن ذكر الله

إن الذكر هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله، وهو المفتاح الذي يُفتح به باب الأعمال الصالحة، وبدونه يغفل الإنسان ويقسو قلبه، فيستولي عليه الشيطان وتغره الدنيا بشهواتها، وسرعان ما يقع صريعا لأعدائه الذين يتجاذبونه من كل جانب والذين يملكون من الوسائل ما يستولون به على قلبه، ولا يمنع الإنسانَ ويحفظه منهم سوى الله عز وجل، فإذا كان الإنسان بعيدا عن الله فَقَدَ حفظ الله له وسهل لهؤلاء الأعداء أن يصرعوه، قال الله تعالى: .وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ، [النحل: 97]. فالشقي هو من ينفصل عن ربه ويُعرض عن ذكره وتنقطع علاقته به، وهو ما سيؤدي إلى أن يحل الاضطراب والخوف والقلق بقلبه، مما يقوده بعد ذلك إلى اللجوء إلى ما يتوهم أنه سينقذه مما يخاف ويدفع عنه القلق والاضطراب، وهذا النوع من الناس هم الذين يعاقرون الخمور ويتعاطون المخدرات ويرتمون في أحضان الشهوات ويعتنقون المبادئ والأفكار المنحرفة ويتبعون المذاهب الضالة.

فينبغي علينا إذن أن نحرص على ذكر الله ذكرا كثيرا ونجتهد فيه ونجعله نصب أعيننا دائما ولا نغفل عنه إطلاقا، لأنه أفضل الأعمال الصالحة وبه تتيسر الأعمال الأخرى كلها، كما أن به تنتظم الحياة وتطمئن القلوب وتصلح الأحوال في الدنيا، وتحصل النجاة ويُنال النعيم في الآخرة.

حذر النبيّ من ارتكابها في رمضان

تصرفات محرمة تقضي على أجر الصيام



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

الصيام مدرسة لتهذيب النفس وتقويمها وتخليصها من الأخلاق السيئة وتحليتها بالأخلاق الحسنة والصفات الفاضلة. وهذا ما نص عليه قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: 183]. والتقوى هي خشية الله عز وجل والخوف منه سبحانه وتعالى في كل الشؤون، سواء في شؤون المسلم الشخصية أو في علاقاته مع الناس.

سلوكات لا تليق بالصائم

ولذلك فإن المسلم الذي يصوم ولكنه لا يُحسّن أخلاقه ولا يبالي ماذا يصدر عنه من سلوكات سيئة أو تصرفات ضارة، ولا يهتم بفساد علاقاته بغيره من إخوانه المؤمنين، فهذا في الحقيقة لم ينفعه الصيام ولم يؤثر في نفسه، ولذلك يُخشى عليه ألا ينفعه هذا الصيام ولا يكون له فيه أي أجر، بل ربما يكون له فيه الإثم. فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» [رواه البخاري]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته» [رواه الخرائطي وحسنه العراقي].

قول الزور: هو كل كلام لا يطابق الواقع. والعمل به: هو تفعيل هذا الكلام عمليا بحيث يفضي إلى نتائج، هذه النتائج قد تضر بالنفس كما قد تضر بالغير. والجهل: هو السّفه والطيش والتصرفات غير العقلانية التي قد يرتكبها الإنسان.. من يكون هذا حاله وهذه تصرفاته قولا وعملا، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه؛ بمعنى أن هذا النوع من المسلمين ليس للصيام أي أثر في سلوكه وفي شخصيته، ولذلك فهو في الواقع كأنه غير صائم، لأن المقصد الرباني من تشريع الصيام ليس هو أن يجوع المسلم أو يعطش، وإنما هو تهذيب النفس وتربيتها وترقية أخلاقها، فإذا لم يؤد الصيام هذه المهمة في حياة المسلم فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه، أي أنه لا أجر له في صيامه.

بعض العلماء قالوا: من يكون هذا حاله صيامُه باطل، فهو فقط يتعب نفسه، وحقيقته أنه ليس بصائم أصلا، وهو ما يمكن أن يُفهم من الحديث الآخر: «كم من صائم ليس له من صومه إلاّ الجوع والعطش» [رواه النسائي وابن ماجه. إلا أن عامة الفقهاء قالوا: المقصود أنه لا أجر له في صيامه، وإنما له الذنوب والآثام، لكن صيامه يعتبر صحيحا ويسقط عنه التكليف، ولا يُطالب بالقضاء ولا بالكفارة.

صور من قول الزور

قول الزور هو كل كلام يخالف الواقع، يتجلى هذا في الكذب والغيبة والنميمة وترويج الشائعات وفي شهادة الزور وفي التحسس والتجسس على الآخرين وفي كل كلام لا يرضي الله عز وجل.

فالكذب عملة شائعة، بل هو عند كثير من الناس أساس الحياة، مع أنه يعلم أن الكذب من كبائر الذنوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... وإيَّاكُمْ والكَذِبَ، فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذّابًا» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]، ومعنى أن يُكتب عند الله كذابا: أي يُختم عليه بالكذب ويُسجل في سجل الكذابين فلا يمكنه أن يتوب من هذه الخصلة الذميمة والخبيثة أبدا، وهو أمر خطير جدا. وهذا النوع من الناس مشاهد في الواقع، حيث تجد أناسا الكذب عندهم هو الأساس والصدق هو الاستثناء، فقد عودوا أنفسهم على الكذب حتى صاروا لا يستطيعون أن يصْدُقوا ولو أرادوا ذلك في بعض الأحيان. فالذي يكذب وهو صائم لا أجر له في صيامه، وإنما هو آثم وموزور.

والغيبة هي العملة الأكثر شيوعا، فقد أصبحت الخبز اليومي لكثير من المسلمين اليوم، واستُسهلت حتى أصبحت سلوكا عاديا في العلاقات الاجتماعية، فالناس يتحدثون في أعراض بعضهم البعض بأي كلام صدقا كان أو كذبا، بالحق وبالباطل، ويصفون بعضهم بعضا غيبا بأوصاف لا يمكنهم أن يقولوها لبعضهم مواجهة، فبمجرد أن يغادر أحد مجلسا أو يغيب عنه حتى تتناوشه الألسنة وتمزق عرضه من كل جانب، حتى من أقرب الناس إليه الذين يعتبرهم أصدقاءه وأحبابه، مع أن الجميع يعلم أن هذه كبيرة من كبائر الذنوب، فقد نهانا ربنا سبحانه وتعالى عن الغيبة في قوله تعالى: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) [الحجرات: 12]، كما نهانا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

أما النميمة فهي السعي بالوقيعة بين الناس، وهذه أيضا كثيرة في حياة المسلمين اليوم، فإذا وُجد شخصان متحابان متآخيان، لم يطق آخرون أن يروهما على هذه الحال فيسعون في الوقيعة بينهما وقطع الأواصر التي تربطهما، دون أدنى إحساس أو شعور بالذنب، بل إن كثيرين يفرحون لتعادي المسلمين فيما بينهم وتقاطعهم، وهذا السلوك المشين منتشر في كل مجالات العلاقات الإنسانية في المجتمع؛ في الأسر، والأحياء، والمؤسسات التعليمية، والاقتصادية، وغيرها. ولذلك كان النمام مذموما في الشرع، قال تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ. هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) [القلم: 10-11]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الوَجْهَيْنِ، الذي يَأْتي هَؤُلَاءِ بوَجْهٍ، وهَؤُلَاءِ بوَجْهٍ» [رواه البخاري]، وكانت عقوبته شديدة يومَ القيامة فهو من أهل النار، كما جاء في الحديث: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ» [رواه البخاري ومسلم].

وأما شهادة الزور فهي أن يشهد إنسان في حق إنسان آخر أو في أي شأن بما هو باطل، أو يتصرف في حق إنسان بما هو هدر لحقه، بأن يقلب الحقيقة ويعطي للموقف صورة غير صورته الحقيقية، بما يؤدي إلى تزعزع الأمور وانقلاب الحقائق وضياع الحقوق، وهذا ليس في القضاء والمنازعات فحسب، وإنما في كل شؤون الحياة والعلاقات، والأصل في المؤمنين أنهم (لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) [الفرقان: 72]، لأن شهادة الزور من كبائر الذنوب، ففي الحديث الصحيح: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئا فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور».

العمل بالزور

هو أن يفعل الإنسان في الواقع ما هو زور، فلا يكتفي بأن يقوله فقط، وإنما يتبناه ويتولى فعله وممارسته كأنه حق؛ كأن يكذب على إنسان ولا يكتفي بذلك، وإنما يعامله بمقتضى هذا الكذب مبالغة في إيهامه بأنه صادق. أو أن يغتاب إنسانا ولا يكتفي بذلك وإنما يسعى في الإضرار به أيضا. ومن العمل بالزور: إخلاف الوعد وهو من صفات المنافقين، والغش في المعاملة وهو منفي عن المسلم الصادق، والتعامل بالربا وهو من مكبائر الذنوب، والتقصير في أداء الواجبات الوظيفية مع تقاضي المرتبات كاملة فهو سرقة، وعدم إتقان العمل المأجور عليه أو التدليس فيه، وغير ذلك.

الجهل

هو الطيش والسفه والتصرفات الحمقاء التي تصدر من الإنسان سواء في نفسه أو في علاقته بالغير، مثل الغضب الشديد لأتفه الأسباب والذي تترتب عنه تصرفات ضارة في نفسه أو على غيره من أفراد أسرته أو زملائه في العمل أو الناس الذين يتعامل معهم. ومثل الفجور في الخصومة الذي هو من خصال المنافقين، وهو تضخيم الخصومة وتوسيع دائرتها وإسماع الناس بها بطريقة استعراضية رغم أنها في الأصل خلاف بسيط يمكن أن يُحل بسهولة. ومن ذلك أيضا الكلام الفاحش الذي عود عليه البعض ألسنتهم ولا يبالون أن يرددوه في كل مكان وفي أي موقف دون احترام للناس ولا تقدير للمجتمع، وهو ما نشاهده من حال بعض الناس في رمضان والذين يتفوهون ببذيئ الكلام لسبب ولغير سبب، وربما يسبون الدين أو يرددون ألفاظا كفرية دون أدنى مبالاة بخطورة هذا التصرف وشناعته.

هذه التصرفات كلها مما لا يليق بالمسلم أن يفعله أو يشارك فيه، لأن الأصل فيه أن يكون حريصا على أجر صيامه، ولا يرتكب ما يفضي به إلى فقدان هذا الأجر أو الوقوع فيما يكون سببا إلى الوزر والعقاب الأليم يوم القيامة.

الأجور على الطاعات فيها مضاعفة

فضل العشر الأواخر من رمضان وليلة القدر



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

ها هو شهر رمضان الفضيل، شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار، يدخل ثلثه الأخير. ومما هو معلوم لكل مسلم أن هذه الأيام والليالي العشر الأواخر من رمضان ذات فضل عظيم ومنزلة عالية عند الله عز وجل، فهي أفضل أيام وليالي الشهر، بل هي أفضل أيام وليالي السنة كلها. وهذه الأفضلية إنما ترجع إلى أن الأعمال الصالحة فيها أجورها مضاعفة وثوابها جزيل وعظيم من الله للمجتهدين من عباده المؤمنين، حيث يفضل أجرها أجر غيرها مما يعمل في سائر الأيام.

سنة النبي في العشر الأواخر

ولفضل هذه الأيام وعظيم الثواب المرصود للطائعين فيها، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعد لها استعدادا خاصا ويكون له فيها من النشاط والاجتهاد أكثر مما يكون له في الأيام الأولى من رمضان وفي سائر العام. روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر، شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله». وفي رواية ثانية لمسلم: «كانَ رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ يَجْتَهِدُ في العَشْرِ الأوَاخِرِ، ما لا يَجْتَهِدُ في غيرِهِ». شد المئزر معناه التحزم والنهوض للعبادة بعزم وقوة وحرص شديد، وإحياء الليل معناه قيام معظم الليل وربما كله في الصلاة والقراءة والذكر والاستغفار، وأيقظ أهله: أي زوجاته، وكل من له به صلة قرابة، حتى يشاركوه في اغتنام الخير والذكر والعبادة. فقد روى الطبراني عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان، وكلّ كبير وصغير يطيق الصلاة»..

ومن دلائل حرصه صلى الله عليه وسلم على الاجتهاد في العشر الأواخر واغتنامها في الطاعات والعبادات، والتفرغ لها من كافة شؤون الحياة: اعتكافه صلى الله عليه وسلم خلالها في المسجد يصلي ويقرأ القرآن ولا يخرج إلا لضرورة، روى البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ».

سر أفضلية هذه الأيام

لعل السر في شرف هذه الأيام والليالي المباركات وأفضليتها، يكمن في أمرين اثنين:

أولهما: أن هذه العشر الأواخر هي ختام الشهر المبارك، والأعمال إنما يُحكم عليها بخواتيمها، لأن المداومة على العبادة حتى الانتهاء منها تماما دليل على الإخلاص فيها، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَحَبُّ الأعمالِ إلى الله أدْوَمُها و إن قَلَّ». أما غير المخلص فإنه ما إن يبدأ في عمل حتى يتوقف عن إتمامه لأنه لا يجد في نفسه الدافع الإيماني للإتمام ولذلك لا يستحق عليه الأجر، وروي عنه صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، إِنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ وَلا ظَهْرًا أَبْقَى».

وثانيهما: أن أشرف وأعظم وأفضل ليلة في السنة وهي ليلة القدر، ليلة الفوز والفلاح والسعادة والنجاة لمن أدركها، هذه الليلة أرجح ما تكون في هذه العشر الأواخر، روى مسلم في صحيحه عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَإِنْ ضَعُفَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَجَزَ فَلَا يُغْلَبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي». وروى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنْ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ».

شرف ليلة القدر وفضلها

وقد سميت بليلة القدر لشرفها وعلو قدرها، حيث إن شهود هذه الليلة وإحياءها يعدل بل يفوق في الفضل والثواب عبادة ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر متصلة ليس فيها ليلة القدر، قال الله تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) [القدر: 3]، ليس هذا فقط، وإنما يضاف إليه مغفرة ما تقدم من ذنوب المؤمن كلها، فقد روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، ما عدا ما كان من حقوق الناس، فهذه لابد من التحلل منها من أصحابها..

ومن فضل هذه الليلة: أنها الليلة المباركة التي أنزل الله فيها القرآن فارقا بين الحق والباطل ومميزا بين الخير والشر، قال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) [الدخان: 3]، وقال سبحانه: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [القدر: 1].. ومن فضلها أيضا: أن الملائكة تنزل فيها تحت قيادة جبريل عليه السلام لتشارك في العبادة وتحف الذاكرين والمستغفرين والمصلين والتالين لكتاب الله بكل خير وبركة ورحمة، قال تعالى: (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) [القدر: 4]، وروى أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ: «إِنَّهَا لَيْلَةُ سَابِعَةٍ أَوْ تَاسِعَةٍ وَعِشْرِينَ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى». ومن فضل هذه الليلة كذلك: أنها الليلة التي يُقضى فيها بقضاء العام الموالي، لقوله تعالى: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [الدخان: 4، فمن شهد هذه الليلة وأحياها بالطاعة كان جديرا أن يُقضى له بالخير ويُحفظ من الشر إن شاء الله تعالى.. ثم إن هذه الليلة ليلة سلام وأمن وطمأنينة وأمان، قال تعالى: (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) [القدر: 5.

ضرورة الاجتهاد لإدراك فضل هذه الليلة

روى ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: دَخَلَ رَمَضَانُ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَلَا يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلَّا مَحْرُومٌ».. إنها مسؤولية كبرى يعلقها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في عنق كل مؤمن يرجو الله واليوم الآخر، مسؤولية شهود فضل ليلة القدر واستثمارها في طاعة الله عز وجل وذكره وحسن عبادته، وما دامت ليلة القدر مبهمة وغير محددة بين الليالي العشر الأخيرة من رمضان، فمن واجب المؤمن أن يحرص على إحياء الليالي العشر كلها، لعله يكون من الفائزين بشهود هذه الليلة ونوال فضلها وبركتها، ومما ينبغي الحرص عليه بصفة خاصة:

1- إحياء الليل بالصلاة، وأقله شهود صلاة التراويح، والاستيقاظ قبل السحور وصلاة ما أمكن من الركعات، فمن صفات عباد الله المتقين أنهم (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات: 17-18]، وروى الترمذي عن عمرو بن عبسة رضيَ الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «أقرَبُ ما يكونُ الرَّبُّ منَ العبدِ في جوفِ اللَّيلِ الآخرِ، فإنِ استَطعتَ أن تَكونَ ممَّن يذكرُ اللَّهَ في تلكَ السَّاعةِ فَكُن».

2- الحرص على صلاة الجماعة في المسجد، وخاصة صلاتي العشاء والفجر، فقد روى مسلم في صحيحه عن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ».

3- اغتنام الأوقات في قراءة القرآن وفي ختمه في هذا الشهر، وفي هذه العشر الأواخر خاصة، روى أحمد في مسنده عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ فَيُشَفَّعَانِ».

4- الذكر والاستغفار والدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، مع الإكثار من ترديد الدعاء الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم زوجه عائشة رضي الله عنها أن تسأل الله به، فقد روى الترمذي في سننه عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي».

5- رعاية المحتاجين والمكروبين، والإحسان إلى اليتامى والأرامل والمساكين، فقد روى الترمذي عَنْ أَنَسٍ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «صَدَقَةٌ فِي رَمَضَانَ».

تحققت بفضل الارتباط بالله عز وجل

رمضان شهر الانتصارات الكبرى في تاريخ المسلمين



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

كان شهر رمضان بالنسبة للمسلمين الأوائل - في عصور القوة والمنعة والعزة - شهر المكرمات والبركات، وشهر الانتصارات والفتوحات، فكما كانوا يتحرون فيه الاجتهاد في العبادة والتقرب إلى الله عز وجل، كانوا يحرصون كذلك أن يجعلوا منه شهر المجاهدة للباطل في أنفسهم وللباطل المتمثل في أعدائهم المتربصين بهم.

إن شهر رمضان، بما يتفرد به من خصائص ومزايا، يعتبر محطة سنوية دائمة لتعبئة القوى النفسية والروحية التي تحتاج إليها الأمة المسلمة ويحتاج إليها الفرد المسلم، فهو يدفع الصائم - عن طواعية منه واختيار - إلى الإقبال على الطاعات والإكثار من القربات والمشاركة في أعمال الخير والبر، والثبات على الحق في البأساء والضراء وحين البأس، ومقاومة الشر وإزالة الظلم، ونشر ألوية النور والعدل والسلام.. ولعل هذا هو سر الانتصارات الكثيرة التي حققها المسلمون في هذا الشهر العظيم عبر تاريخهم المديد، فقد استطاعوا أن يلحقوا فيه أشنع الهزائم بأعدائهم الذين كانوا دائما يفوقونهم في العدة والعدد.

معركة بدر وفتح مكة

لقد كان أول انتصار تحقق للمسلمين في شهر رمضان؛ هو الذي تم يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان الكريم من السنة الثانية للهجرة، انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته في أول معركة فاصلة يخوضونها ضد مشركي قريش وهي معركة بدر الكبرى، في يوم سماه الله تعالى فرقانا (يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) [الأنفال: 41، لأنه كان فرقانا فصل بين الحق والباطل، وميز بين عهدين من حياة الدعوة الإسلامية: عهد الضعف والقلة والمسكنة، وعهد القوة والمنعة والهيبة. ولذلك كانت هذه المعركة بداية لسلسلة الانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون بعد ذلك عبر التاريخ الإسلامي كله. وفي اليوم العشرين أو الحادي والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، كان فتح مكة الذي بشر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم قبل سنتين من وقوعه حين أنزل عليه قوله عز وجل: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) [الفتح: 1]. وقد استسلم أهلها للمسلمين تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون قيد أو شرط ودون إراقة للدماء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكسر الأصنام ويطيح بالأوثان ويردد قول ربه عز وجل: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [الإسراء: 81]، وبذلك استطاع المسلمون أن يقضوا على ما كان في نفوس المشركين من عنجهية وصلف وغرور، وأن يقيموا صرح الإسلام على أساس من القوة والعدل والخير والرحمة. وكان فتح مكة بداية عهد جديد للدعوة الإسلامية، حيث سارعت القبائل العربية إلى الدخول في دين الله أفواجا، وأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة النصر: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا).

انتصارات إسلامية متوالية

توالت بعد ذلك انتصارات المسلمين على أعدائهم، عبر مراحل التاريخ الإسلامي المتعاقبة. ففي رمضان من العام الثالث عشر للهجرة، في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقعت معركة البويب التي قاد جيش المسلمين فيها المثنى بن حارثة، حيث تم لهم الانتصار على جيش الفرس وقتل قائدهم مهران بن باذان والاستيلاء على الحيرة.

وفي الثاني من شهر رمضان سنة اثنين وثمانين للهجرة، تم الفتح النهائي لبلاد المغرب الأوسط (الجزائر) على يد القائد المسلم حسان بن النعمان، ومن ذلك اليوم انتشر فيها الإسلام وبسط نفوذه على القلوب، وصار الجزائريون أحرص الناس على الإسلام وأشدهم بأسا في الدفاع عنه والجهاد لنشره وإعلاء كلمته. وبعد ذلك بتسع سنوات، أي في رمضان سنة إحدى وتسعين بعد الهجرة، فتح المسلمون الأندلس بقيادة القائد المسلم العظيم طارق بن زياد، وتم لهم النصر على مائتي ألف من القوط كان قد عبأهم ملك الأندلس يومئذ. وقد فتح هذا النصر أبواب الأندلس أمام المسلمين، ومكنهم من أن يقيموا فيها حضارة خالدة ظلت تشع بنورها على أوربا والعالم مدة سبعة قرون. وفي شهر رمضان من سنة مائتين وثلاث وعشرين للهجرة، اقتحم المعتصم بالله العباسي حصون عمورية في مائة وخمسين ألفا من جنوده.. وقد تم هذا بعد أن بلغه أن امرأة مسلمة عفيفة وقعت في يد علج من علوج الروم، فلما هم بسبيها نادت: وامعتصماه.. وامعتصماه.. فهز النداء نخوة المعتصم، وأثار رجولته، وقال: لبيك.. لبيك.. فنهض ولبس لباس الحرب وتقلد سلاحه وركب حصانه، وصاح بالنفير، وأقسم ألا يعود إليه إلا شهيدا محمولا على الأعناق، أو ظافرا منتصرا. وفي أرض المعركة قاتل الجيش المسلم الروم، ولم تغب شمس يوم السابع عشر من شهر رمضان سنة مائتين وثلاث عشرين للهجرة إلا وكانت المدينة العتيدة قد فتحت أمام جيوش المسلمين المنتصرة، وشوهد المعتصم بن الرشيد يدخل مدينة "عمورية" على صهوة جواده الأصهب، وقد نكس رأسه خضوعا لله وشكرا على نعمائه.. وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة أربع مائة وتسع وسبعين للهجرة، حدثت موقعة الزلاقة، وهو سهل يقع على مقربة من دولة البرتغال الحالية، وقد سميت هذه المعركة بيوم العروبة والإسلام، إذ انتصر فيها جيش المرابطين المسلمين في الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين على جيش الكفار البالغ عددهم ثمانين ألف مقاتل بقيادة ملك قشتالة حينئذ. وفي الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ستمائة وثمان وخمسين من الهجرة وقعت معركة عين جالوت التي قاد جيش المسلمين فيها السلطان المظفر قطز بن عبد الله لتسجل نصرا للمسلمين على قطعان التتار الذين اجتاحوا بلاد المسلمين بوحشية لم يعرفها التاريخ، وكان لهذه المعركة نتائج بالغة الأهمية حيث قضت على خرافة أن المغول لا يُهزمون، وأنقذت مصر والمغرب العربي من الخطر المغولي، وأعادت الوحدة بين مصر والشام. وفي رمضان من سنة ستمائة وست وستين للهجرة، استعاد الملك الظاهر بيبرس إمارة أنطاكية التي كانت في قبضة الصليبيين، وكان هذا الفتح أعظم ما حققه المسلمون منذ أيام معركة حطين، كما كانت هزيمة الصليبيين في هذه المعركة وفقدانهم لهذه الإمارة خسارة فادحة آذنت بعد ذلك بانهيار بقايا الدولة الصليبية في الشام. هذه نماذج فقط من الأحداث التاريخية التي وقعت في شهر رمضان العظيم وتم فيها النصر للمسلمين، وهي تثبت بما لا يدع مجالا لأي شك فعالية فريضة الصيام ونفحات شهر رمضان في تعبئة القوى النفسية والإيمانية في نفوس المسلمين لمواجهة ما يعترضهم من تحديات وما يواجههم من عقبات.

الارتباط بالله كان سر تلك الانتصارات

لكن ما يجب التأكيد عليه أن المسلمين إنما حققوا هذه الانتصارات وألحقوا بأعدائهم هذه الهزائم حين ارتبطوا بالله وكانت أعمالهم كلها ابتغاء مرضاته والتماسا لما أعده لهم في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم. لكن حين تخلوا عن علاقتهم بالله عز وجل ونسوا ما يجب عليهم من إعداد للآخرة، وانطلقوا يجمعون زخارف الدنيا، وصاروا يقاتل بعضهم بعضا بسببها، حينئذ تخلى الله عز وجل عنهم وتركهم لأنفسهم، وسرعان ما انتبه أعداؤهم إلى تغير حالهم وضعف قوتهم وتشتت صفوفهم، فكروا عليهم واجتاحوا بلادهم واستولوا على ثرواتهم واستعبدوهم واستذلوهم. ومنذ عدة قرون والأمة الإسلامية كلها تعاني الفرقة وتسودها الفتن، وتشتكي إلى الله ذهاب ريحها وضعف قوتها ومهانتها أمام أعدائها بسبب تنازع أبنائها واختلافهم وتهارشهم على الدنيا وانشغالهم بجمع حطامها وتنافسهم في الاستكثار منها، ناسين أو متناسين وصية ربهم لهم، إذ قال عز من قائل محذرا لهم من التنازع والتنافس على الدنيا: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [آل عمران: 103]. والمؤكد أن هذه الأمة لا يُرجى لها أن تنهض من سبات أو تحيا من موات إلا يوم تعود إلى كتاب ربها سبحانه وتعالى وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم وتعمل بما فيهما من وصايا وتوجيهات.

بها سعادة الناس أو شقاؤهم

رمضان فرصة لإصلاح وتصفية القلوب



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان البخاري وسلم رحمهما الله عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ يقولُ: «...ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ».

القلب سبب السعادة أو الشقاء

في هذا الحديث يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في جسد الإنسان عضوا من الأعضاء هو عبارة عن قطعة من اللحم، لكن هذا العضو هو رئيس البدن، وهو العضو الأساس فيه، وهو المسؤول عن سير بقية الأعضاء كلها، فبحياته تحيا الأعضاء الأخرى وبموته تموت، بصلاحه تصلح الأعضاء الأخرى، وبفساده تفسد، ماديا ومعنويا. وما ذلك إلا لأن القلب هو مستقر الإيمان أو الكفر، ومأوى الحب أو البغض، ومستودع المشاعر والأحاسيس.

ولذلك فإن الإنسان في حياته الدنيوية إما أن يسعد أو يشقى بما ينطوي عليه قلبه، فإن كان القلب منطويا على الإيمان بالله عز وجل والارتباط به والإنابة إليه والرجاء فيه الخوف منه، والالتجاء إليه دائما، وكان هذا القلب سليما من الأحقاد والكراهية والبغض والحسد والتشفي وغيرها من الشرور والآثام، فإن صاحب هذا القلب يعيش سعيدا ومطمئنا ومرتاحا في هذه الدنيا. بينما إذا كان القلب منطويا على الكفر أو الشرك أو النفاق في العلاقة مع الله، وكان منطويا على الحقد والبغض والحسد والكراهية في العلاقة مع الناس، فإن صاحب هذا القلب يعيش شقيا في هذه الدنيا.

وهذا ما نلاحظه في عالمنا المعاصر، حيث إن كثيرا من الناس يعانون الشقاء في صوره ومظاهره المختلفة: يعانون من القلق، ومن الاكتئاب، ومن اليأس، ومن الخوف، ومن فقدان الأمل، ومن عدم الطمأنينة، وغياب السكينة. فمهما امتلكوا من أموال ومن رفاهية، ومهما تحقق لهم من رخاء، مع كل ذلك تجدهم يعانون الشقاء والهموم والأحزان والشعور بالرعب من المجهول، كل هذا بسبب خواء القلوب من الإيمان وعمارتها بالكفر أو بالشبهات أو بالنفاق أو بحب الدنيا، أو بفساد العلاقات مع الآخرين حيث تمتلئ القلوب بالأحقاد والشحناء والبغضاء والكراهية والحسد. هذا الحال الذي يعيشه الناس في مختلف أنحاء العالم هو الذي يدفع كثيرا منهم إلى الانتحار، وإلى الارتماء في أوحال المسكرات والمخدرات، بسبب خواء قلوبهم من الإيمان والارتباط بالله عز وجل.

فساد القلوب سبب الهلاك يوم القيامة

وربنا سبحانه وتعالى بين لنا أن من يدخلون النار يوم القيامة إنما يدخلونها بسبب عمى قلوبهم وإظلامها وعدم فقهها وإيمانها بالله سبحانه، فقلوبهم تُعرض عن الحق والإيمان والهداية، ولا تتقبل هدايات الله سبحانه وتعالى في كتابه وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف: 179]. وقال سبحانه وتعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [الحج: 46]. فالإيمان مبناه ومستقره القلب، والكفر والنفاق مأواهما القلب. ولذلك فإن الله عز وجل لا ينظر إلى تصرفات الإنسان الظاهرية التي قد يخدع بها الآخرين فيعتبرونه مؤمنا أو خيّرا أو مصلحا، وإنما ينظر إلى القلب، فإن كان القلب مخلصا وصادقا وكانت الأعمال الظاهرة صالحة فإن الله عز وجل يتقبلها من صاحبها. أما إذا كان القلب فيه رياء أو نفاق أو نية سيئة فإن ما يظهر من أعمال هذا الإنسان أنها صالحة لا قيمة لها عند الله عز وجل، بل هي فاسدة عنده سبحانه وتعالى وصاحبها موزور عليها وليس بمأجور، فما دام الدافع إليها فاسدا فهي أيضا فاسدة، سواء كانت صلاة أو صدقة أو حجا أو عمرة أو غير ذلك من الأعمال المبرورة في أصلها. وهذا ما أكده النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: «إنّما الأعمالُ بالنِّيّات وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نوى...» [رواه مسلم]. وفي حديثه صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [رواه مسلم].

ضرورة تعهد القلب

ولذلك فالمؤمن العاقل هو من يتعهد قلبه، ويحرص على أن يكون قلبه سليما من الآفات، سواء في علاقته بالله عز وجل أو في علاقته بالناس. وهذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ربه، فيقول في دعائه: «اللهمّ اجعل في قلبي نورًا...» [رواه البخاري]. ويقول: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا» [رواه مسلم]. ويقول: «اللهمّ نَقِّ قلبي مِنَ الخطايا كما نَقَّيتَ الثَّوبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنَسِ» [رواه الترمذي]. ويقول: «اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ وَعَمَلِي مِنَ الرِّيَاءِ...» [رواه البيهقي]. ويقول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» [رواه الترمذي]. هذه الأدعية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بها. وهذا دليل على أهمية سلامة القلب وصفائه وطهارته، لأن استحقاق الجنة إنما يكون بذلك، قال تعالى: (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء: 88–89]. والقلب السليم هو ما صفا من النفاق والشرك والرياء واليأس والحقد والبغض والحسد والتشفي والكبر والاستعلاء، وغيرها من الأمراض النفسية والآفات القلبية. العاقل إذن من يحرص على سلامة قلبه، ولكي يحقق ذلك عليه أن يجتهد دوما في مراقبة قلبه وتفتيشه ليلا ونهارا، وتخليصه من أي آفة يمكن أن تدخله وتستقر فيه، لأن القلب هو وسيلة الحماية التي تحفظ الإنسان في دنياه وفي أخراه، فإذا فرط فيه فلا يلوم سوى نفسه. فالمؤمن هو من يفتش قلبه ويسأله يوميا عن علاقته بالله: هل يحب الله سبحانه وتعالى ويستشعر نعمه عليه؟ فيحرص على تثبيت إيمانه في قلبه بالتفكر في خلق الله وبقراءة كتاب الله وبكثرة الذكر والاستغفار، حتى تبقى شعلة إيمانه متقدة في قلبه. وأن يحرص على تثبيت وتقوية حب الرسول صلى الله عليه وسلم في قلبه فهو الذي أرسله الله عز وجل بالهداية. ويحرص أيضا على تثبيت حبه لدينه الإسلام الذي أخرجه الله به من الظلمات إلى النور في الدنيا، وباعتناقه له وعمله به يرجو النجاة من النار والفوز بالجنة في الآخرة. والعاقل أيضا من يحرص على تصفية قلبه مما يفسد علاقته بإخوانه المؤمنين، فمهما كان ما يمكن أن يحدث بينهم من خلافات أو منازعات أو خصومات، لا ينبغي أن يكون ذلك سببا إلى أن تتغاير قلوبهم وتقسوا تجاه بعضها البعض أو أن تُشحن بالأمراض القلبية التي تؤول إلى أن تفسد علاقتهم بالله عز وجل أيضا، لأن الله سبحانه وتعالى نهانا عن التنازع والتخاصم المفضي إلى التعادي، قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال: 46]. ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدنا أن نكون إخوانا متحابين متوادين متراحمين، قال: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا...) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ].

رمضان فرصة لإصلاح القلوب

إن شهر رمضان، وبصفة خاصة هذه الأيام والليالي العشر الأواخر منه، فرصة متهيئة ومناسبة سانحة، لأن نصفي قلوبنا وأن نصلحها وأن نداويها مما علق بها من أدران وأمراض، سواء في علاقتنا بالله عز وجل (الغفلة، الرياء، النفاق...) فنتوب إلى الله ونستغفره منها، أو ما كان منها في علاقتنا بإخواننا المؤمنين (الحسد، البغض، الحقد، الكبر، الهجر...)، فنحرص على إنهائها وتصفية قلوبنا منها. كيف لا، والصيام يربي قلب المؤمن على تقوى الله عز وجل ومراقبته واستشعار عظمته سبحانه، كما أنه يُحْيي في قلب المؤمن مشاعر التعاطف والتعاون مع إخوانه المؤمنين، وهو أيضا يهذب النفس ويربيها على الصبر وحسن الخلق وبذل المعروف. فعلينا أن نستجيب لنداء ربنا سبحانه وتعالى في قوله الكريم: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد: 16. كما أن علينا أن نكثر في هذه الأيام والليالي الفاضلة من الدعاء الذي علمنا إياه ربنا سبحانه وتعالى، وهو: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [الحشر: 10].

اقترن نزوله بليلة القدر

لماذا لا ننتفع بالقرآن في حياتنا؟



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

في حياتنا نحن المسلمين اليوم، ظاهرة جلية بارزة لا تخفى على مؤمن، وهي أننا لا ننتفع بالقرآن، ولا نتأثر به، ولا يظهر له أثر في سلوكاتنا، على الرغم منه أنه ما من إذاعة في العالم الإسلامي إلا وتبث القرآن في الصباح والمساء وفي أوقات مختلفة، وما من مسجد إلا وتُتلى فيه آيات الله، وما من بيت إلا وفيه عدة مصاحف، وما من مسلم إلا وهو يقرأ القرآن يوميا أو أسبوعيا، وحتى إن لم يقرأ في المصحف فهو يقرؤه في الصلاة، ومع ذلك كله لا أثر للقرآن في حياتنا.

فالقرآن ينهانا عن الغيبة والنميمة والتجسس والتحسس ونحن نفعل كل ذلك على أوسع نطاق.. القرآن ينهانا عن السرقة وفينا من يسرق علنا أو خفية.. القرآن ينهانا عن شرب الخمر وفينا من يشربها، ينهانا عن ممارسة الربا وفينا من يمارسه، يأمرنا بالمحافظة على العلاقات فيما بيننا ونحن نتفنن في تقطيعها، يأمرنا بأن نتناصر فيما بيننا ونحن نخذل بعضنا البعض. فكل ما نهانا عنه القرآن فعلناه، وكل ما أمرنا به القرآن تركناه، فأين أثر القرآن في حياتنا؟ نحن نقرأ القرآن أو نسمعه ولا نزداد به إيمانا، فهناك إذن خلل في تعاملنا مع القرآن.

ما هي الأسباب؟

هناك أسباب تمنعنا من الانتفاع بالقرآن، وتمنع تأثير القرآن في حياتنا ،أول هذه الأسباب: أننا فصلنا القرآن عن مصدره، فنحن لا نقرأ أو نسمع القرآن على أنه كلام الله، فهو بالنسبة لنا كأي كلام آخر، وهذه هي المشكلة الكبرى، فحين تقرأ القرآن على سبيل العادة، أو تقرؤه لكي تشغل وقتك فقط، أو تقرؤه طلبا للحسنات فقط، ولا تقرؤه لتعرف مراد الله عز وجل فيما هو مطلوب حتى تفعله وفيما هو منهي عنه حتى تتركه، وهذا تحريف لوظيفة القرآن. صحيح أن الله عز وجل أكرم المسلم بأنه إذا قرأ القرآن، فكل حرف بحسنة والحسنة بعشر أمثالها، لكن هذا لتيسير الانتفاع بالقرآن والتشجيع عليه، فحين يقبل الإنسان على القرآن ويحرص على قراءته طلبا لثوابه فالغرض هو أن ينفذ من قراءة القرآن إلى الانتفاع والعمل بما جاء فيه..

محمد إقبال رحمه الله حدث نفسه: كيف تأثر بالقرآن وكيف انتفع بالقرآن وكيف أن القرآن جعل منه عالما مشهورا، يقول: كنت في صغري أقرأ القرآن ولم أكن أفهم منه شيئا ولا أحس له بأي أثر، فشكوت ذلك لأبي، فقال لي: يا بني إذا أردت أن تتأثر بالقرآن فاقرأه كأنما أنزل عليك.. فلكي تتأثر بالقرآن ضع نفسك في مقام محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان ينزل عليه جبريل ويأتيه بهذا القرآن ويقرؤه عليه، عليك أن تتمثل هذا المقام وتقول في نفسك: لو أني كنت مكان محمد صلى الله عليه وسلم ونزل عليّ القرآن وأنا أعرف أن من يأتيني به هو جبريل عليه السلام وأنه جاء به مباشرة من رب العزة سبحانه وتعالى. ضع نفسك في هذا المقام وأنظر كيف سيكون تأثير القرآن عليك. فنحن مع الأسف نقرأ القرآن مفصولا عن مصدره وهو الله سبحانه وتعالى. صحيح اننا نعرف أن القرآن كلام الله، لكننا عندما نقرؤه أو نسمعه لا نستحضر هذا المعنى، بل ننساه في تلك اللحظات.

السبب الثاني: هو المعاصي، فلا يمكن أن ينتفع بالقرآن من هو متلبس بالمعصية، خاصة في مطعمه أو ملبسه أو مسكنه، فمن كان في طعامه شبهات من حيث مصدره يستحيل أن ينتفع بالقرآن أو يتأثر به حتى لو قرأه صباحا ومساء، لأن هذه المعصية تمنع التأثر حيث لا تمر الهداية إلى القلب. مثل ذلك من في لباسه شبهة أو حرمة، فهذا لا ينتفع بالقرآن. ومثله الذي يسكن في بيت بناه بالحرام أو بمال مشبوه، والذي يركب سيارة اشتراها بالحرام، ومثله الذي يتعامل بالحرام، كل هؤلاء لا يمكن لأحدهم أن ينتفع بالقرآن، لأن الانتفاع بالقرآن سمو وشرف، والله لا يشرف العصاة وإنما يقرب إليه من كان طاهرا زكيا.. ومع الأسف نحن مسلمي هذا العصر، إلا من رحم الله، أموالنا دخلتها الشبهات في عمومها، حتى ليكاد ألا يوجد من في مطعمه أو في ملبسه أو في مسكنه أو عمله شبهة، لأن من يعمل لا يتقن عمله، ومن يتاجر لا يتقن تجارته، ومن يصنع لا يتقن صنعته، ومن هو مسؤول لا يتقن مسؤوليته، فأرزاقنا فيها شبهات، ولذلك لا ننتفع بالقرآن.

السبب الثالث: ترك العلم الشرعي، لأن القرآن لكي تفهمه لابد أن تتوفر لديك معلومات شرعية أولية على الأقل، وتكون عندك معلومات لغوية، وتكون عندك معرفة بكيفية التعامل مع التفاسير والاستفادة منها، فإذا كنت مقطوعا تماما عن علوم الشرع فكيف يمكنك أن تفهم القرآن أو تنتفع بما فيه.. في العصور الأولى للأمة المسلمة كانت العلوم الشرعية ثقافة عامة، يعرفها الكبير والصغير، الرجل والمرأة، المتعمق في العلم والمكتفي بالحد الأدنى، لأنه لا يمكن أن يكون الإنسان مسلما فعلا ويتمثل الإسلام في حياته إذا لم يكن عنده معرفة بأحكامه. لكن منذ عدة قرون، عامة المسلمين انقطعوا عن هذه العلوم، وصارت في عصرنا تدرس كتخصصات علمية، أي أن القليل من المسلمين من يهتم بها ويدرسها، أما معظم الأمة فلا تعرف عنها شيئا. وهذه مأساة كبيرة، إذ كيف للأمة أن تتواصل مع كتاب ربها عز وجل وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم إذا كانت لا تعرف أحكام هذا الدين، ولا تعرف أبسط المبادئ والمعلومات عن القرآن، ولا تعرف أبسط المبادئ عن الحديث النبوي الشريف وعن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحياة صحابته. هذا الانقطاع يجعل المسلم يقرأ القرآن ولا يفهم منه شيئا.

إضافة إلى الانقطاع عن اللغة العربية، فنحن نتحدث العربية الدارجة، لكن اللغة العربية التي بها نفهم القرآن لا نعرفها ولذلك لا نفهم القرآن. وهذه مسؤولية المسلمين جميعا، وليست مسؤولية العلماء وحدهم، لأن العالم لا يمكنه أن يذهب إلى كل مسلم ليعلمه في بيته، وإنما الواجب أن يسعى المسلمون إلى التعلم والدراسة وفهم القرآن على أيدي العلماء.

إذن، الانقطاع عن العلوم الشرعية، أو على الأقل عن المبادئ الأولية للعلوم الشرعية، هذا جعل الإنسان المسلم لا يعرف دينه، لأن الدين إنما يعرف من القرآن والسنة، فإذا لم توجد وسيلة فهم القرآن والسنة واستفادة الدين منهما، لا يكون هناك انتفاع، وتصبح قراءة القرآن مقصودة للحصول على الحسنات لا غير،

شروط الانتفاع بالقرآن

والانتفاع بالقرآن له شروط لا يتحقق إلا بها.

أولها: أن تقرأ القرآن وأنت مؤمن أن هذا كلام الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى يخاطبك به شخصيا، فكل أمر فيه أنت معنيٌّ بامتثاله، وكل نهي فيه أنت معنيٌّ بترك هذا الذي نهاك عنه، اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك وكأنك أنت المخاطب به دون غيرك. قال تعالى: (الم × ذَ□لِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ □ فِيهِ □ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ × الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ × وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ × أُولَ□ئِكَ عَلَى□ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَ□ئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [البقرة: 1–5].

ثانيها: اقرأ القرآن وأنت متطهر، طهر مطعمك وملبسك، طهر كسبك بصفة عامة، فإن لم تتطهر لن تنتفع بالقرآن، لأن القرآن لا ينتفع به إلا المتطهرون بدنيا ونفسيا وروحيا واجتماعيا وسلوكيا. قال تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ × فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ × لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ × تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) [الواقعة: 77–80].

ثالثها: تعلم شيئا من المبادئ التي لا يمكن فهم القرآن إلا بها، فلابد أن تعرف كيف أنزل الله هذا القرآن على رسوله؟ ما هي المناسبات التي كان ينزل فيها؟ كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرؤه على المسلمين؟ كيف كان يقرؤه على المشركين؟ ما هي محتويات هذا القرآن؟ ما مقاصده؟ لماذا أنزله الله؟.. أحد أهم الأهداف من نزول القرآن أن يتخذه المسلم رباطا بينه وبين ربه عز وجل، وأن يكون منهاج الحياة للإنسان المسلم وللجماعة المسلمة وللأمة المسلمة، هذه أهداف لابد للمؤمن أن يعرفها.. القرآن هو الذي يميز للمسلم بين الخير والشر، بين الحق والباطل، فمعيار القرآن هو المعيار الصحيح الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يخضع لهوى أحد أو مصلحته، أما غيره من المعايير فكلها باطلة، لأنها خاضعة لأهواء أصحابها وهي متغيرة بتغير مصالحهم، فالمؤمن لكي يعرف هل هو على صواب أو على خطأ، وهل هو على هداية أو على ضلال، عليه أن يزن نفسه بميزان القرآن.

وَرَدَ الأمرُ به في القرآن والسنة

الرفق أفضل أسلوب في إدارة الحياة



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

مما هو ملاحظ في حياتنا: شيوع العنف القولي والعنف الفعلي في مختلف مجالات الحياة. فنحن كثيرا ما نلجأ إلى استعمال أسلوب العنف والخشونة والحِدّة، ونتصور أن هذا هو الأسلوب الصحيح والحسن، سواء في دائرة الأسرة أو في العلاقات مع الجيران أو في العلاقة مع زملاء العمل أو في التربية والتعليم أو في الإدارة أو في الصحة أو في غير ذلك من المجالات، حيث الأسلوب الشائع هو العنف، والعنف ليس بالضرورة هو الضرب، وإنما العنف في الألفاظ والعنف في تسيير الأمور. هذا الأسلوب لا خير فيه، وهو مرفوض في ديننا الحنيف، ولا يأتي أبدا بنتائج حسنة، وإنما يأتي دائما بنتائج سيئة، فيفسد العلاقات ويعطل المصالح.

الرفق أصح الأساليب وأحسنها

الأسلوب الصحيح والمنهج السليم الذي جاء به الإسلام هو أسلوب الرفق واللطف، فقد روى الإمام مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أَنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنّ الرِّفقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إلّا شَانَهُ». زانَه: زيّنَه.. شانه: أفسده وشوهه. والرفق هو اللطف والمرونة، هو استعمال اللين، هو استعمال الأسلوب الذي يُرغّب الغير في التفاعل، واستبعاد كل ما من شأنه أن يمنع التفاعل أو يعرقل قيام العلاقات الحسنة مع الآخرين. والرفق ضده هو العنف والحِدّة، سواء في القول أو في الفعل.

في هذا الحديث يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحسن أسلوب ينبغي للمؤمن أن يستعمله في ذاته وفي محيطه، وينبغي للمؤمنين أن يستعملوه فيما بينهم في تعاملاتهم هو أسلوب الرفق، لأن الرفق إذا وجد في العلاقات والمعاملات فهو يُزينها ويُحسّنها ويجعلها تؤتي ثمارها، بينما عندما يُنتزع الرفق أو لا يُستعمل في هذه العلاقات فإنها تفسد وتؤدي إلى نتائج سلبية، فلا يكون هنالك محبة بين الناس ولا مودة ولا تراحم، فتتعطل أمورهم أو لا تقضى مصالحهم إلا بعسر ومشقة.

وليس المقصود بالرفق: الميوعة أو الضعف أو التساهل فيما لا يجوز التساهل فيه أو عدم أخذ الأمور بجد، ليس هذا هو الرفق المطلوب، وإنما المراد به أخذ الأمور ببساطة وبدون عنف، فالأمور لابد أن تدار بالحزم لكن مع الحكمة والإحسان، فمثلا الأب الذي يريد ابنُه أن يفعل شيئا أو يريد الحصول على شيء غير مناسب أو غير مشروع، لا يجوز له أن يتركه يفعل ما يريد، لكن لا ينبغي أن يستعمل العنف (الكلام الجارح أو الضرب) في منعه منه، وإنما يحرص بالحكمة على أن يصرفه عنه ويوجهه إلى غيره مما هو أفضل منه وأحسن.

لماذا كان الرفق هو الأسلوب الأمثل؟

أولا: لأن الله تعالى رفيق، فهو يعامل عباده بالرفق، ويحب أن يتعاملوا فيما بينهم بالرفق واللطف. عن عائشة رضي الله عنها: أَنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي عَلى العُنفِ، وَما لا يُعْطي عَلى مَا سِوَاهُ» [رواه مسلم]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الرِّفق في الأمر كله» [متفق عليه].

وثانيا: لأنه تعالى حَلّى نبيه صلى الله عليه وسلم بخلق الرفق في المعاملة ومدحه به، قال سبحانه: (وَإِنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: 4]. وقال عز وجل: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران: 159]. وقال عز وعلا: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء: 215]. وقال سبحانه: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: 128].

وهذا ما كانت عليه معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للناس في الواقع، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قَالَ: بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي المسجد، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيهِ، فَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «دَعُوهُ، وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُم مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» [رواه البخاري]. وثالثا: لأنه سبحانه وتعالى أمر المؤمن أن يعامل غيره باللطف حتى تلين القلوب ولا تتعادى، قال عز وجل: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت: 34].

ورابعا: لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذر من لا يتعامل بالرفق من الحرمان، عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ» [رواه مسلم]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أعطي حظه من الرِّفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرِّفق حرم حظه من الخير» [رواه الترمذي]. كما أنه دعا على كل من يتولى مسؤولية في أمته مهما كانت، ولا يستعمل الرفق ويتعامل بالعنف، عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي بيتي هَذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ» [رواه مسلم].

من مجالات الرفق

لابد - إذن - من الأخذ بالرفق في كل الشؤون، في الأسرة، والمدرسة، والمستشفى، والإدارة، وسائر المجالات والمؤسسات.

فالأسرة هي البيئة الأولى التي ينبغي أن يكون الرفق هو أساس التعامل بين أفرادها، لأن العلاقات التي تربط بينهم هي علاقات حميمة، قال تعالى في وصف العلاقة بين الزوجين: (هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ) [البقرة: 187]. وقال سبحانه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: 21]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أعطي أهل بيت الرفق إلا نفعهم» [رواه الطبراني]. لكن الملاحظ في الواقع أن هناك أُسَرا لا يتعامل أفرادها فيما بينهم بالرفق، فلا تراحم ولا مودّة ولا تعاون بين الزوجين، يصرخان في وجهَيْ بعضهما ويشتمان بعضهما، ويتعاملان مع أولادهما بنفس الأسلوب المقرون بالضرّب والجرْح، مما يجعل هذه الأسرة تتحول إلى بؤرة للعنف، فيتربى الأبناء عليه ويكبروا وهم لا يعرفون من الأساليب سواه، وهو ما سينعكس على حياتهم الشخصية والاجتماعية وعلى علاقاتهم بوالديهم في المستقبل، لذلك ينبغي للآباء أن يستعملوا أسلوب الرفق، لأن الأسرة هي أساس المجتمع، وأعظم مسؤولية هي مسؤولية إدارة أسرة.

وكذلك الحال بالنسبة للتربية والتعليم، فهي من أكثر البيئات حاجة إلى استعمال الرفق واللطف، فالتعليم هو تلقين الإنسان معلومات ومهارات يحتاجها في حياته، والتربية هي تهذيب أخلاقه وتهيئة نفسيته ليكون إنسانا صالحا نافعا لنفسه ولمجتمعه. وكلا هذين الأمرين يحتاجان لتحقيقهما إلى أرق أساليب التعامل وألطفها، فعندما يُستعمل العنف في هاتين المهمتين فإنهما ستخفقان ولا تحققان أي نتيجة تذكر، وهو ما سيؤدي إلى إعراض التلاميذ عن التعليم وهروبهم من المؤسسات التعليمية والتربوية، فلا يحصلون من التربية والتعليم على ما يصلح نفوسهم ويهيئهم للانتماء إلى المجتمع والمشاركة في خدمته.

مثل ذلك ما يتعلق بمجال الدعوة والإصلاح؛ فالداعية أو المصلح يدعو الناس إلى الخير، وهو أحوج الناس إلى استعمال أسلوب الرفق واللين، لأن استعمال أسلوب العنف اللفظي سيؤدي إلى نتائج عكسية، حيث سينفر الناس منه ويعرضوا عن دعوته، وربما وقفوا في وجهه ومنعوه من مواصلة الدعوة والإصلاح، وهذا ما يعلمنا إياه ربنا سبحانه وتعالى من خلال قصة موسى وهارون مع فرعون، فقد أمرهما بالذهاب إليه ومخاطبته بلطف ورفق، قال تعالى: (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) [طه: 43-44]. ومثل ذلك الإمام الذي يصلي بالناس عليه أن يرفق بهم ويراعي ضعفاءهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أمّ الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة» [رواه البخاري ومسلم].

ومثله كذلك مجال ممارسة المسؤولية في مؤسسة من المؤسسات الإدارية أو الاقتصادية أو الثقافية أو غيرها من المؤسسات، فالمدير أو المسؤول يلزمه أن يدير مؤسسته باللطف واللين والرفق وكسب قلوب المرؤوسين، بدلا من أسلوب العنف الإداري الذي يؤدي إلى توتر العلاقات داخل المؤسسة وتراجع مردودها وتعطل المصالح التي تحققها للمجتمع.

وهكذا يتبين لنا أن الرفق هو الأسلوب الأمثل والأفضل في تعامل الإنسان مع كل من يتصل بهم، وفي كل الدوائر التي يتحرك فيها، وبدونه تختل حياة الإنسان وتفسد علاقاته، فيفقد طمأنينته وسعادته.

ضرورية لكل مؤمن

وقفة مع الذات في نهاية شهر رمضان



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

أيام شهر رمضان الفضيل توشك على الانقضاء، وأوقاته النفيسة العامرة بالخيرات والبركات تشرف على الانتهاء، ولابد للمؤمن المجتهد في طاعة ربه والحريص على نوال مرضاته - وهو يستعد لتوديع هذا الشهر الكريم - من وقفة محاسبة ومراجعة مع الذات، يمحص فيها نفسه ويفتش قلبه ويراجع أعماله، ويحكم بنفسه على نفسه.

أسئلة ضرورية

لا بد للمؤمن في هذه الوقفة أن يسأل نفسه فيما بينه وبينها أسئلة صريحة وواضحة لا لبس فيها ولا غموض منها: لقد شرع الله عز وجل الصيام لتحقيق التقوى في حياة كل مؤمن: في علاقته بربه، وفي ذات نفسه، وفي معاملاته مع غيره، فهل راعيتُ هذا المقصد الرباني واستحضرته في صيامي خلال هذا الشهر الكريم؟ هل صيامي طيلة هذا الشهر نفعني فعلا في حياتي الحاضرة وسينفعني في حياتي المستقبلة ويجعلني أقرب إلى الله عز وجل أكثر مما مضى؟ هل سأخرج من هذا الشهر بزاد من التقوى يمكنني من مجابهة فتن الحياة وشهواتها وشبهاتها فيما سأستقبل من أيام بعد رمضان؟

إن هذه المحاسبة للنفس ضرورية لكل مؤمن، لأنه إنسان، والإنسان بطبيعته ينسى ويغفل، بينما أعداؤه المتربصون به: من نفس تأمر بالسوء، وشيطان يوسوس بالشر، ودنيا مغرية بألوان الشهوات، ورفاق سوء يجرون إلى المهالك، وشياطين من الإنس لا يكفون عن التخطيط للشر وتنفيذه، هؤلاء الأعداء المتربصون بالمؤمن لا يغفلون عنه ولا ينسونه ولا يكفون عن اجتذابه واستدراجه إلى ترك الطاعة والإقبال على المعصية، وإن لم ينالوا منه ذلك اكتفوا منه بإفساد طاعاته وعباداته وتفريغها من محتواها حتى لا ينتفع بها في دنياه ولا في آخرته.

محاسبة النفس حماية لها

إن اتهام النفس بالتقصير ومحاسبتها من آداب الصالحين، وخصال المخلصين، روى الترمذي أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60]: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61]».

وما لم يداوم الإنسان على محاسبة نفسه وحملها على سلوك طريق الحق كلما همت بالانحراف عنه، يوشك أن يقع في الشباك المنصوبة له ويتردى في المعاصي كبيرها وصغيرها. قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا × فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا × قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا × وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]. وروى الترمذي عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»، قال الترمذي: "معنى قوله «دان نفسه»: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحَاسَبَ يومَ القيامة". ويُروى عن عُمَرَ بن الخَطَّاب رضي الله عنه أنه قال: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا". ويُروى عن ميمون بن مهران رحمه الله أنه قال: "لا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ". وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: "إِنَّ الْعَبْدَ لا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ".

فالمؤمن اللبيب العاقل الفطن هو من يحاسب نفسه في هذه الدنيا ويزكيها ويطوعها لربه عز وجل ويحذرها من غضبه وعقابه، أما الغافل اللاهي فهو من يتقلب في أوحال المعاصي ولا يطهر نفسه ولا يمنعها من ارتكاب ما يسخط الله عز وجل.

هل حقق الصيام مقصده؟

ولا شك أن أول ما ينبغي للمؤمن أن يحاسب عليه نفسه، هو علاقته بالله عز وجل: هل كان الصيام بالنسبة لي عبادة وصلة بالله أم كان مجرد عادة درجتُ عليها وألفتُها؟ هل أصلحت علاقتي بربي سبحانه وتعالى في هذه الأيام التي مضت من رمضان؟ هل أخلصت بصيامي وقيامي لربي عز وجل؟ هل ازدادت مراقبة الله عز وعلا في قلبي وصرت أشعر - أكثر من ذي قبل - برقابته عليّ في كل قول وعمل؟ هل صيامي وقيامي مما يرضي ربي عنّي ويجعلني أهلا لنوال مرضاته والنعيم في جنته والنجاة من عذابه؟ هل أصبحت أكثر حرصا على أداء الصلوات المكتوبة في وقتها ومع الجماعة؟ هل صرت أحس بمزيد من الخشوع وحضور القلب في صلاتي أم أن حالي لا يزال على ما كان عليه من شرود وتفكير في شؤون الدنيا في أثناء الصلاة؟ هل رتبت لنفسي أورادا من النوافل والدعاء وذكر الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الأيام المباركة؟ هل انتفعت من أيام رمضان بالعودة إلى تلاوة القرآن وتجديد الصلة به؟ هل ألزمت نفسي بالتصدق بما أمكن من مال تقربا إلى الله عز وجل وابتغاء لمرضاته؟

هل رق القلب بعد قسوة؟

وثاني ما ينبغي للمؤمن أن يحاسب نفسه عليه هو علاقته بذاته هو، وهنا ينبغي لكل واحد منا أن يسأل نفسه: هل رق قلبي بعد قسوة أم لا يزال على حاله التي كان عليها قبل رمضان؟ هل أنا مهتم أكثر من أي وقت مضى بإنقاذ نفسي من النار؟ هل حرصت على أن أجعل من شهر رمضان فرصة لتزكية نفسي وتطهيرها وتغيير أفكاري الخاطئة وترك عاداتي السيئة؟ هل جعلت من رمضان فرصة لترك المعاصي والإقبال على الطاعات؟ هل صامت جوارحي كلها أم صام البطن والفرج فقط عن شهوتيهما؟ هل كفت عيناي عن النظر إلى الحرام؟ هل انتهت أذناي عن الاستماع إلى ما لا يجوز من الكلام؟ هل توقف لساني عن الخوض في اللغو والكذب والغيبة والنميمة وسائر معاصي اللسان؟ هل امتنعت رجلاي عن السير إلى ما لا يرضي الله؟ هل كففت يدي عن إيذاء الآخرين أو الامتداد إلى ما لا يحل لي من مال أو متاع؟

هل تحسنت العلاقة مع المؤمنين؟

أما ثالث ما يجب على المؤمن أن يحاسب نفسه بشأنه، فهو علاقته بالآخرين من حوله: هل تهذبت أخلاقي وتحسنت معاملتي مع الآخرين في هذا الشهر الكريم؟ هل عرفت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [رواه البخاري]. فحرصت على ألا أؤذي أحدا ولا أعتدي على أحد؟ هل اجتهدت كي أصبح متسامحا أكثر مما مضى أم وجدت نفسي أزداد شراسة وغلظة بمناسبة هذا الشهر؟ هل سامحت من أخطؤوا في حقي؟ هل ازدادت درجة الصبر على الأذى عندي أم صرت لا أطيق أذى أحد أكثر مما سبق؟ هل عملت بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ» [رواه البخاري ومسلم]؟ هل دعوت صائما إلى الإفطار معي، عملا بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا» [رواه الترمذي]؟. هل ازداد مستوى الشعور بالرحمة والشفقة تجاه الضعفاء والمحرومين والمعوزين في قلبي أكثر مما مضى، عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» [رواه أبو داود]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [رواه البخاري]، أم لا أزال لا أهتم إلا بنفسي ولا يعنيني شأن غيري؟

هذه نماذج من الأسئلة التي ينبغي على كل واحد منا أن يحاسب بها نفسه، حتى يعرف هل هو بصدد التقدم في مدارج التقوى والترقي في درجات القرب من الله، أم أنه لا يزال يراوح مكانه وما فتئ يكرر ما كان عليه قبل رمضان من ارتكاب للأخطاء والخطيئات ووقوع في المعاصي والمحرمات وممارسة لسيئ العادات.

ونحن - بهذه المحاسبة - نعترف لله بتقصيرنا، ولا نطمع أن ندخل الجنة بأعمالنا، لأنه لو يحاسبنا بنعمه في مقابل أعمالنا لخسرنا في الحساب خسارة فادحة، ولذلك نحن نرجو أن ندخل الجنة بفضل الله وبرحمته، أما الأعمال فنجتهد فيها ونداوم عليها قدر استطاعتنا، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتقبلها منا ويغفر لنا تقصيرنا فيها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ»، قالوا: ولا أنت، يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ» [أخرجه البخاري ومسلم].

بها تتم عبادة الصيام

وظائف ختام شهر رمضان



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

نحن في ختام شهر رمضان، وفي المرحلة الأخيرة من عبادة الصيام، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الله تعالى يُحبّ إذا عَمِلَ أحدُكم عَمَلاً أنْ يُتْقِنَهُ» [أخرجه أبو يعلى والطبراني ﵀]، والصوم عمل، والعبادة في هذا الشهر الكريم عمل، وهذا العمل يلزمه الإتقان. وحتى يكون العمل متقنا فيجب أن تتمه كما بدأته أو تتمه أحسن مما بدأته. قال النبيّ صَلّى الله عَلَيْه وَسَلّمَ: «إنّما الأعْمَالُ بالْخَوَاتِيم» [رواه ابن حبان ﵀].

كثير من المسلمين في بداية الشهر يأخذهم الحماس ويُقبلون على المساجد وعلى الصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، ولكنهم شيئا فشيئا يتراخون ويتكاسلون ويتراجع حماسهم وينقص إقبالهم على العبادة. وهذا يتعارض مع مبدأ الإتقان، فهؤلاء الناس لم يتقنوا أعمالهم، ولذلك لا يحققون مرضاة الله عليهم على أفضل وجه. فحتى يكون العمل مكتملا ويكون الأجر عليه تاما ويكون الثواب عليه وافيا، ويكون أثره في حياة المؤمن أثرا فعالا يأتي بنتائج في علاقته بالله وفي علاقته بنفسه وفي علاقته بغيره، لابد أن يكون العمل متقنا.

ولكي يكون صيامنا متقنا وتكون عبادتنا في هذا الشهر تامة، لابد من الحرص على وظائف آخر شهر رمضان، وهذه الوظائف معروفة، ونحن نذكر بها فقط:

أولا: صدقة الفطر

أول هذه الوظائف هي صدقة الفطر، وصدقة الفطر إنما وجبت بالفطر؛ أي أن الفطر هو سبب وجوبها، فمن أدركه غروب شمس آخر يوم من رمضان (هلال شوال) يجب عليه إخراج صدقة الفطر، وهذه الصدقة أو الزكاة واجبة على كل إنسان مسلم، كبيرا أو صغيرا، امرأة أو رجل، رضيع أو طفل أو شاب أو كهل أو شيخ أو عجوز، فهي زكاة على الرؤوس وليس على الأموال. عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: "فَرَضَ رَسُولُ الله ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ].

وصدقة الفطر - كما هو معلوم من أحكام الشرع - يجب إخراجها قبل الخروج لصلاة العيد، فوقت وجوبها الذي لا يجوز أن تؤخر عنه هو من غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى الخروج لصلاة العيد، لكن يمكن إخراجها قبل ذلك بيوم أو يومين لحاجة الفقراء. عن ابنِ عبّاسٍ رَضيَ الله عنهما قال: "فرَضَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم زكاةَ الفِطرِ؛ طُهرةً للصّائمِ مِنَ اللّغوِ والرّفَث، وطُعمةً للمساكينِ، مَن أدّاها قبل الصّلاةِ فهي زكاة مقبولةٌ، ومَن أدّاها بعد الصّلاةِ فهي صدقةٌ مِنَ الصّدَقات" [أخرجه أبو داود وابن ماجه]. وهذه الصدقة يخرجها الإنسان عن نفسه وعن كل من ينفق عليه؛ من والدين كبيرين لا دخل لهما، ومن زوجة وأولاد، وكل من ينفق عليهم. وهذه الصدقة كذلك، يخرجها الغني والفقير على سواء، فحتى الفقير الذي تُعطى له صدقة الفطر، عليه هو كذلك أن يخرج صدقة الفطر، فكل من يملك ما يكفيه ليوم العيد، يجب عليه الصدقة مما زاد على ذلك، فهي صدقة تضامنية واجبة يشترك فيها جميع المسلمين دون استثناء.

ثانيا: التكبير عند ظهور هلال شوال

قال تعالى: (وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة: 185]. فإذا رأيت هلال شوال أو سمعت ان العيد غدا، تكبر: "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد". وهذا التكبير تعبير عن شكر الله عز وجل على هذا الفضل المتمثل في توفيقك وإعانتك على صيام الشهر كله وبلوغ تمامه إلى حين الإفطار منه، فتشكر الله عز وجل على نعمة القوة والصحة التي تمكنت بها من الصيام، وعلى نعمة الطعام الذي كنت تفطر عليه وتتسحر عليه، وعلى ما أعطاك من نعمة القوة لتصلي التراويح وتكسب الثواب والأجر، كل ما أنت فيه هو نعمة من الله عز وجل عليك، فمن واجبك أن تشكره سبحانه وتعالى، وشكر الله عز وجل يكون بتكبيره، بأن تقول: الله أكبر، الله أكبر من كل شيء، والله أكبر من كل ما يمكن أن تكون له قيمة في هذه الدنيا، لأنه عز وجل خالق كل شيء، ورازق كل شيء، وحافظ كل شيء، وهو المسير المتصرف في هذا الكون، وليس لأحد معه حكم أو تصرف في أي شيء.

ثالثا: إظهار الفرح بالعبادة

مما ينبغي للمؤمن كذلك ليكون عمله تاما متقنا: أن يُظهر الفرح بعبادته، وأن يُظهر الفرح عندما يعرف بحلول عيد الفطر، وهذا الفرح معناه الاستبشار بنعمة الله، فالمؤمن يفرح لأن الله عز وجل أحياه حتى شهد رمضان، ويفرح لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه القوة التي بها تمكن من صيام رمضان، ويفرح لأن الله أعانه فأقبل إلى المسجد ليصلي ويقوم رمضان مع المؤمنين، ويفرح لأن الله مد في حياته حتى صام رمضان كله، ويفرح لأن الله أبقاه حتى شهد العيد مع المؤمنين، فهذه كلها أسباب تدعو إلى الفرح، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للصّائم فرحتانِ : فرحة حينَ يفطرُ، وفرحةٌ حينَ يَلقى ربّهُ» [رواه البخاري]؛ فالصائم يفرح كل يوم عندما يفطر لأن الله وفقه لصيام ذلك اليوم، ويفرح عند نهاية الشهر لأن الله عز وجل وفقه لصيام الشهر كله، ويفرح لأنه يرجو أن يكون قد نال ثواب هذا الصيام، ويفرح لأنه يرجو أن يكون قد نال ثواب القيام.

«وفرحةٌ حينَ يَلقى ربّهُ»، فعندما تلقى الله عز وجل ويُعرَض عليك كتابُك، وتقرأ فيه أن صيامك أعطاك الله عز وجل عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا لم يكن في حسبانك، وفاء بوعده عز وجل في الحديث القدسي: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له إلّا الصّوْمَ، فإنّه لي وأنا أجْزِي به» [رواه البخاري]، يومئذ تفرح بجائزة الله لك. فالصيام لم يحدد الله عز وجل مكافأته، ويوم القيامة يمكن للمؤمن أن يفتح كتابه فيجد جبالا من الحسنات وهو يعرف من نفسه أنه لا يستحق كل هذه الحسنات، فيقال له: هذا أجر صيامك الذي كافأك الله عليه، ولذلك يطير المؤمن فرحا عند لقاء ربه لما يجده من الثواب الذي لا حدود له على صيامه، لأنه يستبشر حينئذ بأنه سيكون من أهل الجنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه: «في الجنّةِ ثَمانِيَةُ أبْوابٍ، فيها بَابٌ يُسَمّى الرّيّانَ، لا يَدْخُلُهُ إلّا الصّائِمُونَ» [رواه البخاري].

رابعا: كثرة الاستغفار

مما ينبغي للمؤمن أن يحرص عليه في نهاية هذا الشهر: أن يكثر من الاستغفار، لأنه كثير الخطأ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطّائِينَ التّوّابُونَ» [رواه الترمذي وابن ماجه]؛ فكل إنسان بدون استثناء إلا من عصمه الله خطاء، لكن أفضل الخطائين هم الذين يكثرون الاستغفار ويقولون: (رَبّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) [آل عمران: 147]. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر ربه في اليوم أكثر من مائة مرة، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، مع أنه لا ذنوب له. ومن ذلك أنه كان يستغفر دبر كل صلاة. فعن ثوبان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [رواه مسلم]. وكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه عليه الصلاة والسلام، فلما سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لكَ ما تقدم من ذنبك، وما تأخر؟ أجابها قائلا: «أفَلا أُحبُّ أنْ أكُونَ عبْداً شكُوراً» [متفق عليه]. فعلينا أن نكثر من الاستغفار، لأننا لا ندري لعل عبادتنا فيها خلل، وأكيد فيها خلل، وفيها نقص، وربما الإنسان وهو صائم صدرت منه كلمة لم يعطها قيمة وهي مما تهتز له السماوات والأرض، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنّ العَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بالكَلمة مَا يَتَبيّنُ فيهَا يَزِلُّ بهَا إلَى النّارِ أبْعَدَ ممّا بيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ» [متفق عليه]، وما أكثر ما تصدر منا كلمات لا ننظر في معانيها وهي كلمات كبيرة جدا. وربما ينظر الإنسان نظرة سيئة، وربما يسيئ الظن بأخيه المؤمن، وربما يعتدي على غيره، وما دام الإنسان يعيش في مجتمع فلابد أن يخطئ في حق نفسه وفي حق غيره، ويخطئ غيره في حقه، وهو ما يوجب عليه الندم والتوبة وكثرة الاستغفار.

هذه أهم الوظائف التي يحسن بكل مؤمن أن يحرص على الوفاء بها في ختام هذا الشهر، لعل الله عز وجل يقبلها منه، ويجعلها سببا لقبول صيامه وقيامه ومكافأته عليه بما يستحق من أجر وثواب.

تحقيق معنى الشهادتين

من معاني العيد في الإسلام



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

ميز الله عز وجل أمة النبي محمد عليه الصلاة والسلام عن غيرها من الأمم بعيدين مباركين. كل منهما يأتي بعد الانتهاء من أداء عبادة عظيمة وركن ركين من أركان الإسلام. فعيد الفطر يأتي مباشرة إثر الانتهاء من أداء فريضة الصيام في شهر رمضان، وعيد الأضحى يأتي متمما ومقترنا بأداء مناسك الحج في رحاب بيت الله الحرام.. ونحن، إذ نستقبل عيد الفطر المبارك، جدير بنا أن نعرف المعاني الربانية المقترنة بهذا العيد والمقاصد السامية التي لأجلها شرع الاحتفال به والفرح فيه.

تحقيق معنى الشهادتين

وأول معاني العيد في الإسلام: توحيدُ الله تعالى بإفراده سُبحانه وتعالى بالعبادة في الدّعاء والخوف والرّجاء والاستعاذة والاستعانة والتوكل والرغبة والرهبة وغير ذلك من أنواع الصلة بالله، وهذا التوحيدُ هو أصل الدّين الذي ينبني عليه كلّ فرع من فروع الشريعة، وهو تحقيق معنى "لا إله إلا الله" المدلول عليه بقوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5]، الذي نقرؤه في صلاة العيد وفي غيرها من الصّلوات. والتوحيدُ هو الأمر العظيم الذي بتحقيقه يدخل الإنسان جنّات النعيم، وإذا ضيّعه الإنسان لا ينفعه عمَل. فالعيد شكر لله على تمام العبادة، لا يقولها المؤمنون بألسنتهم فحسب، ولكنها تختلج في سرائرهم رضا واطمئنانا، وتتجلي في علانيتهم فرحا وابتهاجا، وتسفر في نفوسهم أنسا وبشرا.

وكذلك تحقيق معنى شهادة أنّ محمّدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام التي تنطق بها في التشهّد في صلاة العيد وغيْرها من الصلوات، إذ معنى شهادة أنّ محمّدًا رسول الله: طاعة أمره واجتنابُ نَهيه وتصديق أخباره وعبادةُ الله بما شرَع مع محبّته وتوقيره، قال الله تعالي: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ▯ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) [النور: 54].

الفرح بأداء العبادة

ومن معاني العيد أيضا: الفرح بأداء العبادة والاشتغال بما يرضي الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى ما خلق عباده إلا ليعبدوه ويتقربوا إليه ويحرصوا علي مرضاته، كما قال عز وجل: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: 56]. فإذا استطاع الإنسان أن يُطوّعَ نفسه لربه عز وجل ويجتهد في طاعته ويواظب على عبادته ويطمئن قلبه وتخشع جوارحه في حضرته، كان مستحقا للفرح بذلك، ولا شك أن الهداية إلى الصراط المستقيم وقبول الله لعبده ضمن عباده المتقين، نعمة عظيمة تستحق الحمد والشكر والثناء على الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: 57-58]. ومن مظاهر شكر الله عز وجل: تكبيرُه وتعظيمُه، وهو ما شرع سبحانه وتعالى لعباده أن يكثروا منه ويحرصوا عليه في أيام العيد، قال تعالى تعقيبا على آيات الصيام: (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة: 185]. فالتكبير علامة الفرح وآية الشكر ودليل الرضا، لأنه يعني أن المؤمن يمحض العبودية لربه عز وجل ولا يعترف بالفضل إلا له سبحانه وتعالى، وأن قلبه لا يمتلئ بالتعظيم لأحد غير الله ولا يرجو أحدا سواه ولا يخاف إلا منه عز وعلا.

وهو كذلك تعبير عن الاعتقاد المطلق بأن شرع الله عز وجل هو الحق المبين وأنه – دون غيره – الأجدر بالاتباع لأنه وحده الهدى والصراط المستقيم وكل ما عداه من مذاهب وملل ونحل مسالك وسبل تقود إلى الانحراف والضلال والشقاء في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [آل عمران: 85]. وقال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الصف: 7]. وإن في ذلك لعبرة لنا نحن المسلمين المعاصرين، لنتمسك بتعاليم ديننا ونحرص على تطبيقها وتجسيدها في حياتنا العملية في الشؤون المختلفة، ونشعر بالفخر والامتنان لربنا عز وجل إذ أكرمنا بالهداية إلى دينه وجعلنا من أتباع خاتم رسله وأنبيائه.

تحقيق الأخوة الإسلامية

ومن معاني العيد ومقاصده الربانية: تحقيق الأخوة الإسلامية وتجسيد صورة المجتمع المسلم الملتزم بمبادئ الإسلام وأحكامه، والتي حددها ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ▯إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ▯ [الحجرات: 10]، وقوله: ▯وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ▯ [التوبة: 71]. ورسمها رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى شيئا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". وفيما أخرجاه أيضا عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا". وشبك عليه الصلاة والسلام بين أصابعه.

هذه الأخوة إنما تتجسد حين يتضامن المؤمنون فيما بينهم، ويسأل غنيهم عن فقيرهم، ويرحم قويهم ضعيفهم، ويتواضع كبيرهم لصغيرهم، وتسود المودة والمحبة والتراحم علاقاتهم ومعاملاتهم، وهذا التضامن لا يكون بمجرد المشاعر القلبية المفصولة عن السلوك العملي، بل يجب أن يترجم في شكل مبادرات واقعية، ويأتي على رأس هذه المبادرات التي ينبغي الحرص عليها في العيد: أن يجتهد الأغنياء القادرون في إشراك الفقراء المحتاجين والمساكين المعوزين في الفرح بالعيد والاستبشار بقدومه، وفي هذا السياق يأتي حديث نبوي شريف يتضمن معنى عميقا يجدر بالمسلمين جميعا أن ينتبهوا إليه، لأنه من قيم الدين المنسية في حياتنا نحن المسلمين المعاصرين، فقد روى مسلم فى صحيحه وأبو داود في سننه وأحمد في مسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ". قَالَ أبو موسى: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ. والمعنى الواضح للحديث: أن المُسلم لا يحق له أن يستأثر بشيء مما يملك، ويمنعه إخوانه المسلمين وهو زائد عن حاجته، هذا في سائر الأيام، فكيف بالأيام التي تشتدّ فيها حاجة الفقراء والمساكين والضعفاء؟

ومن مظاهر هذا التّكافل الإسلاميّ: زكاةُ الفطر التي فرضها النبيّ صلى الله عليه وسلم على المسلم صَغيرًا كان أو كبيرًا.. وزكاة العيد مع أنها طهرةٌ للصّائم من اللّغو والرّفث وطعمة للمساكين، هي كذلك سدٌّ لحاجة الفقراء والمساكين وتراحمٌ وتعاطفٌ بين أعضاء المجتمع الإسلاميّ، وصدقة الفطر وقتُ وجوبها الذي لا يجوز أن تؤخر عنه هو من غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى الخروج لصلاة العيد، لكن يمكن إخراجها قبل ذلك بيوم أو يومين لحاجة الفقراء، روى أبو داود وابن ماجه عن ابنِ عبّاس رَضيَ الله عنهما قال: "فرَض رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم زكاةَ الفطر؛ طهرةً للصّائم منَ اللّغو والرّفث، وطعمةً للمساكين، مَن أدّاها قبل الصّلاة فهي زكاة مقبولة، ومَن أدّاها بعد الصّلاة فهي صدقةٌ منَ الصّدَقات".

وهنا نقول صراحة: إن الغني المسلم لا يبلغ أن يكون مسلما حقا، ولا يعتبر مقيما للشعائر كما أرادها الله سبحانه وتعالى، إلا إذا أشرك – في بعض ما يملك – إخوانه المسلمين المحتاجين، خاصة منهم الأقارب والجيران، وبصفة أخص في مناسبة كمناسبة العيد المبارك، والغني إذا فعل ذلك وضرب المثل من نفسه في الإيثار ومساعدة إخوانه المؤمنين، كان ذلك منه تعظيما لشعيرة من شعائر الإسلام، الذي مدح الله عز وجل من يحرص عليه واعتبره علامة علي تقواه وتمكن الإيمان من قلبه، قال تعالى: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) [الحج: 32]. بل جعل سبحانه وتعالى الانتصار على النفس والإيثار عليها وتغليب مصلحة المحتاجين على دواعي الشح والإمساك، سببا للفلاح، وذلك في قوله الكريم: (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: 9]، وحذر من يعرض عن الإنفاق في سبيل الله ولا يبالي به من الندم ساعة لا ينفع الندم، في قوله سبحانه: (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [المنافقون: 11].

الوسط

مدينة باتنة تودع أحد أعلامها

أستاذي الدكتور عبد العزيز شوحة كما عرفته



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

فقدت مدينة باتنة، وكلية اللغة والأدب العربي في جامعة باتنة 1 بالخصوص، أحد رجال التربية والتعليم فيها الذين قضوا عشرات السنين من أعمارهم مسخّرين أنفسهم ومضحين بكل ما يملكون من جهد وطاقة في سبيل تعليم الأجيال وتربية الشباب على حب العلم والحرص على تحصيله والانتفاع منه ونفع الناس به.

إنه الدكتور عبد العزيز شوحة رحمه الله الذي التحق بالرفيق الأعلى في ساعة باكرة من يوم الثلاثاء 21 جوان 2022م، وتم دفن جثمانه بعد صلاة الظهر من نفس اليوم في مقبرة المدينة بحضور جمع غفير من إخوانه وأحبابه وأصدقائه وزملائه وتلاميذه.

علاقتي بالأستاذ

عرفتُ أستاذنا عبد العزيز شوحة رحمه الله منذ ثمان وثلاثين سنة (أي منذ سنة 1984)، وذلك حين جاء ليدرسنا المواد الشرعية المقررة علينا نحن التلاميذ الموجّهين لتخصص العلوم الإسلامية في سنتنا الأولى بثانوية عائشة أم المؤمنين في حي بوزوران بمدينة باتنة، وكان حينئذ حديث عهد بالتخرج بشهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي من معهد الآداب بجامعة باتنة. لقد لاحظتُ من أول يوم أن هذا الأستاذ يختلف عن كثير من الأساتذة الذين عرفتهم من قبل اختلافا كبيرا، فهو إضافة إلى تدينه الصادق الذي استشعرته - رغم صغر سني - من مظهره وكلامه وتصرفاته، كان حريصا على تحضير دروسه تحضيرا جيدا وشرحها شرحا مستفيضا وتقديمها في قالب يجعل التلاميذ يُقبلون عليها ويهتمون باستيعابها، ثم هو لم يكن يكتفي بالتعليم فقط وإنما كان مربيا مخلصا وناصحا أمينا وموجها مرشدا.

وبالنسبة لي شخصيا فقد انبهرتُ بهذا الأستاذ وأعجبتُ بأسلوبه في التدريس وتأثرتُ بشخصيته المتميزة، وهو ما جعلني أولي المواد التي كنا ندرسها عنده اهتماما خاصا، فكنت أُحَضّرُ الدرسَ قبل أن يُلقِيَهُ علينا وأُشارِكُ بالسؤال والمناقشة، مما لفت انتباهه إليّ وجعله يهتم بي ويُوليني رعاية خاصة ويُقربني إليه، فكنت في كثير من الأحيان - عندما نخرج في نفس الوقت من الثانوية - أرافقه في طريقه إلى الجامعة - التي انتمى إليها من جديد بعد نجاحه في مسابقة الماجستير - والذي كان هو نفس طريقي إلى البيت، فأسمع منه الكثير من المعلومات والأفكار التي كانت تطرق سمعي لأول مرة، فقد حدثني كثيرا عن مالك بن نبي وأفكاره الحضارية وسرد لي - من ذاكرته - الكثير من فقرات كتبه التي كان يحفظ أكثرها عن ظهر قلب، كما حدثني عن غيره من العلماء والمفكرين والدعاة الذين كانت تعج بهم الساحة الإسلامية في تلك المرحلة الزاهرة من ثمانينيات القرن الماضي وشجعني على قراءة كتبهم ومقالاتهم. ولما رأى اهتمامي وحرصي أصبح يُعيرُني الكتب والمجلات ويُشجعني على قراءتها، ويسألني عما استفدته منها ويحاورني في بعض ما تضمنته من معلومات وأفكار.

ثم تطورت علاقتي به، حين صرت أتابع نشاطه الدعوي في الأحياء الجامعية، حيث كانت له دروس ومحاضرات ومشاركات في مختلف الندوات التي كانت تعقد في مساجد الأحياء الجامعية بمدينة باتنة، وكان له فيها حضور قوي ونشاط حثيث، كما كنت أحضر وأتابع خطبه التي كان يلقيها كل جمعة، وفي شهر رمضان كان يؤم الطلبة في مسجد الحي الجامعي عمار عاشوري أو في مسجد الحي الجامعي دوادي صالح فكنت أحرص على الصلاة خلفه، وقد كانت له نبرة خاصة في قراءة كتاب الله الذي كان يحفظه عن ظهر قلب..

كانت خطب أستاذنا ودروسه ومحاضراته ومشاركاته في المناسبات المختلفة، تحظى باهتمام الكثير من الطلبة حينئذ، وتستقطب حضورا كبيرا، لما كانت تتميز به من حسن اختيار الموضوعات وعمق الأفكار وبلاغة الأسلوب وفصاحة العبارات وتنوع المعلومات وغزارتها، وأكثر ما كان يميزها هو حضور القرآن فيها، إذ كان الأستاذ يغرف منه ما شاء الله له أن يغرف من نصوص يُقوّي بها حُجَجَه ويُدَعّم أفكاره، بل إن الأستاذ كان يتفنن في تفسير القرآن وتقليب الآيات القرآنية على وجوهها المختلفة والتعمق في معانيها بما حباه الله من علم غزير وفهم عميق وبما استفاده من قراءاته الواسعة في كتب التفسير ومنها خاصة «في ظلال القرآن» لسيد قطب.

دَرّسَنا الأستاذ خلال السنوات الثلاثة للمرحلة الثانوية، وقد أتيح لي أن أحصل على شهادة البكالوريا وألتحق بالجامعة، وفي نفس تلك المرحلة التحق هو بالخدمة الوطنية، لكن العلاقة بيننا لم تنقطع، فكان كلما جاء في عطلة يتصل بي ونلتقي ونجدد العهد مع العلم والفكر. وبعد انتهائه من أداء واجبه الوطني عاد إلى باتنة ملتحقا من جديد بالتعليم الثانوي، فكانت الفرص كثيرة ومتاحة للقاء والتواصل. كانت تلك العلاقة هي المرحلة الأولى لعلاقة طويلة ربطتني بالأستاذ منذ تلك الأيام؛ علاقة تلمذة واستفادة أولا، ثم علاقة صداقة عميقة وأخوة متينة ومحبة قوية لم تزدها الأيام إلا رسوخا وثباتا واستمرارا ومتانة.

نشاطه وابتلاؤه

كان النشاط الدعوي غالبا على أستاذنا، ولذلك لم يتردد في الاستجابة للاقتراح الذي قُدم له من قبل مديرية الشؤون الدينية بولاية باتنة في تلك المرحلة للانتداب إلى قطاع الشؤون الدينية، وفعلا توقف عن التعليم الثانوي والتحق بسلك الإمامة، وتم تكليفه بالإمامة والخطابة في المسجد العتيق بمدينة تازولت، وهنالك كنت أزوره كل يوم جمعة لأستمع إلى خطبته وأصلي خلفه.

لكن هذه التجربة لم تدم طويلا، فقد قرر الأستاذ التوقف عن مواصلة هذه المهمة والعودة إلى التعليم الثانوي، بعد أن بدأت أزمة التسعينيات وصار الأئمة والخطباء محل ضغوط وتهديدات، إلا أن انسحاب الأستاذ من الإمامة والخطابة والدروس المسجدية لم يعصمه من الأذى فقد طاله ضمن كثيرين ممن طالهم في تلك المرحلة الحرجة من مسيرة البلاد.

وقد كان لذلك الأذى الذي تعرض له أثرٌ عميق في نفسه، حيث تسبب له في أمراض وآلام نفسية ومشكلات اجتماعية ظل يعاني منها طيلة ثلاثين سنة. لقد تقلبت الأيام بأستاذنا، ورأته من وجهها الكالح ما لا يمكن وصفه، وألحقت به محنا وابتلاءات ظلت ملازمة له إلى آخر يوم في حياته، ابتلاءات متتابعة كان من أبرزها الأمراض التي أصيب بها وجعلت حياته تتحول إلى كتلة من المعاناة التي واجهها بكل صبر وثبات وتسليم لأمر الله. تلك الابتلاءات والمحن التي عطلت إتمامه لرسالة الماجستير سنوات طويلة، وهو ما حرمه من الالتحاق بالجامعة كأستاذ إلا في



مرحلة متأخرة جدا. وحتى بعد التحاقه بالجامعة أستاذا مساعدا لم يتمكن من إنهاء أطروحته لنيل الدكتوراه إلا بعد عدة سنوات، وهو ما حرمه من الترقي في الرتب العلمية التي يستحقها.

ومما زاد الآم أستاذنا حدة ومعاناته شدة؛ أنه لم يجد إلا القليلَ من معارفه ممن وقف معه في مواجهة تلك المحن والابتلاءات، فقد أعرض عنه الكثيرون ممن كانوا يتمسحون بأعتابه ويستفيدون من علمه وأفكاره، وتجاهلوا معاناته في عز أزمته ومرضه وحاجته إلى المساعدة والمساندة.

شِيَمُه وخصاله

لقد حبا الله أستاذنا عبد العزيز شوحة بخصال فذة وشيم نادرة قلّ أن تجتمع في شخص واحد؛ يأتي على رأسها إيمانه العميق بالله عز وجل ورضاه بما قضاه له وقدره عليه، وتسليمُه لأمره في كل شؤونه. ومنها: صبره وثباته وتحمله وتجمله وعدم سخطه على ما حل به. ومنها: وفاؤه لأساتذته وذوي الفضل عليه. ومنها: حبه لإخوانه ومودته لهم - على الرغم مما لحقه من بعضهم - حيث لم يحمل يوما حقدا أو ضغينة لأحد. ومنها: عفة لسانه وكفه له عن إيذاء غيره، فلم أَسمعه يوما يخوض في عرض واحد من معارفه أو زملائه أو غيرهم، أو يخاطب أحدا بما يجرح إحساسه أو يترك أثرا في نفسه. ومنها: كَرَمُه غير المحدود - على الرغم من معاناته المادية - المتمثل في إعارة كتبه لمن يطلبها منه رغم ما أنفقه من مال في سبيل الحصول عليها ورغم حبه الشديد لها وحرصه عليها، مما كان سببا في ضياع الكثير منها وعدم إرجاعها إليه. ومنها: تفانيه في عمله واجتهادُه في إتقان ما يُسند إليه من أعمال وما يُكلف به من مهام، حتى وإن كانت أعمالا تطوعية كدروس مسجدية أو محاضرات في مناسبات.

آثاره العلمية والفكرية

هذا، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهها أستاذنا والمعاناة التي ظل يكابدها، إلا أنه كان حريصا على أن تكون له مشاركاته الفكرية المتميزة التي كان دائبا على نشرها في شكل مقالات في جرائد مطبوعة أو في مواقع إلكترونية، ففي النصف الثاني من التسعينيات نشر الكثير من المقالات تحت عنوان عام هو «الإسلام ومشكلاتنا المعاصرة» في جريدة «رسالة الأطلس» التي كانت تصدر في مدينة باتنة، كما نشر في السنوات الأخيرة مقالات عديدة في جريدة «الأوراس نيوز» اليومية التي تصدر من باتنة كذلك، أما إلكترونيا فقد نشر مقالات كثيرة في عدة مواقع منها بصفة خاصة موقع الشهاب وموقع الحوار المتمدن وغيرها من المواقع الإلكترونية. وإذا جُمعت هذه المقالات فيمكن أن تشكل ثلاثة كتب أو أكثر.

وأما الآثار العلمية فتتمثل في رسالته التي نال بها درجة الماجستير وكانت في موضوع «منهج ابن عطية في ضبط الألفاظ في تفسيره المحرر الوجيز»، وقد أعدها تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم عوفي.

وأطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه وكان عنوانها «منهج الاحتجاج اللغوي للقراءات القرآنية وتوجيهها»، والتي أشرف عليه في إعدادها الأستاذ الدكتور بلقاسم ليبارير. وكل من العملين رسالة علمية متميزة بذل الأستاذ في جمع مادتها وتحريرها كل ما توفر له من جهد وطاقة. إضافة إلى بحث علمي نشره في مجلة «الإحياء» التي تصدرها كليتنا والتي أرأس تحريرها، وكان عنوانه «ظاهرة الأحرف السبعة في القرآن الكريم ودورها في الحفاظ على اللسان العربي».

تواصل علاقتي به إلى آخر لحظة

كان أستاذنا كثير الاتصال بي، فلا يكاد يمر يوم إلا ويهاتفني ويحادثني في موضوعات مختلفة ويفضي إليّ بأشجانه وهمومه، لكنه في المدة الأخيرة انقطع عن الاتصال لحوالي أسبوع، ثم لما خطر في بالي أن أكلمه لأسأل عن أحواله إذا به يبادر إلى مكالمتي مساء يوم الأحد 19 جوان، وقد لاحظت أن كلامه كان متقطعا وصوته متهدجا وأخبرني أنه مريض، ومما قاله لي: «إني أطلب منك أن تسعى في نشر رسالتي في الماجستير وأطروحتي في الدكتوراه».. وبما أني كنت مشغولا بعمل في ذلك الحين فقد استأذنته في معاودة الاتصال فيما بعد إن شاء الله. لكن شاء الله عز وجل أن تكون تلك هي المكالمة الأخيرة وأن يكون طلبه بمثابة وصية حمّلنيها. وأسأل الله عز وجل أن يُعينني على تحقيقها، إذ فوجئت بالخبر الفاجع برحيله عن الدنيا الفانية إثر نوبة قلبية ألمت به، هذه النوبة التي لم تكن سوى سبب ظاهري انطوى فيه الأجل المحتوم الذي لا يملك أي إنسان أن ينفك عنه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

رحم الله أستاذنا عبد العزيز شوحة، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، وألهم والدته وزوجته وأولاده وإخوته وكل محبيه الصبر والسلوان، ووفقنا إلى السير على نهجه واقتفاء أثره فيما كان عليه من إخلاص لله وحب لإخوانه المؤمنين وحرص على إتقان عمله ونفع طلبته وخدمة دينه وإصلاح مجتمعه.. إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا أستاذنا الحبيب لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا عز وجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

مَرّ عام على رحيله

أخي الدكتور عبد المجيد مباركية.. وذكريات لا تُنسى



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

كان تأثري شديدا بفقد أخي وصديقي وجاري وزميلي الأستاذ الدكتور عبد المجيد مباركية رحمه الله صبيحة يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة 1442هـ، الموافق للسادس والعشرين من شهر جوان من السنة الميلادية الماضية (2021)، حتى إني لم أستطع أن أكتب عنه شيئا في الأيام التي أعقبت وفاته، وظللتُ خلال السنة المنصرمة أتحيّن الفرصة المناسبة للكتابة عنه، غير أني لم أستطع أن أكتب شيئا. لكن لما اقترب حلول الذكرى الأولى لوفاته وجدتُ أنه لم يبق لي أيّ عذر في مزيد من التأخر عن الكتابة، لذلك قررت أن ألزم نفسي وأحملها على أن تخط هذا المقال في التعريف بهذا الأخ الكريم والتنويه بشيمه وخصاله وأعماله. وهذه هي الحلقة الأولى منه.

حياته قبل أن نتعارف

هو «أبو منصف» عبد المجيد «المدعو كمال» بن عبد الله مباركية، ولد في قرية تابندوت التابعة لبلدية تيغانمين في دائرة أريس بولاية باتنة، يوم الأحد الثامن والعشرين من ذي الحجة للعام ألف وثلاثمائة وستة وثمانين للهجرة (1386هـ) الموافق للتاسع من أبريل سنة سبع وستين وتسعمائة وألف للميلاد (1967م)، في بيئة فقيرة فُرص العمل والكسب فيها قليلة، حيث كانت أسرته - كغيرها من أسر المنطقة - تعيش مما تجنيه من ممارسة الفلاحة في البساتين التي تمتلكها والواقعة على ضفتي الوادي الأبيض ذي المياه الوافرة طيلة السنة في تلك المرحلة، وكان والده عبد الله من أعيان القرية ومصلحيها، فكان الناس يستفتونه فيما يُواجههم من مسائل ويقصدونه ليفصل في ما يثور بينهم من منازعات.

بعد بلوغه سن التمدرس ألحقه أبوه بكُتاب قريته حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، كما ألحقه بمدرسة «ابن صحيح» الابتدائية في مسقط رأسه أين درس ست سنوات، انتقل بعدها إلى أريس حيث درس السنوات الأربعة للمرحلة المتوسطة «الإعدادية» في متوسطة البنات كما كانت تسمى حينئذ، وبعد حصوله على شهادة التعليم المتوسط التحق بثانوية محمد الغسيري في أريس والتي درس فيها تخصص الاقتصاد ليحصل على البكالوريا سنة 1986، سجل إثر ذلك بجامعة باتنة، ملتحقا بمعهد العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير والذي درس فيه أربع سنوات تخرج بعدها بشهادة الليسانس في العلوم الاقتصادية في جوان 1990.

دخل بعد ذلك مرحلة الحياة المهنية، التي بدأها مدرسا مستخلفا في إحدى الثانويات لبضع سنوات، ثم التحق ببنك التنمية المحلية (BDL) لمدة اثنتي عشرة سنة (من سنة 1997 إلى سنة 2009)، وكانت بدايته بالفرع الرئيسي لمدينة باتنة كمكلّف بالدراسات، لينتقل بعد ذلك إلى مدينة الوادي التي أقام فيها خمس سنوات مشتغلا في المنصب نفسه ثلاث سنوات ثم مديرا بالنيابة لوكالة البنك بالوادي مدة سنتين، رقي بعدها مديرا لوكالة مروانة بولاية باتنة لمدة ست سنوات، ليعود من جديد إطارا في الوكالة الرئيسية بباتنة مطلع عام 2009.

وقد شهد له زميله وصديقه الحميم الدكتور إبراهيم أوراغ الذي عمل معه في بنك التنمية المحلية، «بتفانيه في عمله وحرصه الشديد على رعاية مصالح البنك والسهر الدائم على قضاء حوائج الزبائن والمواطنين عمومًا. كما كان قدوةً لكثير من زملائه ومثالاً يُحتذى في خفة الروح ورجاحة العقل وسمو الخلق ورفعة الشأن بالبنك، إذ كان عدد من الإطارات السامية للبنك يستشيرونه في كثير من المسائل المرتبطة بتسيير شؤون الوكالات البنكية، وهذا مما أهله ليكون عضوا بارزا في لجنة التأديب للمديرية الجهوية بباتنة، وقد سعى جاهدا من خلال تواجده بالمجلس في تقريب وجهات النظر والعمل الدؤوب على إصلاح الوضع بما يحفظ حقوق البنك والموظفين على حد سواء.. من جانب آخر تمكن رحمه الله بفضل تكوينه النوعي وخبرته الواسعة في مجالات المالية والمحاسبة والتسيير من الحصول على اعتماد محافظ الحسابات من المصف الوطني للمحاسبة، وكذا اعتماده كخبير محلف ومعتمد في المالية والمحاسبة لدى المحاكم والمجالس القضائية».

كيف عرفتُه؟

على الرغم من أن مسقط رأسي «غوفي» ومسقط رأسه «تابندوت» - الواقعين على الطريق الوطني رقم 31 الرابط بين مدينتي باتنة وبسكرة مرورا بمدينة أريس - لا يبعدان عن بعضهما سوى عشرين كيلومترا على الأكثر، وعلى الرغم من أننا درسنا معا في تخصصين مختلفين في جامعة باتنة خلال نفس الفترة، إلا أنني لم أعرف أخي عبد المجيد مباركية سوى في مرحلة متأخرة. لقد كان بالإمكان أن أعرفه لو درستُ بثانوية أريس التي درس فيها هو كما كان حال أغلب أبناء دائرة أريس القديمة، لكن دراستي المتوسطة والثانوية في باتنة منعت اللقاء بيننا.

على كل حال، لم ألتق بأخي عبد المجيد إلا عندما قرر أن يلتحق بمقاعد الدراسة الجامعية للمرة الثانية، بعد سنوات طويلة من تخرجه في المرة الأولى من معهد العلوم الاقتصادية، فقد انتمى من جديد إلى كليتنا طالبا في السنة الأولى علوم إسلامية خلال السنة الجامعية 2003-2004، حيث درس عندي مقياس (مدخل علم أصول الفقه)،



وفي السنة الثالثة درستُه وزملاءَه الطلبة مقياس (الفقه المقارن)، لكني لاحظت أنه لم يكن دائم الحضور، فقد كان يحضر أحيانا ويغيب أحيانا أخرى، ولما سألته ذات مرة عن سبب غيابه أحيانا أخبرني أنه يعمل مديرا لوكالة بنك التنمية المحلية (BDL) في مدينة مروانة ولذلك لا يمكنه أن يحضر دائما. بعد ذلك تم تحويله في سنته الجامعية الرابعة إلى مدينة باتنة إطارا في نفس الوكالة البنكية التي أتقاضى منها مرتبي، وهنا بدأ التقارب بيننا، خاصة وقد أخبرني أنه على وشك الإقامة في الحي الذي أقيم فيه بمدينة تازولت أين بنى مسكنا قريبا من البيت الذي أسكن فيه. وفعلا ما كانت إلا مدة قصيرة حتى التحق بحينا فصرنا نلتقي بصفة يومية ونذهب معا إلى مسجد أبي ذر الغفاري في الحي القريب من حينا لأداء الصلوات، ونتبادل أطراف الحديث في مسائل مختلفة خاصة العلمية منها. وبما أنني لم أكن أملك سيارة وكان الحصول على مكان في الحافلات صعبا جدا في الصباح فقد كان يصطحبني معه في سيارته كلما كان لي عمل في الجامعة. ومما حدثني به عن نفسه في تلك المرحلة أنه مغرم بقراءة وتلخيص مؤلفات علماء الحديث في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، وخصوصا مؤلفات المعاصرين منهم، وبصفة أخص مؤلفات كل من الشيخ محمد ناصر الدين الألباني والشيخ أبو إسحاق الحويني، وفعلا لما زرته في بيته ودخلت مكتبته وجدتها حافلة بالمؤلفات في علوم الحديث رواية ودراية. كما حدثني أنه قام بتفريغ العشرات من أشرطة دروس ومحاضرات الشيخ الحويني الحديثية في دفاتر وكراريس كثيرة وأنه قرأها كلها واستفاد منها وتأثر بها أيما تأثر.

التحاقه بالدراسات العليا

تخرج الأخ عبد المجيد بشهادة الليسانس في العلوم الإسلامية، تخصص الكتاب والسنة، في ختام السنة الجامعية 2006-2007، وكان كل أمله أن تُفتح مسابقة الماجستير في بداية السنة الموالية ليشارك فيها، وهو ما تحقق واقعا حيث تم تنظيم المسابقة وشارك فيها وكان من الناجحين، وبعد دراسة نظرية امتدت سنة ونصف سنة، سجل موضوع مذكرته لنيل شهادة الماجستير تحت إشراف زميلنا الأستاذ الدكتور مصطفى حميداتو، وكانت بعنوان «الصناعة الحديثية عند ابن بطال من خلال شرحه لصحيح البخاري»، وبمجرد تسجيل الموضوع شرع في قراءة شرح ابن بطال على صحيح البخاري المتكون من أحد عشر مجلدا، وبما أنه كان يتواصل معي ويحدثني عن عمله في البحث، فقد نصحته بأن يقرأ الكتاب مرة واحدة قراءة فاحصة يجمع خلالها المادة العلمية ويصنفها مباشرة حتى لا يضطر إلى العودة إلى قراءة الكتاب من جديد مرة أخرى فيُضيعَ بذلك الكثيرَ من الوقت والجهد، وفعلا أخذ بنصيحتي وسار عليها، وصار يصل الليل بالنهار حتى انتهى من قراءة الكتاب وجمع المادة العلمية، جاءت بعد ذلك مرحلة تحرير البحث وكتابة فصوله، وبما أن لقاءاته بي كانت مستمرة إما في المسجد أو في بيت أحدنا أو في مكتبي بالكلية لما كنت رئيسا لميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة باتنة، فقد كان يحدثني بما هو دائب عليه من الكتابة فكنت أقدم له بعض الملاحظات والتوجيهات وكان يستفيد منها، وبعد انتهائه من كتابة مذكرته قدمها لأستاذه المشرف الذي قرأها وأبدى عليها ما رآه من ملاحظات وتوجيهات، وبعد تعديله للمذكرة في ضوء ملاحظات المشرف طلب مني أن أقرأها قراءة فاحصة مدققة قبل أن يقدمها للمناقشة، وفعلا قرأتها وأبديت له عليها ملاحظات أخذ بها كلها، قام بعد ذلك بتقديم المذكرة إلى الهيئات العلمية في الكلية والتي عينت لجنة لقراءتها، وجرت مناقشتها سنة 2010، ونالت درجة حسن جدا.

الجزء 02

مرّ عام على رحيله

أخي الدكتور عبد المجيد مباركية.. وذكريات لا تنسى



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

كان تأثري شديدا بفقد أخي وصديقي وجاري وزميلي الأستاذ الدكتور عبد المجيد مباركية رحمه الله صبيحة يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة 1442هـ، الموافق للسادس والعشرين من شهر جوان من السنة الميلادية الماضية (2021)، حتى إني لم أستطع أن أكتب عنه شيئا في الأيام التي أعقبت وفاته، وظللت خلال السنة المنصرمة أتحيّن الفرصة المناسبة للكتابة عنه غير أني لم أستطع أن أكتب شيئا، لكن لما اقترب حلول الذكرى الأولى لوفاته وجدتُ أنه لم يبق لي أيّ عذر في مزيد من التأخر عن الكتابة، لذلك قررت أن ألزم نفسي وأحملها على أن تخط هذا المقال في التعريف بهذا الأخ الكريم والتنويه بشيمه وخصاله وأعماله. وهذه هي الحلقة الثانية والأخيرة منه.

إشرافي عليه في أطروحة الدكتوراه

بعد حصوله على الماجستير، وللتسجيل أطروحة الدكتوراه جاءني يطلب مني قبول الإشراف عليه، باعتبار أننا متقاربين في السكن وبإمكاننا أن نتلاقى بصفة مستمرة، ولأنني لست متخصصا في علوم الحديث فقد أكدت له أن الجانب المتعلق بالمادة العلمية سيكون تحت مسؤوليته الشخصية بينما أتولى أنا متابعته من النواحي المنهجية واللغوية والأسلوبية. عرض عليّ الموضوع الذي اختاره للدراسة وهو "نقد متن الحديث عند الشيخ الألباني من خلال كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، وبعد النظر وتبادل الرأي حول أبعاده وحدوده وإمكانية دراسته في مدة زمنية محددة وافقته عليه وتم تقديمه للهيئات العلمية في الكلية والتي وافقت على تسجيله.

مباشرة بعد تسجيل الموضوع، بدأ عبد المجيد قراءة كتاب "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة" للشيخ الألباني رحمه الله، والمتكون من أربعة عشر مجلدا، منتهجا نفس الطريقة التي نصحته بها لما كان يُعد مذكرة الماجستير، وهي القراءة مرة واحدة قراءة فاحصة مدققة مشفوعة بجمع المادة العلمية مباشرة، وبعد انتهائه من جمع المادة شرع في تحرير فصول ومباحث أطروحته، فكان كلما حرر جزءا قدمه لي لأقرأه وأسجل عليه الملاحظات اللازمة ليصححه ويستفيد من الملاحظات في تحرير ما بعده من أجزاء، وهكذا حتى تم الانتهاء من إنجاز الأطروحة في أقصر مدة وهي أربع سنوات، لتُقدم بعد ذلك إلى الهيئات العلمية في الكلية والتي عينت لجنة لمناقشتها. وتمت المناقشة يوم الأربعاء السادس والعشرين من رمضان سنة 1435هـ الموافق للخامس عشر من جويلية سنة 2014م، ونالت تقدير مشرف جدا.

التحاقه بجامعة الوادي

في بداية السنة الجامعية 2014-2015 أعلنت جامعة الوادي عن فتح مناصب لتوظيف أساتذة مساعدين في مختلف التخصصات ومنها تخصصات العلوم الإسلامية، فقدم الأخ عبد المجيد ملفه ولقي القبول الذي يستحقه، فتم توظيفه أستاذا مساعدا في معهد العلوم الإسلامية، وكلف بتدريس عدد من المواد المرتبطة بتخصصه علوم الحديث، كما كلف بتدريس مواد في الاقتصاد الإسلامي باعتبار خبرته المهنية والعلمية في الموضوع. وبعد مرور عام على توظيفه تم ترسيمه وترقيته إلى رتبة أستاذ محاضر صنف "ب"، لينطلق من جديد في رحلة البحث العلمي لنشر أبحاث تمكنه من التأهيل والترقية إلى المراتب الأعلى فيما بعد، فقام بإنجاز عدة أبحاث كانت سندا له في تأهيله إلى رتبة أستاذ محاضر "أ" بعد مناقشة الملف الذي تقدم به لهذا الغرض، وكانت المناقشة يوم السبت 9 رجب 1437هـ الموافق 16 أبريل 2016م.

لم يتوقف إصرار الأخ عبد المجيد وطموحه عند هذا الحد، بل قرر أن يتهيأ للترقية إلى رتبة أستاذ في أقصر مدة لها، فشرع في كتابة عدد من البحوث وإرسالها للنشر في المجلات العلمية المحكمة، كما أعد عددا من المطبوعات البيداغوجية في المواد التي يُدرسها للطلبة، وكذا الإشراف على مذكرات الماستر وأطروحات الدكتوراه. وما إن أتم المدة اللازمة وفتحت دورة الترقية حتى سارع إلى تقديم ملفه الذي نال القبول وتمت ترقيته إلى رتبة أستاذ التعليم العالي في دورة جوان 2019م.

من ذكرياتي معه

جمعتني بأخي عبد المجيد ذكريات عزيزة لا تُنسى، فبالإضافة إلى لقاءاتنا المستمرة في مسجد الحي أو في بيته أو في بيتي أو في كليتنا التي ظل يُدرس فيها متعاونا حتى بعد التحاقه بجامعة الوادي، كانت لنا أسفار عديدة ترافقنا فيها، أذكر منها بصفة خاصة رحلاتنا إلى الجزائر العاصمة كل سنة بمناسبة المعرض الدولي للكتاب، حيث كان هذا الموعد مقدسا بالنسبة لنا نحن الإثنين، وكان كل واحد منا يحرص على أن ينتقي من الكتب الجديدة ما يُثري به مكتبته، لكن كلا منا كان له مشربه الخاص واهتماماته التي تختلف عن اهتمامات الآخر، فكنت أهتم بكتب الفقه والأصول والفكر والتاريخ والأدب، بينما كان هو يهتم بكتب الحديث وعلومه وكتب الاقتصاد الإسلامي، وقد لاحظت أنه كان أكثر إنفاقا مني على الكتب حيث يشتري منها الكثير خاصة الموسوعات الحديثية الكبرى، ويحرص على أن يشتري منها ما لا يضمن أن يجده فيما بعد في المكتبات، ويقول: من يدري فقد يأتي يوم تُفقد فيه هذه الكتب ولا يمكن لأحد أن يحصل عليها بسهولة كما هو الحال الآن.

كما سافرت معه مرات عديدة إلى جامعة الوادي، لمناقشة أطروحات دكتوراه أو ملفات تأهيل أو المشاركة في ملتقيات علمية، وكنا نبيت عند أخينا وزميلنا الأستاذ الدكتور خريف زتون، الذي يستضيفنا ويستضيف للعشاء معنا عددا من الزملاء من جامعة الوادي، وكنا نسهر ونتسامر ونتحدث في موضوعات مختلفة إلى أوقات متأخرة من الليل. سافرت معه كذلك في إطار التربصات العلمية إلى المملكة المغربية مرتين، منفردَيْن في المرة الأولى، ومصحوبين بأخينا وزميلنا الأستاذ الدكتور خريف زيتون في المرة الثانية، وهناك زرنا كلا من الدار البيضاء والرباط وفاس، وكان الاهتمام المشترك الذي نتقاسمه دائما هو الكتب والمكتبات، فلا نترك مكتبة إلا ونزورها ونقضي فيها وقتا ونشتري منها كتبا أو مجلات.



في كل هذه الأسفار والرحلات كان الانسجام والتوافق والتسامح هو مظهر العلاقة بيننا، فكل منا يتقبل رأي الآخر ويوافقه في رغبته في الذهاب إلى مكان معين أو لتناول طعام ما أو لزيارة مؤسسة محددة، كما كان التشارك في المال عند الحاجة هو المتفق عليه بيننا والمتعامَل به فعلا في الواقع، ولذلك لم يقع بيننا أي سوء تفاهم أو اختلاف أو انتصار أحد لرغبته على حساب الآخر في كل الأسفار التي جمعتنا.

مما أذكره أيضا، وهو الأجدر بالذكر من غيره: أن الأخ عبد المجيد بمجرد أن انتقل للسكن في تازولت، كان أول ما فكر فيه هو بناء مسجد في الحي الذي نقيم فيه، ولم يكن هنالك مسجد في ذلك الحين، ولذلك طلب مني أن أشاركه في تأسيس جمعية لهذا الغرض، ولما تأسست هذه الجمعية وتم الشروع في بناء المسجد كان الأخ عبد المجيد هو المحور الأساس في الجمعية الذي يقوم بكل المهام نيابة عن بقية الأعضاء، فهو الذي يجمع الأموال من معارفه وأصدقائه الأغنياء، وهو الذي يتولى الاتفاق مع البناء والكهربائي والمرصص وتجار مواد البناء، وهو الذي يتابع كل الأشغال، ولذلك لم تكد تمضي سنتان أو أكثر قليلا حتى كان بناء "مسجد السلام" قد تم واكتمل بمختلف مرافقه وبكل تجهيزاته، ليتم افتتاحه ويصبح ملاذا للمصلين من أبناء الحي والأحياء المجاورة، يصلون فيه الجمعة والصلوات الخمس والتراويح في رمضان، إضافة إلى مدرسة قرآنية ملحقة به مخصصة للنساء والأطفال.

وإن أنسَ فلن أنسى أعمال البر والخير التي كان حريصا عليها، حيث يجتهد كل سنة في جمع أموال الزكاة من بعض أصدقائه الأغنياء ويقوم بتوزيعها على مستحقيها من العائلات الفقيرة والتي كانت عنده قائمة طويلة بأسماء أصحابها وبعدد أفراد كل منها، كما كان يدفع من مرتبه الخاص مبالغ معتبرة في كل مرة عندما يصله خبر عائلة معوزة أو شخص مريض يحتاج إلى العلاج أو يتامى بحاجة إلى رعاية.

مرضه ووفاته

كان أخي عبد المجيد كثير الشكوى من آلام وأوجاع في بدنه لا يعلم طبيعتها وسببها، وقد عرض نفسه على الأطباء وأجرى الفحوصات والأشعة والتحاليل اللازمة، لكن التشخيص - فيما يبدو - لم يكشف شيئا، وقد استمر معه هذا الأمر طيلة السنوات التي عرفتُه فيها، إلا أن وطأة المرض زادت عليه في السنة التي سبقت وفاته، حيث تدهورت صحته وظهرت علامات الإنهاك على وجهه وبدنه فاضطر إلى دخول المستشفى الجامعي بباتنة أين أقام اثنين وعشرين يوما، ثم خرج بعدها، لكن المعاناة لم تتوقف، بل زادت حدة المرض شيئا فشيئا، حيث تعرض لنوبة مفاجئة وهو في بيت والدته في تابندوت نقل إثرها إلى مستشفى أريس، وبعد ثلاثة أيام تم نقله إلى المستشفى الجامعي بباتنة لإجراء عملية جراحية، لكن العملية لم تنجح حيث فاضت روحه إلى بارئها صبيحة يوم السبت 26 جوان 2021، وقد شيعت جنازته بعد صلاة الظهر من نفس اليوم، وتم دفن جثمانه في مقبرة مسقط رأسه إلى جوار والده، بحضور جمع غفير من زملائه وأصدقائه وطلبته وأبناء قريته. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

في ذكراها الثامنة والستين

الخصائص الفريدة لثورة نوفمبر المجيدة



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

نستقبل هذه الأيام الذكرى الثامنة والستين لاندلاع ثورة أول نوفمبر 1954 التحريرية المجيدة، تلك الثورة التي فجرها آباؤنا المجاهدون في وجه أعتى استدمار استيطاني عرفه العالم في العصر الحديث، وقد تكللت هذه الثورة بطرد جحافل الجيش الفرنسي ونُصرائه من جيوش الحلف الأطلسي، الذين خرجوا من الجزائر يجرون أذيال الخيبة ويتجرعون مرارة الهزيمة.

مفهوم الثورة

الثورة جهد جماعي – وفق رؤية معينة ومحددة – من أجل تغيير شامل للأوضاع القائمة في مختلف مجالات الحياة، بقصد الانتقال إلى أوضاع أفضل وتحقيق ظروف حياتية أحسن وأكرم.

هذا المفهوم ينطبق كل الانطباق على ثورة أول نوفمبر التحريرية الجزائرية التي خاض الشعب الجزائري غمارها خلال سبع سنوات ونصف ضد الاستدمار الفرنسي الذي ناء بكلكله الثقيل على الجزائر مدة زادت على قرن وعقدين من الزمن أعاد فيها البلاد إلى القرون المظلمة، وقطعها عن امتدادها الحضاري وأوقف عجلة الزمن فيها من خلال حرمان أبنائها من العيش الشريف في حاضرهم وليأسهم من كل أمل في مستقبل كريم.

وقد تميزت ثورة نوفمبر بعدة خصائص ومميزات، اشتركت في بعضها مع غيرها من الثورات التي عرفها العالم في القرن العشرين، وانفردت بالبعض الآخر عن غيرها من الثورات.

ثورة ربانية إسلامية

لعل أبرز ميزة تميزت بها ثورة أول نوفمبر؛ أنها ثورة إسلامية ربانية خالصة، فقد قامت باسم الله، وانطلقت على بركة الله، وكان شعارها "الله أكبر"، وعلى رأس أهدافها "إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية". وقد سُميت الأعمال التي قام بها مفجرو هذه الثورة جهادا، كما أن القائمين بها سَمُّوا أنفسهم وسَماهم الشعب مجاهدين، وضحايا هذه الثورة من المجاهدين أو من أفراد الشعب الداعمين لهم سُمُّوا شهداء، وهذه كلها مصطلحات إسلامية خالصة. كما حرص المجاهدون على إقامة شعائر الإسلام، من صلاة وقراءة للقرآن وتشجيع لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، وإبرام عقود الزواج وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وتعيين قضاة من العلماء والمشايخ يقضون بين الناس بمبادئ العدالة الإسلامية. بل إن نظام الثورة كله في مختلف المجالات كان نظاما إسلاميا صرفا. لقد كانت الروح الإسلامية هي الدافع الأول للجزائريين للثورة ضد المحتل، والرغبة في الجنة هي حافزهم إلى مواجهة الموت، وعلى الرغم من قلة العدة والعتاد إلا أن وعد الله بالنصر لمن ينصره وينصر دينه في قوله: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحج: 40]، ووعده بتيسير غلبة عدد المسلمين على ضعفهم من أعدائهم في قوله: (فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: 66]. كل ذلك ألهب حماس الجزائريين وجعلهم يعلنون الثورة موقنين أن ما يطلبونه بها كله خير فإما النصر أو الشهادة.

ثورة مخطّطة هادفة

مما ميز ثورتنا المجيدة: أنها كانت ثورة مُخطّطة تم التحضير لها قبل اندلاعها بعدة سنوات، وذلك حرصا من قادتها على تلافي الأخطاء التي وقعت فيها الثورات السابقة عليها خلال قرن وعشرين سنة، والتي استطاع الاستدمار الفرنسي أن يقضي عليها في مهدها، تلك الثورات التي كانت تندلع فجأة لحادث طارئ أو تقوم دون تحضير كاف أو يفجرها أصحابها دون أن يهيئوا لها شروط النجاح.

لقد كان هناك تنسيق كبير بين قادة الثورة في مختلف مناطق الوطن ومع القيادات الخارجية، كما كان هناك سعي حثيث للحصول على الدعم المادي والمعنوي من الدول الشقيقة والصديقة، إضافة إلى التحضير المسبق للأسلحة والأموال والتي وإن كانت قليلة جدا في البداية إلا أنها سمحت بانطلاق العمليات الأولى للثورة، عملا بقوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) [الأنفال: 60].

كما أن هذه الثورة كانت من البداية واضحة المقاصد معروفة الأهداف، فهي لم تكن ثورة عشوائية أو مبهمة الأهداف، لقد كان مقصدها الأساس من البداية هو إقامة دولة ذات سيادة في إطار المبادئ الإسلامية، والطريق إلى ذلك يمر عبر تحرير الوطن وتوفير العيش الكريم لأبنائه في أرضهم وديارهم والتخلص من الاستغلال والقهر والعبودية.

ثورة شعبية عارمة

فهي ثورة قامت باسم الشعب، واندلعت بين أوساط الشعب، وشجعها الشعب واحتضنها والتف حولها، وساندها ووفر لها كل ما أمكنه من دعم ومساندة ووقف وراء فاعليها حتى تكللت بالنصر على العدو المحتل.

كان مفجرو الثورة من أبناء الشعب البسطاء، واعتمدوا في تحركاتهم وتموينهم على أبناء الشعب في مختلف المدن والقرى والحواضر والأرياف، وكان أفراد الشعب يقدمون كل ما يملكون لنصرة هذه الثورة ودعم القائمين بها، محتسبين ذلك عند الله عز وجل، ومؤمنين بوعده الكريم في قوله سبحانه: (وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [الأنفال: 60]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا" [متفق عليه]. وقد ضرب شعبنا أروع الأمثلة في التضامن والتكافل والتعاون ودعم الثورة بكل ما يملك من وسائل على قلتها ومحدوديتها.

ثورة موحِّدة جامعة

هذه الثورة لم تقم باسم جهة معينة من جهات الوطن، أو باسم عرق من أعراق سكانه، وإنما قامت باسم الوطن كله، وباسم فئاته وأعراقه كلها، لا فرق بين عربي وأمازيغي، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين شرقي أو غربي، أو شمالي أو جنوبي، قامت باسم الجزائر كلها ومن أجل تحرير الجزائر كلها.

ومن علامات ذلك: أن قادة الثورة ومفجريها الأوائل لم يكونوا ينتمون إلى منطقة واحدة، وإنما كانوا ينتمون إلى مناطق مختلفة من الوطن، وقد جمعهم ووحد بينهم حب الوطن والإيمان بضرورة تحريره من الاحتلال، وهؤلاء هم الذين وحدوا الشعب وراء هذه الثورة وعبؤوهم لنصرتها ودعمها ومساندتها إلى آخر يوم من أيامها.

لقد حقق قادة الثورة ومجاهدوها بذلك شعار الوحدة والأخوة الذي أمرهم الله عز وجل بتحقيقه في قوله الكريم سبحانه: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [آل عمران: 103]، وقوله تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: 46]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث المروي عنه: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ" [أخرجه أبو داود].

ثورة جماعية القيادة

فقد أعلنت من أول يوم أن الزعيم الأوحد لها هو الشعب، وما مفجرو الثورة إلا رجال ينضوون تحت قيادة جماعية قائمة على التشاور والتعاون ولا تخضع لشخص واحد يُعتبر زعيمها أو قائدها دون غيره. لقد جعلت هذه الثورة من الآية الكريمة (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) [الشورى: 38] شعارها في القيادة واتخاذ القرارات، وهو ما حماها من أمراض الثورات من استبداد وطغيان وصنمية، تلك الأمراض التي أصيبت بها ثورات عديدة وكانت سببا في إخفاقها وفشلها في تحقيق نتائجها وعدم تمكنها من الوصول إلى الغايات التي قامت لأجلها. وقد تجلت هذه القيادة الجماعية في مختلف مراحل الثورة: سواء في الإعداد لها، أو في تفجيرها، أو في جولات الكفاح السياسي والعسكري التي خاضتها ضد المحتلين. كما قامت هذه القيادة الجماعية على أساس تقاسم الواجبات القيادية وتحديدها وممارستها وتحمل المسؤولية عليها.

ثورة عالمية

حرص قادة الثورة على ربط علاقات واسعة مع أنصار العدالة والحرية في العالم كله، سواء كانوا متمثلين في دول قائمة أو منظمات دولية نشطة أو شخصيات نضالية معروفة، حيث لم يدخروا أي جهد في التعريف بعدالة القضية الجزائرية وبشاعة الممارسات الاستدمارية، مستعملين كل ما أتيح لهم من وسائل سياسية ودبلوماسية وإعلامية.

وقد سمحت هذه العلاقات الواسعة للثورة باعتماد ممثلين لها في مختلف أنحاء العالم، سواء في الدول العربية والإسلامية، أو في غيرها من الدول الصديقة غير العربية الإسلامية. كما سمحت هذه العلاقات للثورة بالحصول على دعم العديد من الدول للقضية الجزائرية في مختلف المنظمات الدولية ومنها خاصة منظمة الأمم المتحدة التي اضطرت تحت ضغوط تلك الدول إلى إدراج القضية الجزائرية ضمن مداولاتها على الرغم من رفض الدول الإمبريالية الحليفة لفرنسا لذلك.

وهكذا كانت ثورة نوفمبر ثورة عالمية في انتشارها، وكانت كذلك عالمية في تأثيرها، فقد ألهمت الكثير من الشعوب التي كانت خاضعة للاحتلال الأجنبي أن تنهض وتثور في وجوه محتليها وتتحرر من استغلالهم وقهرهم، فكان ذلك سببا في أن تتحرر هذه الشعوب وتستقل وتنشئ دولا قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها.

واجبنا تجاه وطننا بهذه المناسبة

تلك أهم المميزات والخصائص التي تحلت بها ثورة أول نوفمبر المباركة، والتي كانت وراء وصولها إلى تحقيق هدفها الأكبر وهو تحرير البلاد من المحتلين، وتمكين الجزائريين من إقامة دولتهم في وطنهم وحكم أنفسهم بأنفسهم. وهذه المميزات تفرض علينا أن ننهض بواجباتنا تجاه وطننا، وأن نحرص على الحفاظ عليه والدفاع عنه بالنفس والنفيس، وعدم الإسهام في أي سلوك أو تصرف يمكن أن يكون سببا في الإضرار به، ومن هذه الواجبات: 1- التمسك بقيمنا ومبادئنا الحضارية وعناصر هويتنا الوطنية التي قامت عليها الثورة وبنيت على أساسها الدولة الجزائرية بعد الاستقلال، ألا وهي الثلاثية المقدسة المتمثلة في: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. 2- المحافظة على الوحدة الوطنية وعدم الانسياق وراء دعوات التفرقة والتمزيق والعنصرية المقيتة، مع استحضار قيمنا الإسلامية في التراحم والتكافل والتضامن والتحابب والتعاون في ما هو متفق عليه من المبادئ العامة المشتركة. 3- تغليب المصلحة العامة للوطن ولعموم الشعب على المصالح الشخصية والفئوية. 4- المشاركة في النهوض بالوطن والإسهام في تقدمه، بإتقان العمل وأداء الواجبات المنوطة بنا في وظائفنا وأنشطتنا العامة والخاصة.

الذكرى الثانية

أستاذي الدكتور حسن أبو غدة كما عرفته



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 2020، وفي أحد مستشفيات مدينة اسطنبول التركية، فاضت إلى بارئها روح أستاذنا العلامة الأستاذ الدكتور حسن عبد الغني أبو غدة، بعد معاناة من مضاعفات فيروس كورونا. ولقد كان نبأ رحيله فاجعا لكل من عرفه أو دَرَس على يديه أو تعامل معه، نظرا لما كان يتميز به من نبوغ علمي ونشاط فكري وتعامل وُدّي. هذا المقال الموجز عربون وفاء - وإن كان جهد المقل - لأستاذنا الكريم في الذكرى الثانية لرحيله رحمه الله.

نبذة من سيرته

هو حسن بن عبد الغني بن محمد بشير أبو غدة، ولد في مدينة حلب السورية يوم الأربعاء 21 ربيع الأول عام 1366هـ الموافق لـ 12 فبراير 1947م، في أسرة عريقة تعود في أصولها إلى قبيلة بني خالد التي تنتسب إلى الصحابي خالد بن الوليد المخزومي رضي الله عنه، وقد عُرفت هذه الأسرة في حلب بنبوغ أبنائها في العلم الشرعي، ويكفي أن عمه هو العلامة المحدّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

أحب حسن العلم منذ طفولته الباكرة، فتدرج في مختلف مراحل التعليم في مدارس حلب حتى حصل على الثانوية العامة (البكالوريا)، لينخرط ضمن طلاب كلية الشريعة بجامعة دمشق، التي حصل منها على الليسانس (البكالوريوس) سنة 1972، بعد أن نهل العلم الشرعي على فطاحل العلماء الذين كانت تزخر بهم هذه الكلية، من أمثال المشايخ العلماء: محمد سعيد رمضان البوطي، وهبة الزحيلي، عبد الرحمن الصابوني، فتحي الدريني، محمد عجاج الخطيب، محمد فوزي فيض الله، محمد أديب صالح، نور الدين عتر، عدنان زرزور، مازن المبارك، وغيرهم. كما استفاد من مجالس العلم التي كان تعج بها مساجد كل من حلب ودمشق ويُدَرِّسُ فيها كبار علماء المدينتين.

ارتحل بعد ذلك إلى القاهرة ملتحقا بجامعة الأزهر، أين تابع دراسته العليا في كلية الشريعة والقانون بها، وأعد رسالة علمية في فقه السياسة الشرعية بعنوان (وحدة رئاسة الدولة وحكم تعدد الخلفاء)، بإشراف الأستاذ الدكتور محمود شوكت العدوي رحمه الله، نال بها الشهادة العلمية (الماجستير) سنة 1978.

لم يتوقف الطموح العلمي لأستاذنا حسن أبو غدة عند هذا الحد، وإنما قرر أن يواصل المسيرة إلى نهايتها، فارتحل إلى تونس أين التحق بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، وهناك أنجز أطروحة علمية نال بها شهادة دكتوراه الدولة في الفقه والسياسة الشرعية سنة 1986، وكانت بعنوان (أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام)، وقد أعدها تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد الحبيب بلخوجة رحمه الله.

هذا عن مسيرته العلمية، أما حياته العملية فقد بدأت بالتحاقه بحقل التربية والتعليم في بلده سوريا، حيث درّس في ثانويات حلب مواد اللغة العربية والتربية الإسلامية مدة عشر سنوات، ثم أتيح له أن يلتحق بالكويت مدرسا في التعليم العام أولا ثم في جامعة الكويت بعد ذلك، وبعد تعرضها للغزو العراقي اضطر إلى الخروج منها مهاجرا إلى الجزائر، حيث أصبح أستاذا بمعهد الشريعة بباتنة الذي كان تابعا لجامعة الأمير عبد القادر في قسنطينة، وبعد سنتين انتقل إلى المملكة العربية السعودية للعمل بقسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض أين



قضى أزيد من ربع قرن، وفي سنة 2017 شد الرحال إلى اسطنبول في تركيا، أين تعاقد كأستاذ مع قسم العلوم الإسلامية بجامعة صباح الدين زعيم وكخبير بمركز الاقتصاد الإسلامي فيها، كما حصل على الجنسية التركية في ديسمبر 2018.

متى عرفتُه؟ وكيف؟

أذكر جيدا حين جاء الأستاذ الدكتور حسن عبد الغني أبو غدة رحمه الله إلى معهدنا (معهد الشريعة بباتنة حينئذ) في افتتاح السنة الجامعية (1990–1991)، قادما من الكويت التي غادرها بعد احتلالها من قبل القوات العراقية في شهر محرم 1411هـ/ أوت 1990م، وكنتُ حينها في السنة الرابعة (أي سنة التخرج)، وكان من حظنا أن دَرَّسَنا نحن طلاب الدفعة الأولى مادة أو مقياس (مناهج المجتهدين)، فكنا نلتقي به في المحاضرة النظرية العامة، كما نلتقي به مرة ثانية في الدروس التطبيقية، وكانت للأستاذ رحمه الله منهجية خاصة متميزة في تقديم الدروس وفي التدريب على إعداد العروض والملخصات وتقديمها، حيث يكلف كل واحد منا نحن الطلبة بإعداد عرض في مسألة من مسائل المقرر وتقديم ملخص عنها في الحصة، وهي طريقة تلزم الطالب باستيعاب المسألة جيدا حتى يتمكن من تقديم ملخص موجز لها لا تتعدى مدته بضع دقائق، حيث لم يكن الأستاذ يسمح للطالب بقراءة العرض أو الملخص وإنما يلزمه بتقديمه ارتجالا.

كانت محاضرات الأستاذ ودروسه التطبيقية من الإمتاع بحيث لم نكن نشعر بها وهي تنقضي بسرعة، وهو ما جعلنا نرتبط به ارتباطا روحيا عاطفيا إلى جانب ارتباطنا به علميا وعقليا.

علاقتي به

تخرجتُ مع زملائي من طلاب الدفعة الأولى في معهد العلوم الإسلامية بباتنة بشهادة الليسانس في العلوم الإسلامية في نهاية شهر جوان 1991، وكان من حسن حظي أن أُوَظَّفَ في المعهد مباشرة بعد التخرج، مما أتاح لي فرصة الاحتكاك أكثر بالأستاذ واللقاء به عدة مرات في الأسبوع، والاستفادة من علمه وتجربته، ومن ذلك أنه أعارني النسخة الوحيدة التي كانت عنده من كتابه الذي كان أطروحته في الدكتوراه وهو "أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام" فقرأته كله وأعدته إليه، كما أهداني نسخة من كتابه "رسائل إلى المسلم المعاصر: قضايا من الحياة في ضوء الإسلام". وقد سَرَّه أني كنت أنشر مقالات في بعض الجرائد التي كانت تصدر في تلك الفترة، فكان – من تواضعه – يبدي إعجابه ببعض تلك المقالات ويشجعني على الاستمرار في الكتابة والنشر.

وفي هذا السياق أذكر زيارة رافقتُه خلالها إلى مدينة قسنطينة، بسيارته من نوع (بيجو 305)، حيث زرنا مؤسسة النصر للصحافة والتقينا بمديرها حينئذ السيد (م.ش.ع)، والذي تعاقد معه على نشر سلسلة مقالات إسلامية تربوية في جريدة "العقيدة" التي كانت تصدرها مؤسسة النصر في تلك المرحلة، وكانت واسعة الانتشار والمقروئية في أوساط الشباب والطلبة الجامعيين بصفة خاصة. وقد شرعت الجريدة في نشر عدد من تلك المقالات بعد ذلك، لكنها لم تُتم نشرها كلها. في أوائل سنة 1992 نظم معهدنا أول مسابقة ماجستير، وتم تكليف الدكتور حسن أبو غدة بالإشراف على المسابقة، وقد شارك فيها معظم طلبة الدفعة الأولى المتخرجة، إلى جانب طلبة آخرين تخرجوا من كل من جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ومعهد العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر ومعهد الحضارة الإسلامية بوهران. وظهرت النتائج فكنت الأول بين خمسة عشر طالبا ناجحا، وهو ما جعلني آمل أن أحظى بالدراسة مرة أخرى على يد أستاذنا وأطمح إلى أن يكون مشرفا على رسالتي في الماجستير، لكن قبل أن تبدأ الدروس النظرية السابقة على التحضير لرسالة الماجستير فوجئنا بقرار الأستاذ مغادرة المعهد بعد حصوله على عقد للتدريس في المملكة العربية السعودية، وهكذا سافر الأستاذ في منتصف السنة الدراسية (1991–1992) دون أن نحظى بالدراسة على يديه في المرحلة التمهيدية للماجستير أو الانتفاع بخبرته وتجربته في البحث العلمي.

متابعتي له وتواصلي معه

انقطعت صلتي بالأستاذ خلال السنوات التي تلت رحيله، لكني كنت أتابع نشاطه العلمي من خلال مؤلفاته وبحوثه ومقالاته التي كانت تصلني أحيانا، ولم يتيسر لي التواصل معه مرة أخرى إلا بعد ظهور مواقع التواصل الاجتماعي، حيث ربطتني به صداقة افتراضية من خلال موقع "فايس بوك" منذ سنة 2010، فكنا نتبادل الرسائل أحيانا، كما كان كل واحد منا يتابع نشاط الآخر ومنشوراته. وبعد انتهاء عمله في السعودية وانتقاله إلى اسطنبول في تركيا أستاذا في جامعة صباح الدين زعيم، ظللت أتابع أخباره، ورجوت أن تتاح لي فرصة زيارته هنالك، إلا أن هذه الفرصة لم تتيسر، حتى جاء الوباء الفتاك "كورونا" الذي فجعنا في كثير من الأحبة والأصدقاء، وكان من بين ضحاياه شيخنا وأستاذنا العلامة الفقيه الدكتور حسن عبد الغني أبو غدة، الذي غادر هذه الدنيا الفانية بعد إصابته بهذا الفيروس، وذلك يوم اليوم



الخميس 12 من ربيع الأول 1442هـ الموافق 29 أكتوبر 2020م، عن أربعة وسبعين عاما.

تراثه العلمي والفكري

عزاؤنا في فقداننا لأستاذنا رحمه الله، أن مروره على هذه الدار الفانية لم يكن مرورا عابرا، وإنما كان مرورا حافلا بجلائل الأعمال، حيث خرّجَ أجيالا من طلبة العلم وتولى تكوين عدد كبير من الباحثين في الماجستير والدكتوراه، حيث أشرف على أزيد من خمسين رسالة علمية ما بين ماجستير ودكتوراه في كل من كلية التربية بجامعة الملك سعود وجامعة نايف للعلوم الأمنية في الرياض بالمملكة العربية السعودية وجامعة صباح الدين زعيم في اسطنبول بتركيا.كما خلف ثروة علمية زاخرة ومتنوعة بين مؤلفات وبحوث ومقالات ودروس ومحاضرات يستفيد منها الباحثون وطلبة العلم. فقد ترك أستاذنا تسعة عشر كتابا علميا وفكريا، وسبعة عشر بحثا علميا محكما منشورا في المجلات الأكاديمية، والمئات من المقالات في مختلف فروع الثقافة الإسلامية، والمنشورة في المجلات والجرائد الثقافية الإسلامية في كل من السعودية والكويت والإمارات والجزائر وغيرها. كما قدم مئات الأحاديث الإذاعية بين ديني وتربوي واجتماعي من خلال إذاعتي القرآن الكريم في كل من الكويت والسعودية أثناء إقامته فيهما، إضافة إلى عشرات الدروس التلفزيونية التي بثت من قنوات كويتية وإماراتية وبحرينية. وعندما كان في الكويت شارك في فهرسة خمسة كتب فقهية مذهبية بطلب من هيئة (الموسوعة الفقهية الكويتية). كما كتب خمسة مصطلحات علمية موسوعية عام 1995 م، بطلب من هيئة (الموسوعة العربية العالمية) التي صدرت في (33) مجلداً، بمدينة الرياض بالسعودية عام 1996م. وشارك في تحرير (معجم مصطلحات العلوم الشرعية) الذي أصدرت طبعته الثانية مدينة الملك عبد العزيز للعلوم التقنية في الرياض في أربعة مجلدات سنة 2017م وإنا لنرجو أن يقيض الله عز وجل لهذا التراث الفكري الزاخر لأستاذنا من يجمعه ويرتبه ويصدره في كتب يستفيد منها المسلمون عامة وطلاب العلم بصفة خاصة.رحم الله أستاذنا العلامة الفقيه الدكتورحسن عبد الغني أبو غدة وأسكنه فسيح جناته وخلفه في أهله وذريته ونفع بعلمه وآثاره.

وقفة وفاء

أخي الأستاذ عبد الله باشا.. مسيرة عطاء



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

كان خبرا فاجعا ذلك الذي بلغني صبيحة يوم الأربعاء 26 ربيع الثاني 1443هـ، الموافق لـ 01 ديسمبر 2021م، حين اتصل بي الصديق والزميل الأستاذ جمال بن العشي، وأعلمني بوفاة الأخ الكريم والصديق العزيز وزميل الدراسة الجامعية الأستاذ عبدالله باشا، ومما زاد في فجاعة الخبر أننا - أي أصدقاءه - كنا نأمل أن يخرج من المستشفى سليما معافى ويعود إلى حياته العادية بعد أن بدأت تظهر بوادر شفائه من إصابته بفيروس كورونا، لكن قضاء الله عز وجل سبق ففاضت روح أخينا عبدالله إلى بارئها ملتحقا بمن سبقه إلى دار البقاء من ضحايا هذا الفيروس الرهيب.

نبذة من سيرته

هو عبدالله باشا، من مواليد "جمورة" بولاية بسكرة سنة 1968. زاول دراسته الابتدائية في مدرسة سيدهم ميلود بمدينة بسكرة ما بين سنة 1974 وسنة 1980. وبعد حصوله على شهادة التعليم الابتدائي التحق بمتوسطة زاغز جلول التي درس فيها المرحلة المتوسطة ونال منها شهادة التعليم المتوسط في شهر جوان 1984. أما الدراسة الثانوية فقد زاولها في متقن سعيد بن شايب، وقد تكللت بحصوله على شهادة البكالوريا فرع المحاسبة في شهر جوان 1987. ولما علم بافتتاح معهد العلوم الإسلامية بباتنة في سبتمبر 1987 سارع إلى التسجيل فيه ليكون أحد طلبة دفعته الأولى. وبعد أربع سنوات من الدراسة حصل شهادة الليسانس في العلوم الإسلامية، تخصص أصول الفقه، في شهر جوان 1991.

أما مساره العملي فقد بدأه في شهر سبتمبر 1991، حين عين أستاذا في ثانوية العربي بن مهيدي بمدينة بسكرة، والتي درّس فيها بضع سنوات، ثم انتقل إلى مسقط رأسه جمورة أين درس في ثانويتها، ثم التحق بالخدمة الوطنية مجندا في صفوف الجيش الوطني الشعبي.

بعد أداء واجب الخدمة الوطنية، عاد من جديد إلى ثانوية العربي بن مهيدي بمدينة بسكرة، التي ظل يُدرس فيها إلى غاية سنة 2009، عُيّن بعدها مديرا لثانوية في مدينة عين ولمان بولاية سطيف، والتي ظل يديرها مدة ثلاث سنوات.

وفي سنة 2012 انتقل إلى مدينة باتنة مديرا لثانوية العربي التبسي لمدة ثلاث سنوات، نُقل بعدها إلى ثانوية الإخوة العمراني بنفس المدينة والتي قضى فيها سنواته الأخيرة.

وأثناء وجوده في مدينة باتنة التحق بالدراسة الجامعية من جديد في سلك الماستر، حيث حصل على هذه الشهادة سنة 2016، بعد سنتين من الدراسة، على مستوى كلية العلوم الإسلامية بباتنة.

أبلى المرحوم بلاء حسنا في ثانوية الإخواة العمراني، فقد استطاع أن يجعل منها الثانوية النموذجية في ولاية باتنة، حيث أصبحت تحت إدارته الثانوية الأولى في الترتيب على مستوى الولاية، ولم تعد تستقبل سوى أنجب التلاميذ الناجحين بتفوق في شهادة التعليم المتوسط.

علاقتي به

ترجع علاقتي بالأخ عبدالله باشا إلى شهر سبتمبر 1987، حين التحقنا سويا بمعهد العلوم الإسلامية بباتنة ضمن طلبة الدفعة الأولى للمعهد، فقد تعارفنا منذ الأيام الأولى وربطتنا علاقة أخوة وصداقة وثيقة. ومما زاد هذه العلاقة توثقا ومتانة حرصنا الدائم على حضور الدروس والمحاضرات والاحتكاك بالأساتذة وشهود الملتقيات والندوات التي كانت تعقد باستمرار في مدينة باتنة في تلك الفترة الذهبية من أواخر الثمانينات من القرن الماضي.

ومما ميز علاقتنا في تلك المرحلة أننا كثيرا ما كنا نلتقي معا رفقة زميلنا عبد الباسط دردور وزملاء آخرين لنتدارس معا ما كنا نتلقاه من دروس ومحاضرات على أيدي أساتذتنا، حيث نراجعها مع بعضنا ونتناقش فيها، وكانت تلك اللقاءات كثيرا ما تمتزج بالفكاهة من خلال ما يُدلي به بعضنا في كل مرة من نكت وحكايات تدفع الملل وتجدد النشاط. كما كانت تلك اللقاءات تتميز بالشاي اللذيذ الذي كان يعده لنا الأخ عبدالله حينما نلتقي في غرفته بالحي الجامعي، وكان بارعا في إعداده وتحضيره وتقديمه.

كما كنا حريصين على زيارة أساتذتنا الأزهريين وغيرهم الذين كانوا يُدرسوننا، فكنا نذهب إليهم في بيوتهم، وكانوا يستقبلوننا بترحاب وفرح وسرور، وأذكر من بين من كنا نزورهم كثيرا مشايخنا الأفاضل: عايش رجب الكبيسي وعبد الفتاح الفرنواني رحمهما الله، ويوسف حسين أحمد حفظه الله، وغيرهم.

وبعد التخرج ظلت العلاقة مستمرة بيننا، فقد كنت ألتقي به عندما أذهب إلى مدينة بسكرة التي كنت دائم الزيارة لأقاربي فيها. ثم انقطعت تلك العلاقة حين تعذر اللقاء عندما التحق بعين ولمان مديرا لثانويتها. لكن هذه العلاقة ما لبث أن عادت إلى عهدها حين رجع إلى مدينة باتنة مديرا لثانوية العربي التبسي ثم مديرا لثانوية الإخوة العمراني، حيث كنا نلتقي مرة بعد مرة، أحيانا على غداء، وأحيانا على قهوة او شاي، وأحيانا في الثانوية أو في الكلية، وكان يشاركنا هذه اللقاءات الإخوة الزملاء عبد الباسط دردور والهاشمي قروف وجمال بن العشي وغيرهم.

وحتى عندما انتشر فيروس كورونا وبدأ يفتك بالناس في كل مكان، لم تنقطع صِلاتنا، فقد ظللنا نلتقي باستمرار، مع التزام إجراءات التحفظ الصحي.

وأذكر آخر ثلاثة لقاءات جمعتني به، أولها حينما طلب مني أن أصحبه مع إخوته وأقاربه لحضور مراسيم عقد زواج ابن أخيه في بيت صهره. واللقاء الثاني كان بمناسبة زواج ابنة أحد إخواننا الذين التحقوا بالرفيق الأعلى، حيث دعانا أبناؤه لحضور عقد زواج أختهم باعتبارنا من أحباب والدهم، فذهبت برفقته وفرحوا بنا وحضرنا إبرام العقد ودعوْنا للزوجين بالخير والبركة، وتناولنا الغداء معهم ثم انصرفنا مودّعين بشكرهم وعرفانهم. أما اللقاء الأخير فقد جمعنا على مائدة الغداء في مطعم الكرة الذهبية، وبعده دعاني للذهاب معه لرؤية بيته الذي كان يضع اللمسات الأخيرة عليه، وعندما وصلنا إلى البيت ودخلنا بدأ يطوف بي في أرجائه ويشرح لي رؤيته في التصميم الذي بناه عليه، وتصوره لما سيكون عليه بعد اكتماله. بعد ذلك دعوته بدوري للذهاب إلى بيتي الذي كنت بصدد بنائه لأطلعه على ما وصلت إليه الأشغال التي كانت جارية فيه، وهناك قدم لي جملة من الملاحظات والنصائح، ثم عاد هو إلى الثانوية ورجعت أنا إلى الكلية، وكان ذلك آخر لقاء جمعنا. اما آخر مكالمة جرت بيننا فقد كانت حين علمت بإصابته بالوباء فاتصلت به للاطمئنان عليه، وحين رد عليّ لم يستطع إكمال المكالمة بسبب السعال الشديد الذي انتابه، فودعته متمنيا له الشفاء والسلامة.

وقفة وفاء

الجزء 02

أخي الأستاذ عبد اللّه باشا.. مسيرة عطاء



بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

كان خبرا فاجعا ذلك الذي بلغني صبيحة يوم الأربعاء 26 ربيع الثاني 1443هـ، الموافق لـ 01 ديسمبر 2021م، حين اتصل بي الصديق والزميل الأستاذ جمال بن العشي، وأعلمني بوفاة الأخ الكريم والصديق العزيز وزميل الدراسة الجامعية الأستاذ عبدالله باشا، ومما زاد في فجاعة الخبر أننا - أي أصدقاءه - كنا نأمل أن يخرج من المستشفى سليما معافى ويعود إلى حياته العادية بعد أن بدأت تظهر بوادر شفائه من إصابته بفيروس كورونا، لكن قضاء الله عز وجل سبق ففاضت روح أخينا عبدالله إلى بارئها ملتحقا بمن سبقه إلى دار البقاء من ضحايا هذا الفيروس الرهيب.

وفاته وجنازته

عندما بدأ فيروس كورونا بالتراجع، وبدأ الناس يتخففون شيئا فشيئا من إجراءات الوقاية الصحية الصارمة، فوجئنا بإصابة أخينا عبدالله بهذا الفيروس في أوائل شهر نوفمبر 2021، وقد كان رحمه الله يحسب الأمر مجرد نزلة برد بسيطة، لكن مع تفاقم حالته الصحية تبين أنه مصاب بالفيروس الفتاك، وهو ما استوجب نقله إلى مستشفى الأمراض الصدرية، ونظرا لتدهور حالته تم تحويله إلى مصلحة العناية المركزة بالمستشفى الجامعي لمدينة باتنة، وهناك قدمت له الإسعافات الضرورية، وظل يعالج حتى بدأت تظهر عليه علامات التعافي التدريجي، وبدأنا ننتظر خروجه من المستشفى للاحتفاء بعودته إلى حياته العادية وإلى أصدقائه ومحبيه.

لكن تبين أن تلك البوادر التي ظهرت عليه لم تكن سوى إرهاصات الموت الذي أعقبها، فقد تراجعت صحته من جديد وسرعان ما فاضت روحه إلى بارئها فجر يوم الأربعاء يوم الأربعاء 26 ربيع الثاني 1443هـ الموافق لـ 01 ديسمبر 2021م، وفي مساء ذلك اليوم اجتمع في مقر ثانوية الإخوة العمراني المئات من أصدقائه وأحبابه وزملائه وعارفيه ومحبيه وألقوا النظرة الأخيرة على وجهه، ثم حُمل جثمانه إلى مسجد صهيب الرومي أين صُليت عليه صلاة الجنازة ومنه إلى مقبرة بوزوران أين ووري الثرى.

أربعينيته

بعد مرور أربعين يوما على وفاة أخينا عبدالله، نظمت ثانوية الإخوة العمراني يوما دراسيا، دعت إليه أصدقاء الفقيد وزملاءه وأحبابه وأفراد عائلته الكبيرة، وكانت المناسبة فرصة للاستماع إلى شهادات كثيرة تبارى من سمحت لهم الفرصة للحديث في الإدلاء بها، وقد اتفقت جميع الشهادات على ما تحلى به الفقيد من خصال وما قام به من أعمال وما تميز به من جد واجتهاد وعطاء غير محدود.

وقد كنت من بين من أتيحت لهم فرصة التدخل، فتحدثت عن علاقتي به ومسيرتي معه وروابط المودة والمحبة التي جمعتنا طيلة أربعة وثلاثين عاما، والخصال التي عرفتها فيه والأخلاق الإسلامية العالية التي رأيتها متجسدة في شخصه.

خصاله الحميدة

اجتمعت في أخينا الحبيب عبدالله باشا رحمه الله مجموعة من الخصال التي قلّ أن تجتمع في شخص واحد، وهذه الخصال ظلت ملازمة لشخصيته طيلة الفترة التي عرفته خلالها، ومنها:

1- صفاء القلب وعفة اللسان: فهو لم يكن يحمل حقا لأحد أو يبغض أحدا، كما أنه كان عفيف اللسان لا ينطق بما يؤذي غيره أو يغضب ربه.

1- الألفة: فقد كان ممن يصدق فيهم الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمنُ يألَفُ ويُؤلَفُ)، حيث كان سهلا هينا، ممن تُكسب صداقته بسهولة، وممن إذا اتصلت به لم تجد أي حرج في معاملته، وإذا صحبته لم تشعر بالوحشة معه. يتجلى هذا في الأصدقاء الذين اكتسبهم في رحلة الحياة والذين ظلت علاقته بهم ثابتة لم تتبدل ولم تتغير إلى يوم رحيله.

2- المرونة: وقد تجلت هذه الخصلة فيه بعد أن أصبح مديرا، حيث وظفها في التعامل مع الناس ومع من يقصدونه من أصحاب الحاجات وخاصة المسؤولين والأعيان، والذين يحرصون على أن يدرس أبناؤهم في ثانوية العمراني، فكان يعالج طلباتهم بكل مرونة وحكمة، ويلبي منها ما تسمح به مكانة المؤسسة والمرتبة التي وصلتها، وحتى من لا يقضي لهم ولا يلبي طلباتهم كان يرضيهم بالكلمة الطيبة والتدخل لإلحاق أبنائهم بثانويات أخرى.

3- الوفاء: وهذا ما ميز علاقته بأصدقائه وأساتذته، فكان يذكر الجميع بخير، ولا يقدح في أحد ممن عرفه في رحلة الحياة. ومما أذكره في هذا السياق وقفته مع أخينا الأستاذ محمد الشريف بقامي رحمه الله خلال تواجده في المستشفى، حيث ظل يزوره ويتفقد أحواله يوميا دون انقطاع حتى وفاته.

4- الخدمة: حيث كان يبذل خدماته لكل من يقصده في حاجة من الحاجات التي تدخل تحت نطاق وظيفته، وخاصة لأصدقائه وأحبابه وأساتذته وزملائه أيام الدراسة. وأذكر أنني قصدته في عدة خدمات، سواء لي أو لغيري، فلم يتردد في بذل أقصى ما يستطيع من جهد واستعمال علاقاته لتقديم هذه الخدمات، ولم يكن يتردد حتى أن يوقع نفسه في الحرج في بعض الأحيان لتيسيرها. ولم أكن الوحيد الذي قدم له هذه الخدمات، وإنما كان يبذلها لكل من يقصده، ويسعى في تحقيقها بقدر ما يملك من جهد وطاقة، وفيه يصدق أيضا ما روي عن رسو ل الله صلى الله عليه وسلم: (أحبُّ الناس إلى الله أنفَعُهُمْ للنّاس، وأحبُّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ سُرُورٌ يُدْخِلُهُ على مسلم، أوْ يكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً، أوْ يقْضِي عنهُ دَيْنًا، أوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا).

هذه خصال خبرتها وعرفتها في أخينا عبدالله باشا، ولست أزكيه على الله عز وجل، وإنما أقول ما علمت في رجل أحسبه من المؤمنين الصادقين الذين أكرمني الله عز وجل بمعرفتهم وصحبتهم في هذه الرحلة الحياتية العابرة على هذه الأرض. رحم الله أخانا عبدالله وجمعنا به في جنات النعيم (إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)، (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)